الرئيس محمد انور السادات

الضباط الأحرار

الطريق الى الثورة



ن و ن

الضباط الأحرار

الطريق إلى الثورة

الضباط الأحرار

الطريق إلى الثورة

بقلم
أنور السادات

نون

٥٣ ش أسعد – دوران شبرا.. ت: ٠١٢٥٧٨٧٩٧٨

- اسم الكتـاب: الضباط الأحرار - الطريق إلى الثورة
- المؤلـــف: أنـور الســادات
- الناشـــر: دار نــــون
- رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣١٠

فهرس

مدخل

حركة الضباط الأحرار، هي حركة تغيير سلمي أخذت شكل الانقلاب العسكري، قادها ضباط الجيش المصري بقيادة محمد نجيب في منتصف ليلة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، ونجحت بالاستيلاء على مبنى هيئة أركان الجيش حيث أن الشعب أعلن فيه قيام الجيش بحركة لصالح الوطن.

وفي اليوم نفسه استقالت وزارة أحمد نجيب الهلالي وخلفتها وزارة يرأسها علي ماهر، وفي ٢٤ يوليو - تموز وافق الملك فاروق على رغبات الجيش، وفي ٢٥ يوليو/ تموز انضم ضباط الأسطول إلى الحركة. وفي ٢٦ تموز - يوليو طالب الجيش الملك بالنزول عن العرش، ما دفع الملك فاروق للذهاب إلى إيطاليا بعد كتابة وثيقة تنازله عن العرش، لولي عهده، وبناءً عليه ألّف مجلس الوصاية ثم ألغي، حينما أصدر مجلس قيادة الثورة (١٨ حزيران - يونيو ١٩٥٣) بياناً بإعلان الجمهورية وإلغاء النظام الملكي في مصر.

بداية التنظيم:

بعد هزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وإعلان قيام دولة إسرائيل حمل العديد من ضباط الجيش المصري مسؤلية فساد الأوضاع بالجيش والهزيمة العسكرية على عاتق الملك فاروق الأول والحكومة، فغامرتهم الرغبة في إصلاح أوضاع الجيش فقام جمال عبد الناصر وكان يحمل رتبة بكباشي بالقوات المسلحة المصرية وكان أحد الضباط المشاركين في حرب فلسطين وقد أدي أداء غير تقليدي أثناء العمليات قام بتأسيس تنظيم الضباط الأحرار وقد ضم التنظيم مجموعة من الضباط من صغار الرتب (في ذلك الوقت) بمباركة من اللواء محمد نجيب الذي لم يكن عضوا فيه وكان في ذلك الوقت قد إنتخب رئيسا لنادي الضباط ولم يكن يحظى بمحبة الملك فاروق.

اهم أعضاء الحركة:

- محمد نجيب
- جمال عبد الناصر
- حسين الشافعي
- كمال الدين حسين
- زكريا محيي الدين
- خالد محيي الدين
- صلاح سالم
- جمال سالم
- عبد اللطيف البغدادي
- عبد الحكيم عامر
- أنور السادات
- يوسف صديق

وفي أعقاب الثورة، صدرت تشريعات هامة توضح الأهداف الرئيسية وأهمها:

- إلغاء الرتب المدنية ٢ آب - أغسطس ١٩٥٢.
- تطهير الإدارة الحكومية ٤ آب - أغسطس ١٩٥٢ .
- قانون الإصلاح الزراعي ٩ أيلول - سبتمبر ١٩٥٢.
- العفو الشامل عن الجرائم السياسية ١٦ تشرين الأول - أكتوبر ١٩٥٢ .
- إعلان إلغاء دستور ١٩٢٣ ٩ كانون الأول - ديسمبر ١٩٥٢.
- إلغاء الأحزاب السياسية (١٨ كانون الثاني - يناير ١٩٥٣).

حققت الثورة عدة أعمال سياسية واجتماعية، أهمها: التأكيد على عروبة مصر وإقامة الوحدة مع سورية (١٩٥٨)، جلاء القوات البريطانية جلاء تاماً (١٩٦٥)، وتأميم قناة السويس (١٩٥٦)، وتأميم البنوك ووسائل المواصلات وتنظيم الصحافة.

تألف مجلس قيادة الثورة من السادة الضباط: جمال عبد الناصر، أنور السادات، حسن إبراهيم، حسين الشافعي، جمال سالم، زكريا محيي الدين، صلاح

سالم، عبد الحكيم عامر، عبد اللطيف البغدادي، خالد محيي الدين، محمد نجيب، كمال الدين حسين، كما انضم إلى مجلس قيادة الثورة في أوقات أخرى: يوسف صديق، عبد المنعم أمين، عبد المنعم عبد الرؤوف.

وقد أبعد المجلس خالد محيي الدين ومحمد نجيب في سنة ١٩٥٣. وألغي المجلس بانتهاء فترة الانتقال وصدور الدستور في شهر حزيران - يونيو ١٩٥٦، حيث تولى عبد الناصر رئاسة الجمهورية.

اختلفت القوائم التي تحصر أسماء الضباط الأحرار، حيث قارب عددهم في قائمة صلاح نصر على الثلاثمائة والخمسين، بينما بلغوا في قائمة الرئيس السادات تقريبا نصف هذا العدد مع بعض الاختلافات، وقد خصص الرئيس السادات معاشا شهريا للضباط الأحرار الواردين في قائمته مقسما إياهم إلى قسمين: قسم يتقاضى بجانب معاشه الأصلي معاش وزير، بينما يتقاضى القسم الآخر مبلغا معينا من المال بجانب المعاش الأصلي.

خطة الضباط الاحرار للقيام بالثورة:

كانت الاخبار قد وصلت الى جمال عبد الناصر بنية القصر بالقبض على ١٣ من الضباط المنتمين للتنظيم والاتجاه لتعيين حسين سري وزيرا للحربية فاجتمع مجلس قيادة حركة الجيش او ثورة الثالث والعشرين من يوليو كما سميت فيما بعد لاقرار الخطة التي وضعها زكريا محي الدين بتكليف من جمال عبد الناصر ومعاونه عبد الحكيم عامر حيث تقوم الكتيبة ١٣ بقيادة احمد شوقي المكلف بالسيطرة على قيادة القوات المسلحة في سرية كاملة وقرروا ان تكون ساعة الصفر - الساعة الواحدة - ليلة الاربعاء ٢٣ يوليو ١٩٥٢واتفق الضباط ايضا على ان يكون مركز نشوب الثورة في منطقة ثكنات الجيش من نهاية شارع العباسية الى مصر الجديدة واتفقوا على الترتيبات الاخيرة

غير ان خطأ في ابلاغ يوسف صديق قائد ثان الكتيبة ١٣ بساعة الصفر تسبب في نجاح الثورة حيث تحرك صديق بقواته في الساعة الحادية عشرة واستطاع السيطرة على مجلس قيادة القوات المسلحة في كوبري القبة واعتقال كل من قابلهم في الطريق من رتبة قائم مقام فما فوق كما كانت تقضي الخطة ومراكز القيادة بالعباسية والاستيلاء على مبنى الاذاعة والمرافق الحيوية بالقاهرة واعتقال الوزراء.

وانطلق صوت انور السادات يلقي البيان الاول من اللواء محمد نجيب الى الشعب المصري ونصه:

(اجتازت مصر فترة عصيبة في تاريخها الاخير من الرشوة والفساد وعدم استقرار الحكم وقد كان لكل هذه العوامل تاثير كبير على الجيش وتسبب المرتشون المغرضون في هزيمتنا في حرب فلسطين واما فترة ما بعد هذه الحرب فقد تضافرت فيها عوامل الفساد وتامر الخونة على الجيش وتولى امرهم اما جاهل او خائن او فاسد حتى تصبح مصر بلا جيش يحميها وعلى ذلك فقد قمنا بتطهير انفسنا وتولى امرنا في داخل الجيش رجال نثق في قدرتهم وفي خلقهم وفي وطنيتهم ولابد ان مصر كلها ستلقى هذا الخبر بالابتهاج والترحيب اما عن راينا في اعتقال رجال الجيش السابقين فهؤلاء لن ينالهم ضرر وسيطلق سراحهم في الوقت المناسب واني اؤكد للجيش المصري ان الجيش كله اصبح يعمل لصالح الوطن في ظل الدستور مجردا من اية غاية وانتهز هذه الفرصة واطلب من الشعب الا يسمح لاحد من الخونه بان يلجا لاعمال التخريب او العنف لان هذا ليس في صالح مصر وان أي عمل من هذا القبيل يقابل بشدة لم يسبق لها مثيل وسيلقي فاعله جزاء الخائن في الحال وسيقوم الجيش بواجبه هذا متعاونا مع البوليس واني اطمئن اخواننا الاجانب على مصالحهم وارواحهم واموالهم ويعتبر الجيش نفسه مسئولا عنهم والله ولي التوفيق اللواء اركان حرب محمد نجيب)

مقدمة

بقلم القائمقام أنور السادات

كنت أكتب وأروى للشعب قصة ثورتنا، وفي كل مرة كنت أسرد للشعب - وليس لغيره - حقيقة واحدة، وهي أن الثورة لم تقم إلا من أجل شيء واحد.. من أجل أن يحكم الشعب نفسه بنفسه..

ورويت للشعب كل الحقائق.. قلت أن الثورة ألغت الأحزاب، وأسقطت الدستور، لأنها ثورة وليست انقلاباً. ثورة تستهدف إقامة نظام ديمقراطي صحيح، لا نظام مزيف يقوم على الخديعة والتغرير بالشعب، حتى يتمكن المزيفون والمستغلون والمضللون من نهبه والسيطرة على حياته. نحن لم نكن نريد البطش بالشعب بل بأعدائه.. مضيت في حلقات عديدة أروى للناس في مصر وفي خارج مصر حكايتنا.

فرويت قصة العرض الذي تقدم به لنا عم ناريمان يوم أن قام الجيش ليضرب ضربته، وكان العرض من فاروق الملك السابق.. يطلب منا فيه تأليف الوزارة.. فكان ردنا هو طرد عم ناريمان من مبنى القيادة في كوبرى القبة.

ثم بعد ذلك رويت كيف رفضنا فكرة الحكومة العسكرية تلك الفكرة التي كان السيد سليمان حافظ يدعونا إلى تنفيذها في كثير من الأحيان.

كانت أهدافنا - إذن - واضحة.. ومحددة وأصررنا عليها ولم نتراجع.. وتلك الأهداف كما تحدثت عنها تحت هذا العنوان، هي إقامة نظام ديمقراطي سليم مستمد من حاجات الشعب، ونابع من مصالحه.. لا من حاجات الإقطاع والمستغلين والارستقراطية المصرية التي تريد أن تعيش عالة على الناس وجهدهم.

وتحدثت في حلقات هذه القصة التي تراها في الصفحات الآتية، عن العقبات التي صادفناها، وعن المؤامرات.. وعن الذين وقفوا في الطريق ليعطلوا زحف الثورة المصرية، وكيف أننا كنا قد قررنا أن يكون الزحف أبيض، وأن يكون بلا دم.. حتى إذا اعترض الزحف قاطع طريق، كان حتماً

إذن – أن تضرب الثورة بقبضتها الحديدية. فالمسألة لم تكن تمسنا بـل كانـت تمس مستقبل ملايين المصريين الذين في الأغلال.

وفي الطريق مضينا.. والتقينا بكثيرين من الأعداء.. الرجعية المتربـصة بالبلاد.. الأحزاب التي قامت في كنف النظام الملكي الإقطاعي وفـي حمايـة قوات الاحتلال..

والتقينا بالخونة والعملاء.. وبالانتهازيين وفلول النظام الذي سقط.. كنا نريـد أن ينتهي الزحف الأبيض على الأعداء في ساعة واحدة لا في ثلاث سنوات.

لكن المسألة لم تكن في يدنا.. فقررنا أن يـستمر الزحـف مهمـا كانـت العقبات.. فنحن نعرف ما نريد، لم نكن نريد إلا إقامة النظام الـديمقراطي.. لا العسكري كما قال المزيفون.

ولقد حددت الثورة موقفها، ولم يعد أمام الشعب إلا أن يستعد ليحكم نفسه بنفسه.

أن التاريخ اليوم يسجل الانتصار الأكبر للثورة المصرية.

لم يعد أمام الشعب إلا أن يستعد لمواجهة الانتصار الكبير الحاسم على أعدائه، بكل رغبته في العدل والحق والحرية.

***

إن آلاف السنين التي مرت بأبناء البلاد، وهم يجوعون ويمرضون ويمتهنون، قد كتب عليها أن تصبح منذ الآن تاريخاً، يحفظه الشعب بعد انطلاقه. فلا جوع ولا عري ولا ضياع في كنف الحرية، والشعب اليوم قد حصل عليها!

إن الحكم القومي الذي سيسود لن يجد المزيفون لهم مكاناً في ظله، والمجتمـع سوف يصبح اشتراكياً، لا تفصل بين طبقاته أسوار عالية رهيبة، ولا يعلو مـواطن على الآخر كأنه إله ينحني أمامه العبيد.

إن الحزبية كانت تصنع هذا كله... ولم تكـن للطوائـف الكادحـة والعاملـة والمنتجة في نوادي الأحزاب، إلا الوعود ثم الخديعة.

أما اليوم.. فالبلاد بلادهم يملكون كل شيء فيها، بعد أن مهدت أمامهم الثـورة الطريق.. وأزالت منه الصخور والأشواك.

كنا نقول دائماً للمزيفين: نحن لسنا صناع استبداد، فعندما حددنا فترة الانتقال كنا نعني ما نقول، وكنا قد حددناها ليس من أجل البطش بالشعب، فتلك ليست صناعتنا... بل أوجدناها للقضاء على الزيف، على التركة العفنة التي خلفها لنا نظامهم الباطش، القائم على أعمدة الاستعمار والإقطاع والاستغلال والارستقراطية المتعالية.

وكان حتماً على الثورة أن تقوض أركان ذلك النظام، قبل أن تفتح الأبواب أمام الشعب لينطلق نحو مستقبله. كان حتماً على الثورة أن تحدد فترة للانتقال... يتم خلالها تطهير الأرض من الأدران، فيقف الشعب بعد ذلك فوقها آمناً لا تحوطه مؤامرة، أو تتربص به الخديعة.

***

إن التاريخ يطوي اليوم صفحاته المليئة بالذل والإرهاق والضياع، يطويها ليفتح صفحات أخرى، يسجل فيها بدء حياة جديدة لشعب منتصر، متحرر كريم، أراد أعداء الإنسانية وقف زحفه فهزموا.. وتشتتوا.. واجتاحهم الطوفان الكبير!

لا حزبية..

فالشعب هو الحزب الكبير..

لا زعامات مصنوعة..

لا زيف ولا باطل..

بل مجتمع اشتراكي متحرر وحكم قومي لا يشوبه طغيان. قلنا هذا الكلام مرات عديدة.. قلناه تحت هذا العنوان الجليل... لكن المزيفين كانوا دائما يجدون ما يشوهون به الصيحة الطاهرة المخلصة النابعة من أعماق الشعب.

واليوم.. ماذا سيقول المزيفون، بعد أن أصبحت البلاد ملكاً خالصاً لأبنائها.. لكل الأبناء!؟

ماذا سيقول المزيفون والشعب قادم.. والشعب منطلق.. والشعب منتصر؟!

إن الرئيس جمال عبد الناصر قد أطلقها صيحة تنبض بالفرحة والانتصار.. صيحة تحمل الأمل الكبير المضئ للشعب، والنذير لأعدائه..

فمن أراد أن يحيا في كنف الحكم القومي وفي مجتمع اشتراكي لا تفصل بين طبقاته فوارق شاسعة..

من أراد هذه الحياة التي تمجد الإنسان وتخدم إرادته وعمله وكفاحه.

من أراد الحرية والعدل والحق..

من أراد الشرف والعمل الكريم والأمن والرخاء..

من أراد أن يمضي في طريق لا يعترضه فيه باطش أو مستغل أو مستبد..

من أراد أن يصنع مستقبله في حمى الاشتراكية..

من أراد أن يرفع رأسه بين العباد..

كل هؤلاء عليهم اليوم أن يصلوا شاكرين للإله القادر العادل رعايته التي حمت الثورة المصرية حتى أتمت زحفها الكبير..!

أنور السادات

ما هي السياسة؟
وما هي الديمقراطية؟

ما هي السياسة؟

ما هي السياسة؟!

هل هي علم يُدَرس، مثل الميكانيكا، أو مثل الطب والكهرباء، فينبغ فيها الأذكياء ويتبحر فيها ذوو المواهب ويمارسها أصحاب الكفاءات ويعرف أسرارها خريجو المعاهد التي تُدرس فيها السياسة كما يُدرس الطب والكهرباء؟..

ولكي نناقش المسألة ببساطة أكثر أقول: هل السياسة مهنة أو حرفة يمارسها المرء، مثلما يمارس أي عمل آخر، تخصص فيه وفهم قواعده؟

إذا قال لك أحدهم أن فلاناً هذا سياسي داهية، والمعي لا يشق له غبار، فلا تستمع على الإطلاق لهذا الكلام، لأن السياسة ليست حرفة يجيدها إنسان ويفشل فيها آخر، أو يصبح عالماً بخباياها؟!

وصحيح أنه توجد في كل بلاد الدنيا معاهد تُدرس فيها السياسة وعلوم السياسة، لكن تلك المعاهد لا يتخرج منها ساسة على الإطلاق.. بل يتخرج منها موظفون يحدد لهم العمل الذي يقومون به ويظل عملهم ثابتاً لا يتغير، بينما العالم من حولهم يدير شئونه ويغير من نظمه.

الساسة الحقيقيون:

فمن هم الساسة الحقيقيون هؤلاء؟!

إنهم الشعب..!

فالسياسة هي الحاجة.. والشعور بالحاجة هو الذي يدفع المرء إلى الكفاح من أجل تحقيق حاجاته.. هنا تصبح المسألة سياسة!

فلا المعاهد ولا كل مدارس الدنيا يمكنها أن تحدد حاجات الناس.. الذي يحدد هذه الحاجات هم أصحاب الحق فيها!

وعندما يقود أحد أبناء الشعب بلاده في طريق الديمقراطية – مثلاً – وينجح في قيادته تلك، ويحقق الانتصارات دواماً، فليس معنى هذا أن ذلك الزعيم سياسي لا يشق له غبار، وعالم متبحر ازرق الناب، معنى هذا أن هذا القائد يعرف حاجات الشعب، الذي يقوده، ويعرف مصالحه، ويعرف أعداء هذا الشعب الذين يقفون في طريقه..

ومعرفة الحاجات والمصالح والأعداء لا تحتاج إلى دراسة في معهد أو دبلوم من الجامعات.. بل تحتاج فقط إلى العيش وسط المجموعة وهي تمارس كفاحها اليومي من أجل الرزق.. أي يجب أن يكون القائد من نفس الطبقة التي تمثل أغلبية هذا الشعب، وتمثل حاجات ومصالح وأهداف هذه الغالبية.. التي عاش بينها ومارس معها الكفاح اليومي، فشعر بمشاعرهم، وفهم أهدافهم، وآمن بها لأنها أهدافه هو، وتجرع كل حقيقة سيطرت على حياة هذه المجموعة.. لأنها هي نفسها حياته هو..!

فإذا أراد تحقيق هذه الحاجات، وسعى إلى تلك الأهداف ومضى حتى النهاية في هذه الطريق فهنا.. وهنا فقط يقال أن فلاناً هذا.. سياسي..!

أي أنه يعمل من أجل الشعب..

السياسة هي الشعور بالحاجة:

السياسة – إذن – هي الشعور بالحاجة، وممارستها لا تكون بتلقي العلوم عنها في المعاهد والجامعات، بل تكون بالرغبة والإصرار والنضال من أجل تحقيق حاجات الناس.. أي الثورة..!

فقبل ٢٣ يوليو المشهور كان يوجد في مصر رجال قالوا عنهم أنهم زرق الأنياب، وساسة دهاة تلقوا علم السياسة في جامعات أوربا ومعاهد لندن.. وبالرغم من هذا لم يستطع هؤلاء إلا أن يصنعوا شيئاً واحداً.. هو العمل جنباً إلى جنب مع أعداء البلاد..!

فهم – إذن – كانوا خونة زرق الأنياب وليسوا سياسيين، هم لم يشعروا بحاجات الشعب، ولم يؤمنوا بالشعب..!

هل عرفت ما هي السياسة..؟!

إنها الحاجة..

فإذا حاولت تحقيق حاجاتك ومضيت في هذه الطريق حتى النهاية فأنت سياسي.. ازرق الناب، ولا يشق لك غبار!

ما هي الديمقراطية؟!

ما هي الديمقراطية؟!

أغلق على نفسك الباب، وانفرد بنفسك دقائق قليلة، ثم وجه إليها هذا السؤال: ما هي الديمقراطية؟!

لكن قبل أن تفعل ذلك نود أن نعرف من أنت؟!

فربما كنت من تلك الفئة التي لا تعنيها الديمقراطية على الإطلاق، بل الذي يعنيها هو تغليب مصالحها على مصالح أغلبية الشعب..

بصراحة يجب أن لا تكون إقطاعيا، أو من حملة الرتب.. باشا مثلاً..

ويجب أن لا تكون من حكام أسرة محمد على.. والانجليز.

ويجب أن لا تكون من حاشية ذلك العهد وحوارييه..

يجب أن لا تكون منتميا إلى الفئة التي استفادت من وجود الاحتلال، ومن وجود الباشاوات، ومن وجود الرجعية.. أعنى أعداء التطور!

وأخيراً لكي تجيب على هذا السؤال إجابة صحيحة دون أن تخطئ أو تتجنى، عليك أن تكون أحد أفراد الشعب الذين قاسوا من العهد الماضي.. أي تمثل غالبية الشعب.

بعد ذلك حاول أن تجيب على السؤال.. **ما هي الديمقراطية؟!**

- الديمقراطية بالنسبة لك أيها المواطن الذي لا تجد عملاً..
- الديمقراطية بالنسبة لك أيها المواطن الذي لا تجد علاجاً..
- الديمقراطية بالنسبة لك أيها الفلاح المريض الكادح المعروق..
- الديمقراطية بالنسبة لك أيها العامل المتطلع إلى الضمانات والمكافأة المجزية..
- الديمقراطية بالنسبة لك أيها الموظف صاحب الأسرة، وصاحب الأمال العديدة في التعليم والصحة والأمن..

– الديمقراطية بالنسبة لكل الطبقات التي استغلت، لمصلحة أفراد قلائل، عاشوا فوق أرضنا خونة ومترفين وخاملين ومخادعين..!

أجل.. ما هي الديمقراطية بالنسبة لنا نحن الشعب؟

هل أجيب أنا على السؤال نيابة عنك يا صاحب الحاجة أيها العامل وأنت يا فلاح، ويا طالب الحق المسلوب؟!

– الديمقراطية بالنسبة لكم هي تحقيق مصالحكم، لا مصالح الأقلية..

– الديمقراطية هي انتزاع الحقوق المسلوبة، واسترداد الأرض من غاصبيها..!

– الديمقراطية هي التخلص من القيود، تلك التي كانت في رقابنا، وحول أذرعنا، وعقولنا أيضاً..!

– الديمقراطية هي استقلال الوطن، وسيادة الأمة، والمساواة والعدل، هي تقرير المصير..!

وفي اللحظة التي قامت فيها ثورة ٢٣ يوليو، كانت الديمقراطية هي الطريق، طريق هذه الثورة الذي اتجهت إليه بكل ما تملك من رجال وسلاح وإيمان..

لأنها لم تكن ثورة خاصة بفئة معينة، بل هي نفس الثورة المصرية التي قامت من قديم، وهدفها التخلص من أعداء الشعب، وإقرار الحق والعدل والمساواة، وسيادة الأمة.

نحو الديمقراطية:

من أجل هذا مضت الثورة المصرية بعد انتصارها في ٢٣ يوليو بخروج الجيش إلى المعركة.. جنباً إلى جنب مع الشعب.

أقول مضت نحو الديمقراطية دون تردد.

وكان عليها لكي تحق هذه الديمقراطية، ولكي تعلن الدستور المتضمن نصوصها وأسسها جميعاً، أن تتخلص أولاً من أعداء الديمقراطية أي أعداء الدستور، وهم أعداء الشعب..

وكان العدو الأول هو الملك.. بل هي الأسرة التي كانت تحكم..

وانتصرت الثورة على العدو الأول.. وبهذا أرست الثورة أولى قواعد الديمقراطية..

ثم كان جلاء القوات المحتلة عن بلادنا هو الانتصار الثاني للثورة.. بل للديمقراطية، أما الانتصار الثالث للديمقراطية فكان قانون الإصلاح الزراعي..

وبعد ذلك مضت الثورة ترسي قواعد النظام الديمقراطي الذي سيسود البلاد، بعد فترة الانتقال، وتعد له الضمانات التي تكفل قيامه وحمايته وازدهاره..

ولم يكن رفض الثورة الارتباط بحلف عسكري مع الدول الكبرى إلا إيمانا بالديمقراطية، والتصميم على قيامها في جمهورية مصر..

ذلك لأن الحلف العسكري كان سيجعل الشعب وأرض الشعب وموارد الشعب في خدمة مصالح تلك الدول الكبرى وتحقيق المنافع لها..!

وفي ظل الحلف العسكري المذكور كانت مصر ستصبح دولة تابعة، والديمقراطية من المحال إرساء قواعدها وتحقيق مضمونها، إلا في الدولة التي لا تخضع لسيطرة أجنبية، أو لتوجيه من خارج حدودها..!

إصرار الثورة إذن على موقفها من الحلف العسكري، كان الغرض منه حماية النظام الديمقراطي الذي ستحكم به مصر بعد فترة الانتقال، وبالتالي حماية مصالح الشعب..

ويوم أن أعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن صفقة الأسلحة المشهورة، لم يكن ذلك يعني أن جيش مصر قد زاد عتاده، أو أن جيش مصر قد أصبح أقوى الجيوش، بل كان معنى ذلك، أن جمال عبد الناصر يعد البلاد للحكم الديمقراطي، على أسس متينة قوية..

لقد واجهت الثورة مشكلة تسليح جيش الشعب بعزم مستمد من إرادة هذا الشعب ومن وحي أهدافه..

طلبت الثورة السلاح لجيشها من أمريكا ومن انجلترا ومن فرنسا ومن كل مكان، ورفضت أمريكا وساومت، وترددت انجلترا، ثم أعطت وعوداً لا حصر لها..

وفي نفس الوقت أعطوا إسرائيل ما تريده من سلاح..!

كان السلاح هو "الكرت" الأخير في يد الدول الكبرى، للضغط على مصر، ومحاولة السيطرة عليها، والتمكين لنفوذهم فيها..

ومعنى ذلك أن مصر كانت ستخضع للسيطرة الأجنبية، ثم التدخل والتوجيه من الخارج.. وبهذا يصبح من المحال أن تحقق الثورة المصرية هدفها.. وهو الديمقراطية الصحيحة..

ويوم قرر جمال عبد الناصر أن يحرق هذا "الكرت" الذي تدخره الدول الكبرى للضغط والسيطرة علينا.. ويوم أن قرر شراء السلاح بدون قيد ولا شرط، من الدول التي قبلت بيع كل ما نحتاجه من سلاح بلا قيد ولا شرط.. بلا بعثات عسكرية ووثيقة أمن متبادل، وخضوع لما تمليه مصالح الأجانب، في هذا اليوم سجل التاريخ لجمال عبد الناصر خطوة أخرى كبيرة في الطريق الذي يسلكه لإرساء قواعد الديمقراطية في بلاده..!

لقد كان معنى عدم تسليح الجيش، والوقوف إزاء مناورات الدول الكبرى موقفاً سلبياً، هو أن الثورة المصرية لن تجد السلاح الذي تحمي به أهدافها.. ثم حدودها التي تتاخم حدود أعداء، اعتدنا منهم الغدر والضعة والأطماع!

صفقة الأسلحة إذن، التي عقدتها مصر بلا قيد ولا شرط مع دول أخرى لم تناور ولم تحاور، حطمت بها الثورة التدخل الأجنبي، والسيطرة الأجنبية والمناورات كلها في وقت واحد وبضربة واحدة.. ومعنى ذلك هو أن مصر تمضي في طريق الديمقراطية.. وإلا فكيف كانت الديمقراطية ستجد أرضا تثبت فيها وتزدهر، وهذه الأرض لا تحميها قوة تفوق قوة الأعداء المتربصين بهذه الأرض.. والطامعين في السيطرة عليها..!

وبعد هذا.. بعد القضاء على أسرة محمد علي، وبعد جلاء القوات المحتلة، وبعد القضاء على الإقطاع، وبعد إبعاد السيطرة الأجنبية برفض الحلف العسكري، وبعد حرق الكرت الأخير في أيدي الدول الكبرى للضغط علينا، بعد صفقة الأسلحة، وبعد أن أصبح لمصر جيشها الوطني القوي الذي سيحمي الحدود والأهداف.. وثورة الشعب، أعلن جمال عبد الناصر الدستور الجديد للجمهورية المصرية..

لا ديكتاتورية:

لا ديكتاتورية إذن ولا حكم فرد، ولا سيطرة لطبقة على طبقات، ولا مصلحة إلا مصلحة الشعب..!

إن الخطوات التي تمت خلال أعوام الانتقال، لم تكن لتمهد على الإطلاق إلا لشيء واحد.. هو الدستور الذي يجعل الديمقراطية السليمة مصونة من كل سوء! وإلا فما معنى أن تتم كل هذه الخطوات الجبارة نحو التقدم والتحرر؟!

هل تمت لكي يتمكن الباشاوات والأجانب والخونة وعملاء الاستعمار والانتهازيون من حكم الشعب؟!

أم هل تمت لكي يسود الظلم والاستغلال والبطش بالحقوق؟!

أم لكي تفسح الطريق للسيطرة الأجنبية والتدخل في شئون الشعب؟!

إنها خطوات تمت للتخلص من كل هذا، وللقضاء على كل هذا..

لأن الديمقراطية هي حماية مصالح الشعب..

هل عرفت إذن ما هي الديمقراطية؟!

أنت أيها العامل ويا فلاح، ويا صاحب الحاجة، ويا طالب الرزق والعلم والصحة والأمن..

افتح إذن الباب واخرج إلى الطريق، فلن يقطع عليك الطريق عدو من هؤلاء الذين بطشوا بك في الماضي..

لا سبيل أمام الأعداء للبطش بك أو بحقوقك في كنف النظام الجمهوري.. الديمقراطي!

الثورة والديمقراطية

الديمقراطية المظلومة

عاصرت كما عاصر أبناء هذا الشعب تفسيرات مختلفة متباينة لكلمة الديمقراطية طوال ربع قرن مضى، بل حتى اليوم..

ففي الماضي كان فاروق يطلق على نفسه الحاكم الديمقراطي..

ورأينا كيف كان تفسيره لهذه الكلمة حين اتضحت الحقائق المخزية في محاكمات محكمة الثورة. وكيف أن الملايين من أبناء هذا الشعب كانوا لا يجدون القوت الضروري في الوقت الذي توافق فيه الحكومات المتتالية – من جميع الأحزاب والرجالات والزعماء – على إنفاق مليون ونصف مليون من الجنيهات على إصلاح وتزويق مركب يسعد فيه فاروق بالسفر والرحلات.. لقد اعتمد هذا المبلغ بوساطة برلمانات الشعب التي كانت تمثل الأغلبية حيناً والأقلية حيناً آخر..

وبعد أيها القارئ.. أليست هذه البرلمانات وذلك اللون من الحكم هو الديمقراطية..؟

***

وكان فاروق الحاكم الديمقراطي يحكم هذه البلاد من أقصاها إلى أقصاها بوساطة خادمه الأمين.. ولذلك رأينا حكامنا الأفاضل يحنون الجباه لهذا الخادم، بل أن واحداً من أولئك الرجال – وهو مصطفي النحاس، الذي كانت البلاد تأمل أن يكون على يديه الخلاص في يوم من الأيام – لم يتورع عن أن يؤكد ولاءه لفاروق الحاكم الديمقراطي – في نظره – بطريقة فذة في ذاتها حين طلب أن يُقبل يده وهو زعيم الأغلبية في ذلك الوقت، والذي أسفرت الانتخابات عن فوزه على خصومه فوزاً ساحقاً.. ثم اتبعها بما لا يخرج عن الكفر حين توجه ببصره وقلبه في رمضان إلى كابري، حيث يلهو فاروق، وطلب من المصريين أن يتوجهوا إلى هذه القُبلة الماجنة في خشوع وولاء..

أليست هذه تفسيرات للديمقراطية.. عاصرناها جميعاً وانتهت بهذه البلاد إلى الدرك الذي كاد يودي بكل شيء في هذه البلاد لولا قيام هذه الثورة..؟

وفي الماضي القريب، بل القريب جداً، سمعت وسمع معي الشعب بأكمله وسمعت شعوب كثيرة، أقول سمعنا تفسيراً جديداً لهذه الكلمة المظلومة في محاكمات محكمة الشعب على لسان أقطاب جماعة الإخوان المنحلة..

***

فقد قاموا يدبرون انقلاباً دامياً مسلحاً بالقتل والنسف والخطف، وحين أراد أحدهم أن يبرر هذا العمل قال أنه في سبيل إقامة الديمقراطية!.. ديمقراطية من نوع جديد يسيطر فيها جهاز سري على رقاب العباد من أبناء البلاد – تماماً كما يسيطر على أفراد الحزب لصالح رجل واحد – هو المرشد العام المقدس..

وكان أبرع تفسير لهذه الكلمة هو ما لجأ إليه محمد نجيب حين أراد أن يبرر سبب قبول مجلس الثورة لاستقالته في فبراير ١٩٥٤، فراح يؤكد أنه كان ينادي بالديمقراطية ومجلس الثورة بأكمله لا يريد الديمقراطية!!

والعجيب أن هذا التفسير انطلى على كثيرين وأصبح نجيب في نظرهم بطل الديمقراطية العظيم..

وإني لأذكر جيداً كيف أنه بعد أن عاد نجيب في فبراير ١٩٥٤، وكنا قد بلونا طريقته في أن يجلس بيننا في مجلس الثورة فيقر ما نقر ثم يخرج فيشيع في كل مكان أنه لم يوافق على كذا وعارض في كيت، بحيث أخرج الإخوان وقتها أسطورة الأب الشفوق الرحيم. وأظن قرائي يذكرون مقالتي التي نشرتها في حينها وتحدثت فيها عن نجيب يوم أن صدر قرار محكمة الثورة بسجن فؤاد سراج الدين، فذهب إليه إخوته قبل التصديق على هذا الحكم بوساطة مجلس الثورة فما كان منه إلا أن بكى معهم وقال: "إن قرار المحكمة ظالم وإن سراج الدين بطل من أبطال الوطنية". ثم جاء إلى مجلس الثورة وكانت إمضاؤه على التصديق أول إمضاء تجدونه محفوظاً لدى المحكمة إلى يومنا هذا..

***

أقول كنا قد بلونا طريقة نجيب هذه فلم نعقد اجتماعات مجلس الثورة بعد عودته، كما كنا نعقدها في الماضي وحدنا، وإنما جعلناها اجتماعات للمؤتمر المشترك لكي يجلس معنا الوزراء جميعاً. فقد كانت الأحداث في ذلك الوقت تمس السياسة العامة التي هي من اختصاص المؤتمر المشترك.

واذكر جيداً تلك الجلسات المتتابعة التي عقدناها في دار البرلمان ومعنا جميع الوزراء وكانت أولاها يوم أن جاء سليمان حافظ إلى جمال عبد الناصر بما سماه طلبات محمد نجيب. وقد كانت تتلخص فيما يأتي:

١- حق الفيتو على قرارات مجلس الثورة مع إعطائه الحق في حضور جلساته.

٢- حق الفيتو على قرارات مجلس الوزراء مع إعطائه الحق في حضور جلساته.

٣- حق تعيين قواد الوحدات في الجيش ابتداء من قائد كتيبة وما يماثلها من باقي الوحدات.

٤- جميع تنقلات الضباط وانتداباتهم تكون بواسطته.

٥- على الجيش أن يحلف يمين الولاء لشخصه وأن يوقع الضباط ومجلس الثورة على وثيقة بهذا القسم.

٦- أن لا يرشح مجلس الثورة عند عودة الحياة البرلمانية للبلاد أحداً لرئاسة الجمهورية غيره، وأن يضمن له كرسي رئيس الجمهورية.

وجلسنا في دار البرلمان على هيئة مؤتمر مشترك ولم يحضر محمد نجيب وعرض سليمان حافظ هذه الطلبات على المجتمعين، وتكلمنا أمام الوزراء في أن هذه الطلبات تعني فرض ديكتاتورية تهون أمامها ديكتاتورية فاروق الحاكم الديمقراطي، وإننا لم نقم بهذه الثورة لكي ينتهي الأمر بالبلاد إلى ديكتاتورية محمد نجيب أو أي شخص خلاف محمد نجيب.

وتكلم الوزراء مستنكرين هذا الوضع وطلبوا أن يحضر محمد نجيب لكي نناقش هذه الأمور معه. فقام سليمان حافظ إلى التليفون واتصل بمحمد نجيب وأبلغه رغبة المجلس في أن يحضر وفعلاً حضر.

وبدأت المناقشة من جديد بحضور محمد نجيب.

وتكلم جمال عبد الناصر وأبدى وجهة النظر هذه فيما يختص بالديكتاتورية التي يريد نجيب فرضها واستحالة الموافقة عليها. وأنهى كلامه بأن هناك أحد حلين لا ثالث لهما:

الأول: أن يعود محمد نجيب إلى رئاسة مجلس الثورة وتسير الأمور كما كانت على شرط أن تنتفي الأسباب التي من أجلها قبل المجلس استقالة محمد نجيب في فبراير والتي تتلخص في طلباته التي حملها لسليمان حافظ.

الثاني: إذا لم يقبل ذلك محمد نجيب فالمجلس لا يقبل بتاتاً هـذه الديكتاتوريـة ويكون الاصوب بدلاً من أن نختلف أن تجرى انتخابات فوراً وأن تسلم البلاد إلـى الحزب الذي يفوز في الانتخابات بصرف النظر عن ما هية ذلك الحزب. ولكننا لن نقيم بأيدينا ديكتاتورية بعد أن حطمناها.

وهنا يجب أن أقف قليلاً..

فقد رفض محمد نجيب أن يعود أول الأمر إلى رئاسة مجلس قيادة الثـورة بحجة أن هذا المجلس مكروه. ورفض أيضاً أن يتنازل عن طلباته التي أرسلها مع رسوله سليمان حافظ..

***

أما فيما يختص بالحل الثاني، فقد طلب أن يناقشه قبل أن يبدي رأيه فيه.

ولما طلب تفصيلات عن هذا الحل قال جمال عبد الناصر: إن هذا الحل يعني أننا يجب أن نعلن اليوم إنهاء الأحكام العرفية وإباحة تشكيل الأحزاب وترك كل شيء كمـا كان قبل الثورة لكي تجري الانتخابات ويتسلم الحزب الذي يفوز زمام الحكم.

وهنا استفسر نجيب عن وضعه في هذا الحل فقال لـه جمـال: سـيكون كوضعنا تماماً، فسوف نعتزل الحكم، ومن يريد أن يدخل الحياة السياسية فـي البلاد فليدخل وكل واحد حر..

وهنا ظهرت براعة نجيب كبطل من أبطال الديمقراطية.

فقد رفض أن يوافق على هذا الحل.. وطلب مناقشة حل فرعي آخر هـو أن يحتفظ برئاسة الجمهورية وأن يشكل وزارة مدنية برئاسته أيضاً إلى جانب رئاسـة الجمهورية ويبقى مجلس الثورة ولكن بشروطه التي طلبها وهو أن يكون له حـق الفيتو على قراراته.

كان نجيب يطلب هذا في نفس الوقت الذي كان يشيع في كـل مكـان داخـل القطر وخارجه أن موضوع الخلاف بينه وبين مجلس الثورة هـو الديمقراطيـة.. وملأت تصريحاته في هذا الشأن الصحافة في كل مكان.

وهذا تفسير جديد للديمقراطية..

فكل ما كان يعني نجيب هو أن يحتفظ برئاسة الجمهورية ورئاسة الوزارة معاً إلى يوم القيامة حتى ولو كلفه هذا أن ينادي أمام الشعب بالديمقراطية والجمعية الاستشارية لكي يصبح في نظرهم بطلاً من أبطال الديمقراطية في سبيل الوصول إلى أغراضه..

***

هذه ألوان من التفسيرات لكلمة الديمقراطية المظلومة في بلدنا الطيب..

تُرى ما هو التفسير الذي تريده الثورة لهذه الكلمة؟..

وهل هذه الثورة تريد الديمقراطية أم تريد الديكتاتورية؟

وهل حكومة الثورة في يومنا هذا حكومة ديمقراطية أم هي حكومة ديكتاتورية أم هي نوع من الحكم خلاف كل هذا؟..

الثورة ديمقراطية أم ديكتاتورية

حديث الديمقراطية طويل، وهو حديث الناس جميعاً اليوم بلا جدال. ولكن كانت هناك إشاعات تستهدف إثبات أمر معين، وهو أن الديمقراطية لها أعداء في مصر، وأن مجلس قيادة الثورة هو عدوها الأوحد..!

الناس جميعاً يطلبون الحرية، ونحن فقط الذين ننفر منها ونبغضها ولا نؤمن بها!

جمال عبد الناصر وكل واحد من أعضاء المجلس ليس إلا ديكتاتوراً تتلمذ على الفاشيين ويريد أن يحكم بالكلمة المجردة!

أليس هذا هو ما يريده تجار الإشاعات؟

ويا له من موقف تاريخي عجيب!

إن الحريات وكل مقومات الديمقراطية قد ضاعت من شعب مصر.. اغتصبها منه جمال عبد الناصر ورفاق جمال عبد الناصر!

كان الشعب حراً فاستعبد..

كان الشعب في مصر يستمتع بكل حقوق البشر منذ آلاف السنين وجاء جمال عبد الناصر ورفاقه يوم ٢٣ يوليو المشهود من عام ١٩٥٢، وفي ذلك اليوم من العام المذكور تم تجريد الشعب المصري من حقوقه كلها التي كان يستمتع بها فسلب منه رغد العيش واستقرار الحال!

كانت في مصر قبل ٢٣ يوليو ديمقراطية يعيش الشعب في كنفها سعيداً حراً، ويباشر في ظلها سلطاتها المقدسة، ويجد الملايين من أبنائه فرصاً متساوية، وكانوا جميعاً ينعمون في ديارهم بتلك الديمقراطية ثم جاء ٢٣ يوليو فكان مشئوما. فقد فيه الشعب كل شيء!

جاع وتعرى واضطهد وعذب ولم تعد له حقوق.. لأن الديمقراطية ذهبت، وجاءت الديكتاتورية.. جاء الطغيان والاستبداد.. والحكم المطلق!

أليس هذا هو ما يريده تجار الإشاعات من تصوير للموقف؟

وهو موقف تاريخي عجيب كما قلت..

لكن لماذا نظلم التاريخ، والخصوم هم الذين يقولون هذا الكلام؟ وسوف يقولون أكثر منه طالما أن الذين يحكمون البلاد الآن لا يبيحون لهم ما كان يبيحه لهم النظام الذي سقط.

نحن إذن أعداء للديمقراطية، كما هو واضح من كلام هؤلاء، ومعنى هذا أن الشعب في مصر لن يحكم حكماً ديمقراطياً فإذا رفض فهو يناصب الديمقراطية العداء، ويريد أن يبطش بالشعب.

وجميل جداً أن يطالب أناس في بلد ما حكومة هذا البلد بالحريات والديمقراطية، فهي حقوق مشروعة، يكافح الإنسان من أجلها، ويبذل دمه في سبيل الحصول عليها.

لكن ما رأيكم يا طلاب الديمقراطية في مصر.. ويا أبطال الكفاح الشعبي ويا من تلطمون خدودكم حسرة على الشعب المصري الذي جرده جمال عبد الناصر ورفاقه من كل الحقوق يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢، أقول ما رأيكم دام فضلكم في أن الحكومة القائمة الآن في البلاد ليست حكومة بالمعنى المتعارف عليه.. بل هي ثورة!

ومطالبة هذه الحكومة بالحريات والانتخابات والدستور وكل الحقوق معناه أن قيادة الثورة ليس لها وجود لأنها – أي القيادة – من المحتم عليها أن تحقق – هي – للشعب ما يطلبه بأسلوبها الذي بدأت به عملها التاريخي.. لأنها ثورة كما قلت وليست حكومة!

ثورة لأنها لم تستدع ليتولى قادتها الحكم بناء على أمر من "ولي الأمر" كما كان يقضي نظام الحكم الذي كان قائما!

بل تولت – هي – الحكم لتقلب ذلك النظام وتغيره.. وقد فعلت!

ليس جمال عبد الناصر ورفاقه أعضاء حزب من الأحزاب يحكمون مصر فيطالبهم البعض بكذا وكذا... لا ..

إن جمال عبد الناصر ورفاقه ليسوا حكاماً.. بل قادة لثورة.. والفرق كبير بين الثوار والحكام!

والثورة لها أهداف حققت بعضها.. وباقي الأهداف سيتحقق قطعاً على مر الأيام.. طالما أن الثوار يتولون زمام الأمور، ولا أقول الحكم.. بل إني أعلنها أكثر صراحة أن جمال عبد الناصر ورفاقه يمكن أن يقبلوا أي شيء ما عدا شيئاً واحداً.. وذلك الشيء هو إنهاء الثورة.. قبل أن تتحقق كل أهدافها!

ولا أريد أن أكرر وأعيد فأتحدث عن أهداف الثورة.. فقد تحدثنا عنها كثيراً جداً.. فلم تعد خافية على أحد!

ومن بين تلك الأهداف.. بل هدف الثورة الأخير وأملها الضخم هو إرساء أسس النظام الديمقراطي الذي يجعل الشعب يحكم نفسه بنفسه.

وإذن ما هو التفسير الذي تريده الثورة لكلمة الديمقراطية؟

وأقول: إن الثورة تفسر الديمقراطية بأعمالها وبخطواتها التي تتم في العلن.

الثورة تفسر الديمقراطية بالكفاح العملي من أجلها.

فهي عندما تقضي على النظام الملكي العفن، وترسي قواعد النظام الجمهوري فتلك خطوة نحو الديمقراطية كان الشعب حتماً سيخطوها لو لم تقم الثورة في ٢٣ يوليو.. وكان سيخوض معركة دموية حتى يتهاوى ذلك النظام العفن، ولكن جمال عبد الناصر ورفاقه حقنوا تلك الدماء.. باعتمادهم على الجيش في هدم ذلك النظام.. سلمياً.. أو بالقوة إن كان الأمر استدعى قوة!

والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على الاستعمار... ففي تحطيمه خطوة كبرى نحو الديمقراطية يخطوها الشعب وقد كان الشعب سيخطوها حتماً ذات يوم.. وكان سيضحي بالآلاف من أبنائه في ساحة المعركة المجيدة لو كانت قد نشبت.. لكن جمال عبد الناصر ورفاقه وفروا على الشعب أرواح شبابه وأطفاله ونسائه وشيوخه.. وتم جلاء القوات المحتلة – سلمياً – تماماً مثلما تم جلاء فاروق بنفس الطريقة.

بنفس الأسلوب الجديد الذي لم يسبق لثورة ما في أي مكان من العالم أن اتبعته في نضالها.. إذا أن ثورة مصر ظهرت قيادتها بين صفوف القوات المسلحة.. وضمنت وقوف تلك القوات وراءها.. والشعب أيضاً وقف معها!

والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على الاستغلال والظلم الاجتماعي.

والإقطاع كان يمثل في مصر هذا الاستغلال والظلم... وقضت عليه – سلمياً – بلا دم، كان سيسيل في القرى إذا كان الشعب قد خاض معركة مباشرة ضد الإقطاع في عقر داره!

والثورة تفسر الديمقراطية بالوقوف في وجه الارستقراطية المصرية التي كانت تحكم بأبنائها من الباشاوات والبكوات والأساتذة السماسرة.. وحالت الثورة – نهائياً – بين هؤلاء وبين الشعب! والثورة تفسر الديمقراطية بالقضاء على التعصب وحكم السمع والطاعة.. أي على الجماعات التي تريد أن تحكم باسم الدين.. لا باسم أي شيء آخر.

وقد حدث.. وتمت الخطوة الكبرى في سبيل الديمقراطية.

تلك خطوات الثورة التي فسرت بها الديمقراطية..

فما هو تفسير خصوم هذا النظام للديمقراطية؟!

لسنا شيوعيين

تحدثت عن تفسير "الثورة" للديمقراطية، وأوضحت مدى فهم مجلس قيادة الثورة لمسألة حكم الشعب.

وقلت أن جمال عبد الناصر ورفاقه ليسوا حزباً من الأحزاب التي تولت – أخيراً – الحكم، ثم أصبح لزاما عليهم أن يخضعوا لنفس المؤثرات والعوامل والقيم التي كانت تسيطر على حكومات ما قبل ٢٣ يوليو.

قلت أن جمال عبد الناصر ورفاقه ثوار وليسوا حكاما.

أي أن جمال عبد الناصر ورفاقه – ما دام هذا وضعهم – يصبح من المحال مطالبتهم بشيء معين له علاقة بالأوضاع التي يجب أن تسود البلاد.

ولا أعني أنه ليس من حق أحد أن يطالبهم بشيء معين – لا – بل أعني أن مجلس قيادة الثورة الذي تولي حكم البلاد بعد أن قام بقلب نظام الحكم يجد نفسه أمام أمر واقع لا مفر منه، وهو الاستمرار في قيادة "الثورة" التي قامت في هذه البقعة من العالم يوم أن سقط النظام الملكي والمضي حتى النهاية في عملية "قلب نظام الحكم القديم" واقتلاع جذوره من أرض البلاد، مسألة أصبحت ضرورة تاريخية لا يمكن الخلاص منها.. لا بمنشور يحوي سباباً في الثورة، ولا بجهاز سري يضم مجموعة من المشعوذين.

وسأناقش هنا بهدوء تام، وبصراحة تامة أيضاً مسألة عودة الحياة النيابية والدستور والحريات.. الخ.

سأناقش موضوع الديمقراطية التي يزعم أبناء العهد الماضي وخدامه أن جمال عبد الناصر ورفاقه اغتصبوها من الشعب المصري يوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢..

ولعل هذا التعريف يعجب بعض الناس الذين يتهموننا بالفاشية..

وأعود من حيث بدأت، فأقول أننا لسنا شيوعيين، بل لم نعرف ما هي معتقدات أتباع ماركس ولينين وستالين بالتحديد.. وبالرغم من هذا فأني انقل هنا كلاماً قاله

أحد القادة الشيوعيين، وذلك القائد يتزعم بلاداً تزيد مساحتها على مساحة أوربا مجتمعة.. أعني الصين عملاق آسيا الجبار..

وفي الصين قامت ثورة.. فكيف نجحت؟!

هل لأن الذين قادوها من أتباع ماركس ولينين وستالين؟ أم لأنهم كانوا صينيين أولاً وأخرا؟

الرأي الأخير هو الصحيح.. بدليل أن ماوتسي تونج نفسه عندما أراد أن ينادي بمبادئ معينة لم يجد سوى مبادئ الزعيم الوطني الصيني الكبير صن يات صن.. ولم يحدث أبداً في الصين خلال قيام الثورة أن وقف فرد أو جماعة في وجه قادة الثورة هناك، وطالبوهم ببرلمان أو بدستور أو بحريات.

كانت كل الجماهير تتجه أولاً وأخرا إلى اقتلاع جذور النظام القديم الذي حكمت به الصين آلاف السنين، ثم بعد ذلك يمكن أن يقام النظام الذي يتفق ومصالح الجماهير الشعبية.

قال ماوتسي تونج، وهو يوضح موقفه أمام الشعب الصيني:

"إن المجتمع الصيني الحالي مازال مستعمراً وشبه مستعمر وشبه إقطاعي، وإن الأعداء الأساسيين للثورة الصينية هم القوى الاستعمارية وشبه الإقطاعية.. وبما أن واجبات الثورة الصينية هي أن تحقق الثورة الوطنية والثورة الديمقراطية للقضاء على هذين العدوين، وبما أن القوى اللازمة لهذا العمل تلقى أحياناً مساعدة البورجوازية الوطنية وجزء من البورجوازية الكبيرة.. ومع أن البورجوازية الكبيرة قد خانت الثورة وأصبحت عدوتها، إلا أن الثورة يجب ألا توجه ضد الرأسمالية على العموم أو ضد الملكية الرأسمالية، وإنما ضد الاستعمار والاحتكار الإقطاعي، ونتيجة لهذا نجد أن طبيعة الثورة الصينية في الوقت الحالي ليست الاشتراكية البروليتارية، وإنما الديمقراطية البورجوازية.. وهذا الطراز الجديد من الثورة يتحقق في الصين، وفي جميع البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة، ويجب على الصين أولاً أن تحقق هذه الثورة وليس غيرها، وإذا لم نصل إلى تحطيم الأفكار الرجعية فلا يوجد أمل في الانتصار.. وإذا وضعنا في اعتبارنا الموقف الوطني والدولي، ومهما كانت الصعوبات التي نقابلها في طريق المقاومة، فإن الشعب الصيني سيصل نهائياً إلى النصر..

إن وحشية القوى المظلمة في الداخل والخارج قد سببت بؤس الشعب الصيني لكن ذلك البؤس إذا كان يمثل القوة الباقية للظالمين فهو يمثل أيضا أجرامهم الأخير، ففي نفس الوقت يقترب انتصار الجماهير شيئاً فشيئاً، تلك هي الحالة في الشرق.. تلك هي الحالة في العالم".

انتهى كلام ماوتسي تونج..

وأود أن يقرأ الشيوعيون في مصر هذا الكلام، فهم من بين الذين يتهموننا بالفاشية..

وثورة الصين قامت بالدم.. خاض الشعب الصيني معارك هائلة طاحنة رهيبة ومات مئات الألوف من شبابه وشيوخه ونسائه وأطفاله..

كانت الدماء في الصين تجري كالأنهار في السهول وفي القرى وحول المدن..

وكان لابد أن يحدث هذا لكي تمضي الثورة الصينية في طريقها المعلوم.. لأن القوات المسلحة في الصين لم تقم بالثورة .. فقيادة الثورة كانت خارج صفوف تلك القوات..

أما في مصر فقد حدثت الثورة بأسلوب جديد.. وتولت قيادتها مجموعة من ضباط الجيش.. فحقنت الدماء.. ولم تتعرض مصر للخراب والنسف والموت.

***

ومضت الثورة في طريقها المعلوم بلا دم.. وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الحكومة لا باعتباره رئيساً لحزب مصري معين أو باعتباره رجلاً من رجالات السياسة.. بل باعتباره قائداً للثورة المصرية التي قامت فعلاً في البلاد.. وبدأت تعمل في العلن لا في السر كما حدث في الصين.. ومن أجل هذا يخطئ الذين يطالبون جمال عبد الناصر ورفاقه بانتخابات أو بأي شيء.. فجمال ورفاقه يمثلون الثورة المصرية وليس الحكومة المصرية.. والوضع مختلف بين الثورة المصرية والثورة الصينية..

ولكن الخلاف هنا في أسلوب الثورة.. وفي قيادتها.. ففي الصين كانت الثورة دموية مسلحة ضد جميع القوى الاستعمارية والإقطاعية والرجعية، وفي مصر كانت الثورة "سلمية" بيضاء.. لأنها كانت مؤيدة بوقوف القوات المصرية المسلحة معها.. فإذا قررت الثورة المصرية تحقيق هدف من أهدافها حددته في الحال،

وعملت من أجله.. فإذا لم يتحقق الهدف سلمياً، كانت القوات المسلحة في حل من استعمال القوة بتأييد من الشعب!

وهكذا مضت الثورة المصرية في طريقها المحتوم.. فإذا وقف في طريقها فرد أو جماعة وطالبوها – باعتبارها حكومة – بشيء ما.. كان الوضع غريباً وشاذاً ويستحيل قبوله أو التسليم به.. لأن قيادة الثورة هي التي تحدد ما تراه متفقاً مع مصالح الشعب لا مصالح أعدائه!

ولنتصور – مثلاً – تشانج كاي شيك يقف أثناء قيام الثورة الصينية ويطالب ماوتسي تونج بانتخابات وببرلمان وبحريات.. الخ..

فبماذا كان سيُفسر طلبه؟!

هل يُفسر بأنه موقف وطني من تشانج كان شيك ضد قوى الفاشية والديكتاتورية.. أم يُفسر بأنه محاولة من تشانج كاي شيك لتعطيل الثورة الصينية ثم القضاء عليها بعد ذلك؟!

وبالرغم من أننا لسنا شيوعيين، فالموقف واحد في الحالتين، موقف مجلس قيادة الثورة من رجال السياسة والسماسرة والرجعيين في البلاد، الذين يريدون تصفية الثورة المصرية بإجراء انتخابات في الحال، وبدستور في الحال، وبحريات في الحال.. لكي يعودوا إلى أماكنهم.

وتلك الأماكن أبعدتهم "الثورة" عنها.. فكيف إذن تعيدهم مرة ثانية؟!

كيف تعيد الثورة الأوضاع القديمة، والثورة لم تقم ولم يتعرض رجالها للموت إلا من أجل القضاء على تلك الأوضاع؟!

وقد أوضحت في الفصل السابق موقف الثورة من الديمقراطية، فقلت أن الثورة تفسر الديمقراطية بأعمالها.. تفسرها بالقضاء على الحكام الأغراب عن هذا الشعب والارستقراطية المصرية الممثلة في الباشاوات والبكوات والأساتذة السماسرة وتفسرها بإقامة أسس صحيحة لنظام جمهوري سليم، وتفسرها بالقضاء على العصابات الفاشية مثل جماعة الإخوان المسلمين، وتفسرها برفع مستوى الفلاحين المصريين وهم الذين قامت الثورة من أجلهم بالتحديد.. لأنهم أغلبية الشعب!

ثم أخيراً تفسرها بإعداد العدة لتصنيع البلاد وهي بلاد زراعية..

وحتى تنتهي الثورة من تفسيراتها "العملية" للديمقراطية ستقرر في الحال أن يحكم الشعب نفسه بنفسه.. لا بالهضيبي ولا بالبدراوي ولا بالنحاس ولا بسراج الدين.. ولا بأي فرد أو جماعة من تراث الماضي.. تراث ما قبل ٢٣ يوليو!

هذا هو تفسير الثورة للديمقراطية..

أما ما هو تفسير الذين يتهموننا بالفاشية للديمقراطية فهو في جملة واحدة: العودة إلى الحكم!

تلك هي الديمقراطية في رأيهم.. العودة إلى الحكم أو يظل جمال عبد الناصر ورفاقه تلامذة للفاشيين!

فكيف إذن يظهر جمال عبد الناصر ورفاقه أمام الشعب والعالم بمظهر الفاشيين، وفي نفس الوقت يعمل جمال ورفاقه على تحطيم أسس الحكم المطلق؟!

حكم القصر والبدراوي وسراج الدين والمشعوذين حفظة سورة آل عمران؟!

كيف أصبح الثوار طغاة.. والطغاة أبطالاً للحرية والديمقراطية؟!

كيف أصبح مجلس قيادة الثورة الذي عصف بالظالمين فاشياً يستمد أفكاره من هتلر وموسوليني وكل الطغاة وأصبح محمود أبو الفتح تاجر الرأي والسيارات بطلاً شعبياً تماماً مثلما أصبح حسني الهضيبي؟!

هذا هو موضوع الفصل التالي.

الثورة والرجعية

كيف أصبح الثوار أعداء الظلم والاستبداد ديكتاتوريين طغاة وأصبح تجار الرأي والدين والوطنية أبطالاً للديمقراطية؟!

كيف حدث هذا؟!

كيف تقلب الأوضاع هكذا؟!

وأين كان هؤلاء الأبطال قبل ٢٣ يوليو؟!

لماذا لم يقودوا الجماهير في ثورة تهدم صرح الظلم والطغيان؟!

أين كان محمود أبو الفتح وحسن الهضيبي وسراج الدين والنحاس وكل القطيع السياسي الذي أصبح بعد ٢٣ يوليو رمزاً للديمقراطية والحرية والوطنية والعدالة الاجتماعية؟

أين كان الذين ينادون اليوم بالديمقراطية والحرية يوم كان يحكم البلاد ديكتاتور اسمه فاروق؟!

لماذا لم يفعل محمود أبو الفتح مثلما يفعل الآن في ربوع أوربا.. لماذا لم يقم الدنيا ويقعدها وينادي بتخليص البلاد من قبضة الحكام الطغاة والإقطاع والباشاوات والسماسرة؟!

ولماذا لم يعدّ حسن الهضيبي جهازاً سرياً مسلحاً ينسف به قصر عابدين ورياسة مجلس الوزراء حيث كان يربض أعداء الشعب الحقيقيون وجلادوه؟!

لماذا لم يترك سراج الدين سيجاره الضخم لحظة، ليصرخ في الناس "أن قوموا لتحرروا مصر من هذا الإخطبوط الرهيب الذي يبطش بمصائركم"؟!

ولماذا.. ولماذا؟!

لا توجد إلا إجابة واحدة على كل هذه الأسئلة.. وهي أن حكم أسرة محمد على والباشاوات والسماسرة كان هو الحكم الديمقراطي الدستوري المجيد الذي يرضى عنه كل هؤلاء الساسة وأذنابهم وأعوانهم وخدامهم..

أما اليوم فهم في محنة.. ويريدون أن يشترك الشعب معهم في تقويض صرح الثورة التي قلبت نظام حكمهم، وبطشت بمستقبلهم، وأبعدت قبضتهم الدنسة عن رقاب ذلك الشعب!

واليوم هم أبطال الديمقراطية، ونحن أعداء لها!

فكيف حدث هذا؟!

مرة أخرى أقول أني سأناقش المسألة بهدوء تام وبصراحة تامة، وسأحاول ضبط أعصابي وأنا أسجل الحقائق.. وهي حقائق كان من المفروض أن يعرفها الشعب فلا يكون في حاجة إلى من يذكره بها.. لكن الظروف كانت تحتم علينا نحن الذين ظهرنا فجأة على المسرح السياسي بلا مقدمات، أقول حتمت علينا الظروف أن نسكت ونترك أبناء العهد الماضي يسموننا حكومة العسكريين، لا حكومة الثورة، ونترك أذناب العهد الماضي يصفوننا بأننا حكام جدد.. ونحن أبعد ما نكون عن هذه الصفة، فليس الذي يغير نظام الحكم هم الساسة والحكام.. بل هو الشعب، ممثلاً في قيادته التي ظهرت في ٢٣ يوليو، وعزلت ملك البلاد، سيد كل أبطال الديمقراطية وولي نعمتهم، وصانع مجدهم!

سيد حسن الهضيبي الديمقراطي الحر، وسراج الدين الدستوري العريق، ومحمود أبو الفتح البطل الشعبي الباسل، وكل ربيب للقصر والحكم الذي سقط هو الآن رائد للحرية والديمقراطية وللدستور!!

أي لعنة يمكن أن تحل بمصر أكثر من هذه اللعنة.. وأي مصيبة كبرى يمكن أن تطبق على البلاد إذا ما سلمنا ببطولة ذلك القطيع السياسي الديمقراطي وأصغينا إلى هذيان أفراده!!

أقول: كيف حدث هذا؟.. كيف قُلبت الأوضاع ومُسخت الحقائق!!

إذن اسمعوا..

مرة أخرى أعود إلى الصين..

إلى حيث قامت ثورة وتغير نظام.. وأقيم حكم جديد..

وأحب أن أقول أنني اخترت الصين بالذات، لأن تلك البلاد عندما قامت ثورتها كانت مثل بلادنا.. مستعمرة فيها حكام خونة وإقطاع واحتكار.. وذل وحفاة وعراة وجياع..

وعلى الرغم من أن الذين قاموا بثورة الصين تختلف معتقداتهم عن معتقداتنا، إلا أنهم – أي ثوار الصين – لم يصنعوا أكثر مما صنعنا.. حتى الآن.. فزعيمهم يقول:

"إن الإصلاح الزراعي هو المحور الرئيسي للثورة الديمقراطية الجديدة للصين".

والإصلاح الزراعي في الصين قضى على الإقطاع ولم يفعل أكثر مما فعلناه نحن بذلك العدو حليف المستعمر..

وقد وجد ثوار الصين من يقول لهم أنتم طغاة.. أنتم تريدون ديكتاتورية!

كانت ثورة الصين تبطش بأعدائها دواماً.. وكانت تمضي في طريقها المليئ بالدم والبارود والدمار ولا أحد يستطيع أن يقف في طريقها.. فالشعب معها، والشعب شعر أنها قامت لتحرره لا لتجعله يؤمن بمعتقدات معينة!

ولو كان الشعب في مصر قد خاض مع الجيش معركة مسلحة ضد القصر والإقطاع وكل أعداء الشعب لعرف أهداف الثورة في الحال ولما وجد من يضلله أو يخدعه.. لكن الوضع في مصر بالنسبة لقيادة الثورة كان مخالفاً لوضع قيادة الثورة في الصين فكان علينا نحن أعضاء مجلس قيادة الثورة أن نتجاهل ما يقال عنا، وما يشيعه أعداء الشعب عن أهدافنا.. كنا نعتمد على الوقت.. فالأيام كفيلة بتوضيح أهدافنا وحقيقة ثورتنا.. لا المعارك.

***

وأعود إلى الصين فأقول أنه بالرغم من المعارك الدموية التي مرت بها الثورة في الصين إلا أن قادتها وجدوا من يقول عنهم أنهم طغاة ويريدون ديكتاتورية.. وقال ماوتسي تونج بالحرف الواحد لأعداء الثورة:

"يقال لنا: تقيمون ديكتاتورية.. نعم يا حضرات السادة. أنتم على حق فنحن بالفعل نقيم ديكتاتورية، إن الخبرة التي تكونت للشعب الصيني خلال عشرات السنين، تبين لنا ضرورة إقامة ديكتاتورية تُحرم على الرجعيين حق التعبير، عن آرائهم، فللشعب وحده حق التعبير، وحق التصويت، فمن هو هذا الشعب؟!

في المرحلة الحالية يتكون الشعب من الطبقة العاملة وطبقة الفلاحين، والبرجوازية الصغيرة، والبورجوازية الوطنية، وباتحاد هذه الطبقات تكونت حكومة لهم من أجل إقامة ديكتاتورية على خدام الاستعمار، ومن أجل سحق

الاستعمار وأعوانه والذين ارتبطوا بمصالحه، فلا يسمح لهم بالتصرف إلا في داخل حدود معينة، فإذا تجاوزوا تلك الحدود بالقول أو بالفعل فسيمنعون وسيعاقبون في الحال، فلابد من تأسيس النظام الديمقراطي بين الشعب، فيمنح حرية الكلام والاجتماع والتنظيم، ولا يعطي حق التصويت إلا للشعب دون الرجعيين.. فالديمقراطية للشعب. والديكتاتورية على الرجعيين. وإذا لم نفعل هذا تنهزم الثورة وتقع الكارثة على الشعب، وتفنى الدولة".

هذا ما حدث في الصين...

والذي حدث في مصر بعد ٢٣ يوليو هو أن مجلس قيادة الثورة كان حتماً عليه أن يحمي الثورة أو بمعنى أكثر وضوحاً يحمي الشعب من الرجعيين.. وكان أول إجراء قام به مجلس قيادة الثورة بعد ٢٣ يوليو هو عزل الحاكم فاروق.. فإذا كان طرد فاروق ديكتاتورية فليكن.. ونحن نفخر بها.

ثم كان أن قرر مجلس الثورة إسقاط النظام الملكي وإقامة النظام الجمهوري، فإذا كان ذلك ديكتاتورية فما أروع ذلك وما أعظمه وما أتعس الديمقراطية إذا لم تقف إلى جانب الذين اسقطوا ذلك النظام.

وإذا كان القضاء على الإقطاع ديكتاتورية فما هي الديمقراطية إذن؟ قولوا لنا يا فلاسفة هذا العصر ويا حكماء الزمان!

إن الثورة كان لابد أن تمضي في طريقها.. كان لابد أن تحقق للشعب حاجاته، لابد أن تقضي على الظلم الاجتماعي والاستغلال والرجعية، ويستحيل أن تحقق الثورة أهدافها – وهي بيضاء وليست دموية – إلا إذا أخلى الطريق أمامها من كل الأعداء..

فكيف يمكن إبعاد هؤلاء الأعداء من طريق الثورة؟!

هل ببرلمان سراج الدين أو بدستور أحزاب الإقطاع أم بحرية الصحافة.. صحافة "أبو الفتح" والأحرار الدستوريين وبقية الأذناب؟!

أم بمعركة دموية يباد فيها كل الأعداء.. كما حدث في الصين؟!

أعداء الثورة

تساءلت في الفصل السابق عن الطريقة التي كان يمكن بها إبعاد الأعداء عن طريق الثورة؟!

كيف كان يمكن للثورة أن تسقط النظام الملكي وتحدد وضع البدراوي بالنسبة للشعب، وكيف كان يمكنها أن تجنب البلاد خطر السادة الذين امتصوا دماء الملايين من المصريين؟!

فإذا وقفنا لحظة عند كل هذه الأسئلة عرفنا أن جمال عبد الناصر ورفاقه كان عليهم بعد طرد فاروق أن يبقوا على دستور عام ١٩٢٣، وهو دستور وضع على أساس النظام الملكي الإقطاعي.

ثم كان علينا أن نجعل البرلمان يجتمع بنوابه الذين يمثلون الارستقراطية المصرية ويعملون لحماية مصالحها.. وكان علينا أن نترك الأحزاب كلها بما فيها حزب عبد الهادي وحسن الهضيبي، وحزب البيوتات الذي يضم ذوي الأصل العريق جداً.. الأحرار الدستوريين..

وكان علينا أن نترك الصحافة تقول ما تشاء وتدعو إلى ما تشاء.. ثم ماذا بقي بعد ذلك؟!

بقي أن نعود إلى وحداتنا في الجيش ونترك البلاد لنفس الأشخاص الذين حكموها قبل ٢٣ يوليو.

أي أن ثورة الشعب المصري تسلم قيادتها هكذا ببساطة إلى النحاس وسراج الدين والهضيبي وإبراهيم عبد الهادي وكل أفاق دعي يريد أن يصبح زعيماً بخطبة أو بوعد معسول!

أي أن جمال عبد الناصر ورفاقه، وكل ضابط وكل جندي من الأحرار هؤلاء جميعاً ما قاموا بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلا من أجل النحاس والهضيبي وعبد الهادي وهيكل وباقي الساسة الذين حكموا البلاد فعلاً من قبل ولم يصنعوا ثورة، ولم يرفعوا عن الشعب ظلماً اجتماعياً ولم يملئوا معدة جائع ولم يمكنوا مريضاً من الشفاء؟!

أي منطق هذا؟

وفيم إذن كان كل هذا الجهد والعرق والتضحيات التي بذلها جمال عبد الناصر ورفاقه ومئات من الأحرار في الجيش طوال أعوام قاسية مليئة بالأحداث والمفاجآت؟.. هل كانوا يعدون كل هذه الأعمال التاريخية الثورية لكي يحكم النحاس وسراج الدين وهيكل وعبد الهادي.. وهم الحكام الذين كان فاروق يجلسهم على مقاعد الحكم؟!

هذا.. إذا كانت الديمقراطية تحتم أن يترك كل شيء كما هو بعد طرد فاروق..

يبقى البدراوي في درين يشرب دم الألوف من المواطنين.. ويبقى كل باشا في قصره يدوس بأقدامه على مستقبل الشعب..

ويبقى سراج الدين يدخن سيجاره وهو يحكم مع أنصاره.. ويبقى الأمراء والأميرات في مصايفهم وأوكارهم يستأنفون أكل لحم البشر، ويبقى ويبقى..

يبقى كل شيء ما عدا فاروق.. فهل هذه هي الديمقراطية؟

وهل هذا ما كان يريده الشعب؟

هل هذا ما كان يحقق العدالة الاجتماعية ورفع مستوى الطبقات، ويحقق الاستقلال والعزة والتخلص من القيود؟!

هل هذا ما كان يعجل بتصنيع البلاد، وإنفاق نقود الشعب في مشروعات للشعب لا في رحلات إلى أوربا، وفي إصلاح اليخوت والقصور وإعداد صنوف المتعة والرفاهية لعصابة من الأفاقين العاطلين؟!

ثم.. هل كان النحاس وسراج الدين وعبد الهادي وهيكل وباقي القطيع السياسي بدستوره وببرلمانه، والذي كنا سنتركه يحكم بعد طرد فاروق.. هل كان ذلك القطيع سيوافق على تحديد الملكية، وإعلان الجمهورية وإلغاء الألقاب، ورفع مستوى الفلاح والعامل، وإعداد العدة لكفاح الاستعمار، ثم عدم الدخول في أحلاف عسكرية؟

وهل كان ذلك القطيع يقبل أن يخاطب أفراده بلقب "سيد" لا "باشا" أو "بك" أو صاحب رفعة ودولة؟!

وهل كان محمد نجيب إذا فرضنا أنه سيكون معهم باعتباره ديمقراطياً.. أقول هل كان محمد نجيب قادراً على توجيه ذلك القطيع والسير معه في ركب التقدم والمدنية؟

وماذا أيضاً؟!

هل كان يمكن – لو فرضنا أننا استسلمنا لهذا القطيع ولآرائه وتوجيهاته بعد ٢٣ يوليو – أن تتم الانتخابات في البلاد وليس هناك سوى نفس النواب بدوائرهم التي تكاد تكون ملكاً لهم بأرضها، وبالناس الذين يعيشون فوق أرضها؟!

وأسئلة عديدة أخرى تتلاحق وراء بعضها أمامي وأنا أسطر هذا الكلام، ومطلوب من أدعياء الديمقراطية ولصوص الحريات أن يجيبوا عليها..

مطلوب منهم أن يقولوا لنا ما هي الديمقراطية في رأيهم، إذا لم تكن دوائر انتخابية مسجلة بأسمائهم؟!

ما هي الديمقراطية في رأيهم إذا لم تكن عيشاً رغداً وأشهراً ناعمة في أوربا وثياباً من باريس وقصراً في الخلاء.. وكلاباً تأكل أطيب أرزاق البشر؟!

ما هي الديمقراطية في رأيهم إذا لم تكن حق عضو البرلمان في أخذ رشوة علنية من كل طالب وظيفة، ومن كل تاجر يريد الخروج على القانون، ومن كل أرملة تريد عملاً لوحيدها، ومن العامل والفلاح.. وحتى من أبناء السبيل؟!

وما هي الديمقراطية في رأيهم إذا لم تكن تحكم العاطلين في العاملين، وسيطرة الأفاقين والمرتشين والخونة واللصوص والتجار والسماسرة على مصائر الملايين؟!

ثم ما هي حرية الصحافة في رأيهم إذا لم تكن التجارة في الورق والسيارات والتآمر مع المستعمر.. والتحدث باسم الإقطاع والمشعوذين؟!

أليست تلك هي ديمقراطيتهم التي يلطمون الخدود ويشقون الجيوب كمدا عليها؟!

وأعود إلى السؤال السابق، فأقول أنه كان لا يمكن للثورة المصرية أن تمضي في طريقها إذا اكتفت بخلع فاروق.. ثم تركت الأمور كما هي بعد ذلك..

لو كان قد حدث هذا، وترك جمال عبد الناصر ورفاقه الأمور بعد طرد فاروق كان حتماً أن تقوم ثورة أخرى لتحقيق العدالة الاجتماعية.. إلا إذا كان

أدعياء الديمقراطية يرون أن العدالة الاجتماعية يمكن أن تتحقق على أيدي الباشاوات والهضيبي وعبد العزيز البدراوي؟!

وفي هذه الحالة.. أكان من مصلحة الشعب أن يبقى جمال عبد الناصر ورفاقه في أماكنهم كمسئولين عن الثورة، ليحققوا أهداف الشعب في فترة انتقال حدودها من تلقاء أنفسهم.. أم كان من أصول الديمقراطية التخلي عن تلك الأهداف الشعبية لتتحقق أهداف سراج الدين والهضيبي وعبد الهادي وباقي القطيع؟!

وقد بقي جمال ورفاقه في أماكنهم.. واستمروا في عملية قلب نظام الحكم القديم شيئاً فشيئاً.. ومضوا يعملون أناء الليل وأطراف النهار.. في الصيف وفي الشتاء.. في البرد وفي القيظ.. ويواجهون الأحداث ويعدون المستقبل للشعب ولكي لا يعطلهم الأعداء وقطيع عهد أسرة محمد علي، اتخذوا موقفا حازما حيال كل نشاط يقوم به هؤلاء الساسة وأذنابهم.. وكان لابد من اتخاذ ذلك الموقف الحازم الصارم حتى لا تزحف الأفاعي مرة ثانية لتهدد حياة الشعب.. فأطلقوا علينا من أجل ذلك حكومة الضباط والعساكر، وعندهم حق، فنحن ضباط وعساكر فعلاً، لكن لسنا ساسة من نوعهم، ولسنا حكاماً ذوي كروش منتفخة بدم الشعب، ولسنا من جيل قديم تربى في أحضان الاستعمار وعاش في كنفه!

لسنا سوى ثوار يريدون تحطيم قيود هذا الشعب بلا دم، وبلا أشلاء تتناثر هنا وهناك، وبلا بارود ينسف المدن والقرى، وبلا مجازر في الشوارع والميادين!

وقد مضينا في الطريق، وذلك الطريق كان ولا يزال مليئاً بالأعداء.. وكل عدو منهم يريد أن يوقف زحف الثورة، يريد وقف تطور الشعب، يريد أن يبقى كعدو إلى الأبد.. يعيش هو ولتمت الألوف تحت أقدامه!

فهل الديمقراطية ترضى عن هذا؟!

هل إذا وقف أبو الفتح، ومصالحه مرتبطة بمصالح سراج الدين وباقي القطيع، واتهمنا بأننا كذا وكذا.. هل نتركه يواصل نشاطه الإجرامي ضد ثورة الشعب باسم الديمقراطية؟

وهل إذا حوكم جواسيس الانجليز أمام محكمة الثورة، وصدر الحكم بإعدام شيخهم "كنج صبري".. وإذا ألقينا بالمدعو "كريم ثابت" في الليمان.. نصبح ضد الديمقراطية؟

وهل إذا منعنا صاحب السيجار الفاخر والسياسي البارع فؤاد سراج الدين من التآمر على الثورة ووضعناه في زنزانة بعيداً عن الشعب نصبح ضد الديمقراطية؟!

وهل إذا تركنا تجار الدين يقتلون جمال عبد الناصر، ومئات غيره، وتركنا الهضيبي ينسف دور الحكومة ومنشآت الدولة ويقيم حكومة تتاجر في الدين.. هل إذا كنا سمحنا بهذا، نصبح مع الديمقراطية ومع الدستور؟!

إن طريق الثورة كان مليئاً بالأعداء.. وكان لابد من إبعادهم عنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بمعركة مسلحة يلقى فيها كل عدو للشعب مصرعه.. ولكننا فضلنا أن نبعد هؤلاء الأعداء عن الطريق بقانون الثورة.. بالحزم والصمود وبالإصرار على أهدافنا..

فضلنا هذا على المذابح والمجازر، فهل لأننا نريد حقن الدماء.. نعمل ضد الديمقراطية؟!

وماذا لو كنا اقتحمنا قصر عابدين وتركنا الشعب يفتك بفاروق وبأسرته، بدلاً من إسقاطه بإنذار وطرده بكلمة.. وتركنا الشعب يهاجم الإقطاعيين في قراهم وفي قصورهم فيهدمها فوق رءوسهم ويأخذ الأرض التي هي من حقه.. لو كنا تركنا الشعب يحطم رءوس الباشاوات والبكوات وأبناء الارستقراطية المصرية العفنة، بدلاً من إلغاء ألقابهم ووقف نشاطهم..

هل لو كنا فعلنا كل هذا، نصبح ديمقراطيين ومن أحباب الدستور؟!

الثورة وطريق الدم

انتهى حديثي في الفصل الماضي عند نقطة هامة للغاية، بالنسبة لتاريخ هذه الثورة..

ماذا كان علينا أن نصنع منذ قمنا بتلك الثورة حتى نصبح ديمقراطيين، ونصبح أيضاً مع الدستور؟!

هل كان علينا أن نخوض مجزرة يوم ٢٣ يوليو ضد كل الذين أراد الشعب الخلاص منهم، الملك والاستعمار والباشاوات والبكوات وملاك أرض الشعب؟!

وهل كنا حقاً قادرين على إبادة كل هؤلاء الأعداء في معركة واحدة مشتركة حتى بالرغم من وقوف القوات المسلحة معنا والشعب؟

لقد كان أمراً واقعياً فعلاً أن تبيد الثورة كل أعداء الشعب وإلا كانت مهزلة لا ثورة.

إن التاريخ يقول لنا أن كل ثورة في أي بلد من بلاد هذا العالم قد قضت على أعدائها بمجزرة يفقد فيها الطرفان – الشعب وأعداء الشعب – مئات وألوفا بل وملايين من الضحايا.

ولكن – كما سبق أن قلت في مقالاتي السابقة – الفرق بين الثورة التي قامت في مصر وبين كل الثورات الأخرى هو أن قيادتها ظهرت بين صفوف القوات المسلحة.. أي ظهرت بين نفس الصفوف التي كانت تحمي أعداء الشعب..

فالجيش كانت قيادته خاضعة للقصر والإقطاع والاستعمار.. لم تكن قيادة الجيش خاضعة للشعب على الإطلاق، لكنها أصبحت فعلاً خاضعة للشعب في صباح ٢٣ يوليو، ووجد أعداء الشعب أن القوة التي كانت تمكنهم من السيطرة على البلاد قد ضاعت منهم، بل واتجهت إلى إبعادهم عن طريق الشعب..!

وفوجئ العالم بثورة مصر تتبع أسلوباً جديداً في القضاء على أعدائها لم تسبقها إليه ثورة أخرى في أي بلد من بلاد العالم.. فهو أسلوب مستمد من واقع هذا البلد ومن ظروفه ومن إمكانياته..

فالجيش هو الذي يمثل قوة الثورة المصرية، وأعداء تلك الثورة لا يمكن أن يشتبكوا مع الجيش في معركة.. فالنتيجة معروفة! وكان عليهم أن يستسلموا.. كان

عليهم – جميعاً – أن يرفعوا الرايات البيضاء ويخضعوا للأمر الواقع، لإرادة الثورة.. وقد كان! لكن لأنهم لم يبادوا ويفنوا في مجزرة، ولأنهم بقوا على قيد الحياة يتنفسون ويأكلون ويشربون ويعيشون بين الناس، خيل إليهم أن من الممكن وقف الثورة بالمؤامرات، مادامت تتقصمهم القوة التي يمكنها أن تصمد أمام القوات المسلحة!

وعندما تفشل تلك المؤامرات، وعندما تدفن الثورة كل مؤامرة في مهدها، عندما تمنع الثورة مجزرة وتبعد شبح الفتنة، يقال عن قادتها أنهم يريدون ديكتاتورية!

كأن الديمقراطية هي وقف ظهور الشعب، وكأن الديمقراطية هي ترك الباشاوات وترك الهضيبي يلقن السذج سورة آل عمران وأحدث وسائل النسف والذبح.

وكأن الديمقراطية هي أن يجلس محمود أبو الفتح في مكتبه في إحدى عواصم أوربا ويوجه الصحافة لخدمة مصالحه.. وهو حليف الإقطاع والزعامات التي تعفنت!

وكأن الديمقراطية هي أن يوقف جمال عبد الناصر عجلة التطور التي بدأت تدور وتخطو نحو الحياة ويقول لباشوات مصر وبكواتها: تفضلوا واحكموا من جديد!

وعندما تضرب الثورة على أيدي الشيوعيين لأنهم تآمروا أيضاً على الثورة مع الإقطاع وتجار الدين والمستعمرين وكل الأعداء يقال عن الثورة أنها لا تؤمن بالديمقراطية، ويقول عنها الشيوعيون أنها حكومة الفاشست والسفاحين!

ماذا بقي بعد ذلك من مواقف للثورة ضد الديمقراطية؟!

ماذا صنعت الثورة غير هذا ضد ديمقراطيتهم المزعومة؟!

هل بطشت الثورة بمصير الشعب مثلما فعلوا؟

إن البطش بالشعب هو المظهر الحقيقي للديكتاتورية..

فهل الهضيبي هو الشعب، وهل سراج الدين هو الشعب؟

وهل الجاسوس كنج صبري هو الشعب، وهل كريم ثابت هو الشعب، ومحمود أبو الفتح وعدلي لملوم وحافظ عفيفي وعبد الهادي وعملاء إسرائيل وعملاء كل الجهات الأجنبية.. هل كان هؤلاء الذين أوقفت الثورة نشاطهم ومنعتهم من الوقوف في طريقها هم الشعب؟!

وهل من أجل موقف الثورة هذا الذي تحمي به نفسها – وهي كما سبق أن قلت ثورة لا تريد الدم – يصبح قادتها من الذين لا يؤمنون بالديمقراطية والدستور وحرية الصحافة؟

وأعود إلى موضوع الدم من جديد، فأقول أن الثورة لو كانت بدأت في فجر ٢٣ يوليو بمذبحة ضد القصر والإقطاع والاستعمار وعملاء الدول الأجنبية والباشاوات والسماسرة ثم انتهت بانتصار شامل عليهم، ثم لم يبق في مصر عدو واحد يمكنه أن يعطل نهضة الشعب المصري بعد انتصاره أقول لو كانت قيادة الثورة قد خاضت هذه المجازر كلها وانتصرت ثم منعت حرية الصحافة ومنعت الانتخابات والدستور وكل الحريات، لو حدث هذا لأصبحت في هذه الحالة فقط.. وفي هذه الحالة فقط، قيادة ديكتاتورية تؤمن بالحكم المطلق لا بالشعب!

ولكن للأسف الشديد – وأقولها بمرارة – لم يحدث أن قامت تلك المجازر بعد ٢٣ يوليو..

لم تفرش دماء أعداء الثورة الشوارع وكل شبر في البلاد حتى كان يمكن بعد إبادتهم بالسلاح أن يطمئن قادة الثورة على مصير أهدافهم الشعبية، فيقام الحكم الديمقراطي في الحال، وتعاد كل الحريات في الحال، بعد أن خلت مصر من الأعداء!

لكن.. ليس معنى أن قيادة الثورة قد اتجهت في طريق آخر غير طريق الدم هو أن مجلس قيادة الثورة كان غير مستعد للاتجاه في هذا الطريق منذ أول دقيقة قامت فيها الثورة لا – وأقولها بملء فمي – فنحن كنا على استعداد لكل احتمال، كنا على استعداد لخوض معركة في ميادين القصور الملكية وفي قصور الباشاوات والساسة الخونة والرجعيين، وفي قرى الإقطاع وفي القنال..

كنا سنفعل ذلك سواء من تلقاء أنفسنا أو بحكم الأمر الواقع، وكان النصر سيحالفنا، فالشعب وراء الجيش منذ انطلق ذلك الصوت من محطة الإذاعة اللاسلكية في صباح ٢٣ يوليو..

لكن بالرغم من إيماننا بأن النصر سيحالفنا لو خضنا معركة مسلحة ضد يجمع الأعداء، إلا أننا كنا نضع في حسابنا دائماً مسألة الخسائر!

فماذا كان الشعب سيخسره لو خاض هو والجيش معركة كبرى واحدة ضد الاستعمار والقصر والإقطاع وباقي الأعداء؟

ألم يكن محتملاً أن تدمر قرى بأكملها ومدن أيضاً؟

ألم يكن محتملاً أن يموت الألوف بل ربما الملايين من أبناء الشعب؟

ألم يكن محتملاً أن تتحول أرضنا الخضراء الهادئة إلى ساحة حرب يحترق فيها الأخضر واليابس ويدمر فيها الاقتصاد بل والحياة نفسها؟

وكما قلت، كنا سننتصر حتماً في تلك المجزرة طال الزمن أو قصر.. لكن بعد النصر هل كان من الممكن إعادة بناء هذه البلاد بعد أن دمرتها الحرب؟

وإذا كانت هناك طريقة أخرى لتحقيق النصر للشعب في ثورته غير الدمار والموت والفناء.. وإذا اتبع مجلس قيادة الثورة هذه الطريقة وحقن دماء الشعب وحمى اقتصاد الشعب ومدن الشعب وقرى الشعب..

إذا كان مجلس قيادة الثورة قد صنع هذه المعجزة ونجح في إسقاط النظام الملكي بلا دم وأعلن الجمهورية بلا دم، وقضى على الباشاوات وحكمهم بلا دم..

وقاد معركة الثورة فانتصر الشعب فيها دون أن تختفي من على ظهر الأرض مدينة مصرية واحدة بما فيها من ناس ومال وحياة..

أقول إذا كان مجلس الثورة قد حقق وسيحقق الانتصارات في ثورة الشعب، أيعد هذا العمل التاريخي المجيد ضد الديمقراطية.. وأية ديمقراطية؟!

إن الشعب لم يصب بسوء حتى يمكن أن يجد الذين يتهموننا بالفاشية دليلاً واحداً على اتهامهم لنا، وعلى تجنيهم علينا.. بل الذين أصيبوا بالسوء هم أعداء الشعب.. وهم كنج صبري وكريم ثابت والبدراوي وسراج الدين وإبراهيم عبد الهادي والهضيبي وعصابته الناسفة، وعملاء إسرائيل وعملاء الدول الأجنبية على اختلافها..

وهؤلاء هم الذين يتهمون مجلس الثورة بالديكتاتورية..

وإني أقول لهم مثلما قال ماوتسي تونج لأعداء ثورة الصين:

"نعم يا حضرات السادة، إننا نقيم ديكتاتورية.. لكن على أعوان الاستعمار والإقطاع".

الضباط الأحرار

بعد المحنة

عام ١٩٤٩، بعد المحنة الكبرى، بعد أن عاد جيش البلاد من فلسطين ومعه المأساة الكبرى.. المأساة التي صنعها الخونة والسماسرة الذين حكموا الشعب وقتلوا جنوده وضباطه ومزقوا كرامته وسخروا من مقدساته.. في ذلك العام بدأت مرحلة جديدة في الموقف السياسي في البلاد.. فبعد انتهاء معركة فلسطين بعد تلك المأساة التاريخية كان على أعداء الشعب أن يبحثوا عن مخرج لهم فسخط الشعب قد بلغ حداً يهدد بالانفجار و غضب الجيش بعد أن طُعن من الخلف يجب أن يزول..

وكان تنظيم الضباط الأحرار في ذلك الوقت قد لحقته خسائر شديدة أثناء المعركة في فلسطين..

وكان حتماً بعد المحنة أي يعوض التنظيم تلك الخسائر، خاصة وأنها – أي الخسائر – كانت قد بلغت إلى حد أن الضباط الأحرار قد فقدوا الاتصال بعضهم ببعض..

وقد بدا الضباط الأحرار يعملون على الفور لإعادة الاتصال من جديد، وكان هدفهم في هذه المرة تكوين هيئة تأسيسية للضباط الأحرار ثم السيطرة على الجيش تماماً بتنظيم ضخم متماسك يمكن أن يبعد شبح المآسي عن الجيش وعن الشعب.

وتكونت الهيئة التأسيسية فعلاً وكانت تضم في البداية جمال عبد الناصر وكمال الدين حسين وحسن إبراهيم وخالد محيي الدين وعبد المنعم عبد الرءوف..

ثم تضاعف نشاط الضباط الأحرار بعد تلك الخطوة مما حتم زيادة أعضاء الهيئة التأسيسية، فانضم إليها عبد الحكيم عامر وصلاح سالم وجمال سالم وعبد اللطيف البغدادي وكاتب هذه السطور.

وفي يناير عام ١٩٥٠ أجريت انتخابات رئاسة الهيئة التأسيسية وانتخب جمال عبد الناصر رئيساً لها بالإجماع.

وعلى أثر هذا مضينا نستعد لخوض أضخم معركة في تاريخ الشعب. بدأنا نعد أنفسنا للاشتباك مع الأعداء جميعاً تحت سماء هذه البلاد..

وقد كانت البلاد في ذلك الوقت أشبه بمسرح كبير يشهد العالم فوق خشبته أعنف مأساة إنسانية تعرض لها شعب من شعوب الأرض.

لا عدالة ولا حرية ولا حق في أرضنا، بل فساد واستبداد وحكم مطلق وسماسرة يتاجرون بكل شيء، بالسياسة وبالأرزاق وبالمستقبل نفسه.. مستقبل الملايين، أما مستقبلهم هم فقد كانوا على ثقة من أنه لا توجد قوة في الوجود يمكنها زحزحتهم عن أماكنهم..

فالاستعمار حليفهم والرجعية والإقطاع والبرلمان نفسه الذي يُسير الأمور، كل هذا رهن مشيئتهم.

لا يوجد غير الشعب:

لم يكن في مصر أبطال على الإطلاق يمكنهم خوض المعركة ضد هؤلاء الأعداء الطغاة سوى الشعب نفسه، فكيف كان يمكن للشعب أن يخوض المعركة حتى يمكنه التخلص من قيوده كلها..

لم تكن هناك قيادة شعبية يمكنها أن تعد الملايين لهذه المعركة.. فحزب الأغلبية الذي يضع الشعب فيه كل آماله قد جاء إلى الحكم في ذلك الوقت وخاض المعركة – فعلاً – لكن ضد الشعب..

فزعيمه ينحني حتى يكاد يقول للحاكم بأمره فاروق تفضل أركب على ظهري.. وأعوان الزعيم يعملون من أجل شيء واحد فقط ولا شيء غيره.. من أجل أن يبقوا كما هم باشاوات وأصحاب ضياع وعقار وجاه وسلطان.. فمن إذن يمكنه أن يقود الشعب ويكتله ضد جلاديه؟!.. الإخوان.. إن مرشدهم يدخل القصر ويخرج منه ليسبح بحمد الحاكم.. ويعلن على الملأ أنه ملك كريم..

السعديون.. إنهم لا يمثلون سوى أنفسهم.. ومصالحهم مرتبطة ببقاء النظام كما هو.. بقاء الإقطاع والاستعمار والفساد والخيانة.. ببقاء الشعب في القمقم حبيساً لا يجد مخرجاً..

ماذا بقي من قيادات سياسية؟..

بقي الأحرار الدستوريون، وهم توائم للسعديين..

من يتولى المعركة..؟

كان لابد من معركة مهما كانت الظروف فمن المحال أن تبقى البلاد فريسة للحاكم وأعوانه وبرلمانه ودستوره..

من المحال أن يبقى الجياع والعراة والمستعبدون إلى الأبد تدوسهم أقدام العصابات الحاكمة، ويفترسهم المستعمرون فكيف يمكن للمعركة أن تبدأ..؟

كما قلت كان لابد من قيادة يتولاها وكما قلت كان لابد أن تكون قيادة من خارج صفوف حزب الوفد الذي انسلخ عن الشعب يوم أن ضمت قيادته الإقطاع.

ومن خارج صفوف الإخوان الذين لا يؤمنون سوى بالهضيبي وبالسمع وبالطاعة.. وبولي الأمر الملك الكريم.. كان لابد أن تكون القيادة التي ستخوض بالشعب معركة الحياة والحرية غير مرتبطة بقصر أو بحزب من الأحزاب المذكورة، أو بهيئة تتاجر في الوطنية، وفي كل شيء.. كان لابد أن تكون قيادة تربط مصالحها بمصالح الشعب حتى يمكن أن تصمد حتى النهاية لأن في عدم صمودها الفناء لها.. وللشعب أيضاً..

فأين يمكن أن توجد تلك القيادة.. وكيف يمكنها لو وجدت أن تبدأ في تكتيل الشعب وخوض المعركة بعد ذلك؟

لقد سبق أن أكدت في مقالاتي السابقة عن الثورة والديمقراطية، أن ظهور قيادة للثورة المصرية بين صفوف القوات المسلحة هو أمر محتوم مستمد من واقع مصر ومن ظروفها المختلفة..

وكان لا يمكن أن تظهر تلك القيادة خارج تلك القوات وإلا كانت مذبحة يفنى فيها الجيش والشعب قبل أن يفنى الأعداء فمن غير القوات المسلحة كان لا يمكن للشعب خوض معركته ضد أعدائه، لأن القوات المسلحة كانت – في هذه الحالة – ستنضم إلى الجانب الآخر، إلى جانب القصر والإقطاع والاستعمار والرجعية، ليس لأن وحداتها خارجة على الشعب، بل لأن قيادتها كانت خاضعة لأعداء الشعب وكانت تعمل على حماية هؤلاء الأعداء، فالطريق إذن هو تخليص الجيش من قيادته الخائنة الخاضعة للحاكم والتي تحمي النظام في البلاد، وبعد ذلك يمكن أن تبدأ المعركة على الفور.. يمكن أن تبدأ الثورة المصرية التي يؤيدها وتحميها القوات المسلحة..

الثورة في عام ١٩٥٠

وقد تكونت فعلا قيادة للثورة المصرية داخل الجيش.. وكان تنظيم الضباط الأحرار كما قلت قد كبر وأصبح نشاطه مضاعفاً في عام ١٩٥٠..

وبدأت الهيئة التأسيسية لتنظيم الضباط الأحرار تعد العدة للضربة الكبرى..

كان كل فرد في تنظيم الضباط الأحرار يؤمن بأنه إما النصر أو الموت..

وكان كل فرد فيهم يستمد القوة والعزم بل والشجاعة من الشعب نفسه، من مشاعر الجماهير وآمالها ورغباتها وسخطها العارم على الحكام، ورغبتها الصادقة في التحرر..

وخرجت المنشورات السرية لتقض مضاجع قادة الجيش ورجال القصر والحكام، وكانت المنشورات ثورية حددنا فيها أهداف الشعب بصراحة..

لم نحدد فيها مطلباً للجيش أو لضباطه وجنوده..

كل كلمة في تلك المنشورات كانت مستمدة من اتجاهات الرأي العام في البلاد.. فالشعب يريد العدالة الاجتماعية ونحن ننادي بنا، والشعب يريد القضاء على المستعمر وإذنابه ونحن نسجل إرادته، والشعب يلعن الأحلاف العسكرية والدفاع المشترك ونحن نطبع مئات المنشورات لتؤيد وجهة نظر الشعب. ومضى كل منا يكتل ضباط الجيش في جميع الوحدات استعداداً لبدء المعركة الشعبية..

أما متى تبدأ المعركة فهذا ما يحدده تقديرنا للموقف بلغة العسكريين..

وقُدر الموقف فعلاً على أساس قلب نظام الحكم القائم وإحلال نظام جديد مكانه، وحددت المدة لتنفيذ الخطة كاملة في عام ١٩٥٠ بخمس سنوات.. أي أن الثورة كانت ستبدأ عام ١٩٥٥.. وليس في يوليو عام ١٩٥٢..!!

وفي يناير عام ١٩٥١ أجريت انتخابات جديدة للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار وأعيد انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً لها للمرة الثانية..

الشعب لا أولادنا..

وبعد ذلك وبينما نحن نعد خطتنا لقلب نظام الحكم على أساس تقديرنا للموقف في البلاد في ذلك الوقت، فوجئنا بالبكباشي عبد المنعم عبد الرءوف وهو ينادي بضم تنظيم الضباط الأحرار كله إلى إحدى الهيئات..

ولم يجد عبد المنعم عبد الرءوف من يستمع إليه. كنا جميعاً نؤمن بالشعب كوحدة.. وارتباطنا به وبأهدافه ككل، لا بهيئة ما مهما كانت أهدافها.

وأصر عبد المنعم عبد الرءوف على إخضاع الضباط الأحرار لجماعة الإخوان المسلمين، وقال وهو يحاول إقناعنا بوجهة نظره أن جميع أعضاء تنظيم الضباط الأحرار يمكن أن يقبض عليهم قبل أن يتمكنوا من عمل شيء.. من يرعى أطفالهم وزوجاتهم وأهلهم؟

وقال أن انضمامنا لهيئة ما فيه ضمان لعائلاتنا في حالة ما إذا أصابنا مكروه فالهيئة المذكورة تتولى رعاية عائلاتنا وأولادنا..

وقلنا له جميعا أننا مثله لنا زوجات وأولاد، ويهمنا أن نطمئن على مصيرهم، لكن المسألة ليست مسألة شخصية..

فنحن نعد ثورة لا مؤامرة!!

ومصير أولادنا وزوجاتنا لا يعنينا لأن الذي نعمل من أجله هو مصير الشعب لا أطفال الضباط الأحرار..

وقلنا له أن ارتباط الجيش بهيئة ما يعرض البلاد للفوضى، فالجيش يجب أن يكون خاضعاً للشعب ككل.. وإلا جعلت منه الهيئة المذكورة أداة لتنفيذ أغراضها هي وأهدافها هي.. وخططها هي!!

وقلنا له نحن لا نستطيع أن نبيع أفكارنا ومبادئنا من أجل أطفالنا..

وأصر الضباط جميعاً على رأيهم، فالجيش يجب أن يصان من نفوذ الهيئات والأحزاب، الجيش هو جيش الشعب وليس جيش الهضيبي أو الوفد أو جماعة معينة.

تنفيذ الخطة قبل موعدها..

وكان نجاح فكرة تكوين تشكيلات داخل الجيش أكثر مما قدرنا، ففي كل وحدة من وحدات الجيش أصبح لتنظيم الضباط الأحرار أفراد فيها..

لم نكن نتوقع عندما قررنا تكوين تشكيلات بين صفوف القوات المسلحة أن تنجح الفكرة إلى هذا الحد، وكانت الأمور في البلاد تتطور بشكل سريع ومثير..

فقد ظهر مدى إيمان قيادة الوفد بالكفاح المسلح فكانت مهزلة القتال التي كان فؤاد سراج الدين يتولاها من مكتبه بالداخلية..

ثم بدأ القصر يتآمر، وبدأ الوفد يتراجع، لكن الرأي العام كان في حالة من اليقظة يصعب معها خداعه.

وكان لابد من ضربة قاصمة تنهي المسألة قبل استفحالها فالضباط الأحرار كانوا قد بدئوا يساهمون في معركة القتال رغم إرادة القصر وحكومة الوفد..

واجتمعنا وتبين لنا أننا قد نضطر إلى تنفيذ خطتنا قبل موعدها.. أي قبل عام ١٩٥٥.

لمن يخضع الجيش؟!

كان نجاح تكوين تشكيلات للضباط الأحرار في جميع وحدات الجيش هو أحد عاملين عجلا بتقديم موعد تنفيذ الخطة.. أما العامل الثاني فهو الأحداث السياسية التي طرأت على الموقف في البلاد بعد حريق القاهرة..

وكان لابد من اختيار قائد للثورة.. لكي تبدأ الثورة معاركها مع أعداء الشعب في العلن وعلى مشهد من العالم كله..

هنا أود أن أقف قليلاً، فهنا تلعب الظروف دورها.. هنا تتحكم الصدفة ولا شيء غيرها في الموقف..

لقد كان من رأي جمال عبد الناصر وهو رئيس الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار والذي انتخب في كل مرة رئيساً، والذي كان عليه أن يقود الثورة في العلن مثلما قادها في السر قبل ٢٣ يوليو.. أقول كان من رأي جمال أن يكون قائد الثورة حاملاً لرتبة كبيرة من رتب الجيش، وكان هناك رأي واحد فقط في الهيئة يعارض أن يقود الثورة واحد من خارج الهيئة التأسيسية.. لكننا اتفقنا – جميعاً – في النهاية على أن يتولى أحد الضباط الكبار قيادة الثورة، واقترح جمال ثلاثة أسماء: عزيز المصري وفؤاد صادق ومحمد نجيب.

حقيقة فؤاد صادق:

وبدأت الاتصالات بعزيز المصري، ولكن الرجل أصر على أن يظل أباً روحياً للثورة وأقنعنا برأيه..

وبقى اثنان.. اللواء فؤاد صادق واللواء محمد نجيب..

وذهب صلاح سالم لمقابلة اللواء فؤاد صادق، ليعرف نواياه..

وكان عثمان المهدي – رئيس هيئة أركان حرب الجيش قد استقال من منصبه في ذلك الوقت ولم يكن معقولاً أن يفاتح صلاح فؤاد صادق في أمر قيادته للثورة.. فهو كان مثل محمد نجيب لا يدري أن هناك تنظيماً للضباط الأحرار..

وأيضاً لا يدري أن هؤلاء الضباط الأحرار قد أعدوا أنفسهم للقيام بثورة لقلب نظام الحكم، كل ما كان يعرفه فؤاد صادق هو أن بعض ضباط الجيش الصغار لهم رأي معين في الحالة وأن هؤلاء الضباط الصغار لا يتعدي نشاطهم إعلان السخط والغضب والأسى..

وأعود إلى مقابلة صلاح سالم بفؤاد صادق..

ذهب صلاح إليه في بيته، وقال له إن الرأي العام بين الضباط في الجيش يرشحه لتولي منصب رئيس هيئة أركان حرب الجيش، وقال له صلاح أن هؤلاء الضباط يمكنهم مساعدته لكي يتولى هذا المنصب فهم قوة ولهم نفوذ كبير، وظل صلاح يحدثه عن هذا الرأي العام لهؤلاء الضباط في الجيش حتى اقتنع فؤاد صادق وآمن بأنه سيعين رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش..

وأثناء الحديث دق جرس التليفون، ورفع فؤاد صادق السماعة، وكان المتكلم هو اليوزباشي مصطفي كمال صدقي، وكان مصطفي على صلة ما بالقصر في ذلك الوقت، وقال مصطفي كمال لفؤاد صادق أن مرسوم تعيينه رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش سيوقعه مولانا في الصباح..

وظهرت على فم اللواء فؤاد صادق ابتسامة غريبة ونظر إلى صلاح نظرة ذات مغزى. ثم قال وهو لا يزال يمسك بسماعة التليفون: بتقول أية يا مصطفي؟. زعق شوية وأشار فؤاد صادق لصلاح سالم أن يقترب منه، واقترب صلاح وقرب أذنه من التليفون كما طلب منه اللواء صادق وسمع صلاح مصطفي صدقي يتحدث عن مرسوم تعيين فؤاد صادق الذي سيصدر في اليوم التالي.. ثم وضع فؤاد صادق سماعة التليفون.

عرف شخصيته:

في تلك اللحظة عرف صلاح شخصية فؤاد صادق..

فالرجل شعر بعد أن أبلغه مصطفي صدقي بأمر تعيينه أن – الرأي العام – للضباط في الجيش والذي حدثه عنه صلاح سالم لم يعد يعنيه..

وقد كشف فؤاد صادق عن شخصيته أمام صلاح فجأة، فبعد أن كان قد أبدى استعداده لتحقيق كل رغبات الضباط وحماية مصالحهم والوقوف إلى جانبهم، انقلب فجأة وبلا مقدمات وبعد أن عرف أن هؤلاء الضباط لن يكون لهم دخل في تعيينه فقد عين والحمد لله..

إن اللواء فؤاد صادق كشف عن حقيقة معدنه عندما قال لصلاح بعد مكالمة مصطفي صدقي بالحرف الواحد:

"إذا كنت بقيت رئيس أركان حرب الجيش فده بمجهودي أنا.. وبدراعي أنا"..

ثم قال لصلاح أنه سيعمل على إقامة النظام الكامل في الجيش وأنه لن يسمح بأي نشاط ضد نظم الجيش..

وصمت لحظة ثم عاد يقول لصلاح المذهول:

- "لازم تفهم أنت والضباط اللى معاك الكلام اللي بقوله ده.. لأني سأنفذ القانون.. وأنصحك أنك واللي معاك تدوروا على مصالحكم ومستقبلكم ومستقبل أولادكم أحسن"!!

ولم يتمالك صلاح نفسه فقال له وهو حزين آسف:

- "دي آخر مرة أخش فيها بيتك.. السلام عليكم!!"

وهمّ صلاح بالانصراف وسمع فؤاد صادق يقول له وهو في طريقه إلى خارج البيت:

- "بيتي مفتوح.. اللي يحب ييجي ييجي.. واللي ما يجيش هوه حر.."

وعاد صلاح إلى رفاقه يحدثهم بما دار بينه وبين فؤاد صادق، المرشح الثاني لقيادة الثورة، وكانت مفاجأة للجميع!!

أما لماذا لم يعين فؤاد صادق في اليوم التالي رئيساً لهيئة أركان حرب الجيش وعين بدلاً منه في اللحظة الأخيرة حسين فريد فلذلك قصة ثانية، لعب فيها تشكيل الضباط الأحرار دوراً حاسماً..

أين كان محمد نجيب؟!

كيف تم الاتصال بنجيب؟!

كيف ظهر على المسرح.. وهو الذي لم يكن يعد ثورة أو أي شيء!!

لقد كان نجيب في ذلك الوقت قائداً لسلاح الحدود.. ولم تكن له صلة ما بالحركة. ولم يكن يدري مثل فؤاد صادق أن هناك في الجيش تنظيماً ضخماً يعمل تحت الأرض ويعد العدة للقيام بثورة لقلب نظام الحكم..

لم يكن يعلم شيئاً بالمرة، وكنا في أواخر عام ١٩٥١..

وأعود مرة أخرى إلى الصدفة العابرة، الصدفة التي جعلت اسم نجيب.. يتردد على ألسنتنا وجعلت جمال يرشحه مع عزيز المصري وفؤاد صادق لقيادة الثورة.

فقد صدر الأمر بنقل نجيب من سلاح الحدود إلى سلاح المشاة..

وعين حسين سري عامر ذنب السراي مكانه.. ولم يكن لهذا النقل من مبرر..

وتردد في صفوف الجيش أن محمد نجيب قد يستقيل بعد اللطمة التي وجهت إليه، وكان الشعور العام في الجيش ضد حسين سري عامر.. لا لشيء إلا لأنه ذنب للسراي!!

ومن هنا كان العطف على نجيب..

شعر الجميع أنه ضحية لحسين سري عامر، ولو كان نجيب نقل أو أحيل إلى المعاش وعين بدلاً منه أي مدير آخر لسلاح الحدود لما حظي بتأييد الرأي العام في الجيش على الإطلاق، لكن لأن الذي عين مكانه هو ذنب للسراي فنجيب إذن يستحق العطف، ويجب أن يقف الضباط الأحرار إلى جواره. وفعلاً حدث عقب أن سرى نبأ اعتزام نجيب تقديم استقالته أن أتصل به جمال عبد الناصر وقال له:

- "إن الضباط يطلبون منك أن تبقى كما أنت في سلاح المشاة ولا داعي لتقديم استقالتك"..

وقال له جمال أيضا أن اللطمة التي وجهت إليه إنما هي موجهة للجيش، ولهذا فالجيش يعتزم رد اللطمة بأشد منها!!

هكذا بدأ اتصال الضباط الأحرار باللواء نجيب، فهو في محنة وهم يقفون إلى جواره باعتباره ضحية لذنب السراي..

ومن هنا جاء ترشيحه لتولي قيادة الثورة، ومن هنا بدا القدر يفتح أمامه أبواب التاريخ!

خطة الثورة

بعد البداية

وقفت في الفصل السابق عند البداية.. بداية اتصال تشكيل الضباط الأحرار باللواء محمد نجيب، وكان ذلك في عام ١٩٥١، وذلك الاتصال تم لا على أساس مفاتحته في موضوع قيادة الثورة، بل لإقناعه بعدم تقديم استقالته بعد أن نُقل من منصبه في سلاح الحدود إلى المشاة، ليحل حسين سري عامر عميل القصر مكانه بناء على رغبة القصر..

وشرحت في المقال السابق كيف حظي اللواء نجيب بتأييد الرأي العام في الجيش أو بعبارة أخرى بتأييد تنظيم الضباط الأحرار، وهم كانوا على استعداد لتأييد أي ضابط كبير آخر أصابه سوء على يدي عميل السراي حسين سري عامر!

وفي ذلك الوقت لم يكن محمد نجيب يعلم ماذا يجري في الجيش؟!

لم يكن يعلم أن في الجيش تنظيماً سرياً ضخماً يباشر نشاطه تحت الأرض استعداداً لقلب نظام الحكم!

ولم يكن يعرف أنه كان – في ذلك الوقت – المرشح الثالث لقيادة الثورة في حالة ما إذا لم يتول قيادتها عزيز المصري أو فؤاد صادق!

وفي المقال السابق عرف القارئ كيف صمم عزيز المصري على أن يبقى أباً روحياً لنا. وبذلك كان علينا الاتصال بالمرشح الثاني اللواء فؤاد صادق، ثم اكتشف صلاح سالم حقيقته أثناء وجوده في بيته، وعرف مدى غروره وصلفه وأنانيته، عرف من أي طينة عُجن ذلك الرجل!

وبعد أن ظهرت لنا حقيقة فؤاد صادق أسقطناه من حسابنا ثم جاء دور المرشح الثالث محمد نجيب، وحدث ما رويته من نقله إلى سلاح الحدود، ثم اتصال جمال عبد الناصر به وتأكيده له أن الجيش يعتبر اللطمة التي أصابته موجهة للجيش نفسه، وسيرد الجيش اللطمة بأشد منها.. للقصر!!

وبعد اتصال جمال باللواء محمد نجيب استعد تنظيم الضباط الأحرار لرد اللطمة فعلاً. واجتمعنا وقررنا أن تكون اللطمة عن طريق نادي الضباط!

اختبار قوة الأحرار

قررنا أن نخوض معركة انتخابات النادي لانتخاب محمد نجيب رئيسا لمجلس الإدارة مع حرمان سلاح الحدود من تمثيله في المجلس، لأن مديره حسين سري عامر خصم لنا.. ولأنه عين القصر المفتوحة في الجيش!

ولم يكن غرض التنظيم من خوض معركة نادي الضباط الانتقام من حسين سري عامر ورد اللطمة للقصر فقط، بل رأينا أن هذه المعركة إذا انتصرنا فيها تكون بداية عظيمة للمعركة الكبرى القادمة معركة قلب نظام الحكم، فمعركة الانتخابات إذا خضناها تكون أول معركة علنية يخوضها الضباط الأحرار ضد القصر، وانتصارنا فيها يشعرنا بالثقة، ويبعث في نفوس جميع الرفاق في التنظيم الإحساس بالقوة، وليس هذا فقط فإن الجيش بعد انتصارنا في معركة النادي سوف تسري فيه روح جديدة ويكون الانتصار اختباراً لروح التضامن بين القوات المسلحة كمجموعة واحدة تقف خلف تنظيم الضباط الأحرار.

وقدرنا أيضاً نتائج كثيرة أخرى لمعركة انتخابات النادي لو انتصرنا فيها فالملك سوف يشعر بهزيمة عملائه في تلك الانتخابات بأن الجيش غير راض عن تصرفاته، ويمكن أثناء هذه المعركة كشف الخونة وجميع عملاء القصر وهم الذين سيقفون ضدنا وضد الذين سنرشحهم للفوز في معركة النادي..

ومضينا نستعد للمعركة الأولى بيننا وبين القصر، وشعر القصر بأن في الجيش نشاطاً مريباً، وأن في الأفق سحباً تنذر بالشر، فأصدر أمراً بتأجيل انتخابات نادي الضباط!

التنظيم يتحدى أمر التأجيل !

وقد كان علينا أن نمضي حتى النهاية لتنفيذ خطتنا كاملة، ولم نبال بقرار التأجيل. فصدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار بأن يتوجه أكبر عدد منهم إلى النادي في نفس التاريخ المحدد للانتخابات وكان محدداً لها ٣١ ديسمبر سنة ١٩٥١.

وفي الموعد المحدد كان في نادي الضباط عدد كبير من الضباط الأحرار. وأعلنوا على الفور احتجاجهم على أمر تأجيل الانتخابات، ثم طلبوا دعوة الجمعية العمومية للاجتماع بعد ثلاثة أيام بوساطة رياسة الجيش لتقرر ما تشاء!!

ولم نكن نتوقع أن تستجيب رياسة الجيش لهذا التحدي، لكن يبدو أنها - أي الرناسة - خشيت توتر الموقف فاستجابت للمطلب وتمت عملية الانتخاب!

وهنا وزع الضباط الأحرار كشفاً بمن يرشحونهم للانتخاب. ومن ضمن هؤلاء الذين حددنا أسماءهم اللواء محمد نجيب.. وهو الذي لم يكن يعرف ماذا يجري وراء الستار. وماذا نعده له نحن أفراد التنظيم من مفاجآت كبرى ستغير مجرى حياته!

ونجحت خطة التنظيم.. فكل الذين سجلنا أسماءهم في قائمة الانتخابات نجحوا وبأغلبية ساحقة!

وليس هذا فقط، بل لقد مضينا في تحدي القصر إلى أبعد مدى، فرفض تعيين مندوب من سلاح الحدود في مجلس إدارة النادي!

وكذلك كسبنا المعركة حسب الخطة الموضوعة! وقد حدث ما توقعناه، ارتفعت الروح المعنوية بين جميع أفراد القوات المسلحة، وازددنا ثقة في خطتنا وفي معاركنا وفي أعمالنا..!

وجاءت الأحداث..!

وأقبلت الأحداث لتدفع عجلة التاريخ بسرعة لم نكن نتوقعها، فقد وقع حريق القاهرة - يناير سنة ١٩٥٢ - واجتمعنا على الفور لنغير خطتنا كلها. وكان الاجتماع في منزل حسن إبراهيم، وكنا قد قدرنا مدة خمس سنوات للقيام بالعملية الكبرى، عملية قلب نظام الحكم، لكن ذلك الحدث الضخم كان أشبه بالنذير لنا.. وقدرنا الموقف في ذلك الاجتماع مرة ثانية، ثم قررنا أن نكون على استعداد خلال شهر واحد.. وبذلك تغيرت الخطة!

وأثناء حريق القاهرة صدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار الذين في القاهرة بمقاومة أعمال التخريب، كنا نعرف النتيجة، فالقصر والاستعمار وأعوانهما سيمضون في ضرب الحركة الوطنية بكل وسيلة. ولا سبيل إلى مقاومة هؤلاء الأعداء إلا بثورة، لا بالتخريب والخطب الرنانة، وقد وضح الموقف السياسي في البلاد وضوحاً تاماً بعد حريق القاهرة، وعرف من لم يكن يعرف أنه لا توجد قيادة شعبية لثورة مصر ضد الاستعمار..

فقيادة الوفد انتهازية وتمسك الحبل من الوسط، فهي مع الشعب حيناً وضد الشعب في أغلب الأحيان!

وكانت وزارة على ماهر التي تكونت عقب حريق القاهرة عبارة عن خدعة أراد القصر والاستعمار بها التمهيد لحكم البلاد بالحديد والنار ثم تصفية الحركة الوطنية نهائيا على أيدي الخونة والأذناب وأصحاب المصالح المتناقضة مع مصالح الشعب!!

وفعلاً لم تلبث وزارة على ماهر أن طارت في فبراير.. أي بعد أيام من تأليفها!

حقيقة رشاد مهنا..

وقبل أن أمضي في سرد أحداث ما بعد حريق القاهرة، أود أن أقف قليلاً لأتحدث عن رشاد مهنا.. لأزيح الستار عن سر آخر غير سر محمد نجيب!!

إن رشاد مهنا لم يكن في تنظيم الضباط الأحرار، لم يكن واحداً منا.. وعلاقته بنا سأتناولها بالشرح التام.. فقد حدث بعد انسحاب عبد المنعم عبد الرءوف من الجمعية التأسيسية للضباط الأحرار أن اقترح جمال عبد الناصر ضم رشاد مهنا بدلا منه، وعارضت رأي جمال لأني كنت أعرف شخصية ذلك الرجل.. من تاريخه ومن واقع تصرفاته!!

لكن جمال ذهب فعلاً إلى رشاد مهنا وعاد ليقول لنا أن رشاد لم يصدق أن في الجيش تنظيماً سرياً يعد العدة للقيام بثورة في البلاد. كل ما كان يعرفه رشاد مهنا هو أن في الجيش رأياً عاماً ضد القصر فقط، وقال لنا جمال أيضاً أن رشاد مهنا رفض أن ينضم إلى التنظيم وقال أنه يفضل التعاون من بعيد لبعيد!!

وهكذا تراجع رشاد مهنا في عام ١٩٥٠، مثلما تراجع من قبل عام ١٩٤٢.. ولذلك قصة سأرويها فيما بعد!!

وأعود إلى قصتنا فأقول أنه بعد أن طارت وزارة على ماهر في فبراير عام ١٩٥٢، ذهب جمال عبد الناصر مرة ثانية إلى رشاد مهنا، وفاتحه في موضوع تنفيذ الخطة.. أي قلب نظام الحكم!!

وهنا شعر رشاد مهنا أن المسألة جد، وأن الجيش فعلاً يمكن أن يفعلها – اليوم – ويقلب النظام، وقد وافق رشاد مهنا في هذه المرة على الاشتراك في تنفيذ الخطة، وقال لجمال عبد الناصر أن معه ناساً، أي وراءه رأي عام في الجيش..! وقد وضع جمال خطة قلب نظام الحكم على أساس أن رشاد مهنا سيشترك فيها وأن معه ناساً وصدرت الأوامر للضباط الأحرار بالاستعداد.. وكان ذلك في مارس عام ١٩٥٢.

رشاد مهنا يتراجع..

وفجأة بعد أن أعددنا كل شيء للتنفيذ، على أساس اشتراك رشاد مهنا معنا جاء ذلك الرجل إلى جمال ليقول له أنه نُقل إلى العريش..

وعرفنا بعد ذلك أن رشاد مهنا قدم طلباً كتابياً إلى رئاسة الجيش للخدمة خارج القاهرة.. ويبدو أنه شعر بعد أن اتفق مع جمال على الاشتراك في قلب نظام الحكم.. أقول أنه شعر بالخوف فقدم ذلك الطلب ليبتعد عن هؤلاء الذين يريدون توريطه في عملية قد تطير فيها رقبته!

وقد عدلت الخطة بعد تراجع رشاد مهنا وسفره إلى العريش وكان لابد من تعديلها بحيث لا تعتمد على رشاد مهنا، وأُلغيت الأوامر وأُجلت العملية إلى أجل غير مسمى.

كان موقف رشاد مهنا صدمة لكل الضباط الأحرار وأخرجنا رشاد مهنا من حسابنا نهائياً، مثلما أخرجنا عبد المنعم عبد الرءوف، وكان ذلك باعثاً على ارتياحي أنا شخصياً لأنني كنت أعرف حقيقة رشاد مهنا أكثر من جميع الزملاء.. وكان رأيي دائماً هو عدم الاتصال به أو الثقة فيه.

محمد نجيب والرغبة السامية:

مايو ١٩٥٢، وكنا في رمضان، طلب محمد نجيب عقد الجمعية العمومية لنادي الضباط بناء على رغبة سامية!

وعرض نجيب على الجمعية موضوع قبول عضو من سلاح الحدود ورُفض الطلب بالإجماع..

كان نجيب حتى ذلك التاريخ لا يدري ما يدور حوله.. لا يعرف شيئاً ولا يرى شيئاً..

إن آخر شيء كان يتوقعه محمد نجيب هو أن يقلب الجيش نظام الحكم؟

أقول كان لا يعلم حتى ذلك الحين – مايو عام ١٩٥٢ – أن في الجيش تنظيماً سرياً ولم يعرف أي شيء عن الضباط الأحرار، وإنما كان يعرف جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم.

ولم يكن يعرفهم على أساس أنهم يعملون داخل تنظيم سري يعد العدة للقيام بثورة، بل كان يعرفهم على أساس أن لهم رأياً عاماً في الجيش فقط!

هكذا كان وضع قائد الثورة الذي حرر البلاد، وطرد الملك وأعلن الجمهورية وحطم الإقطاع وقضى على تجار السياسة والفساد.

هكذا كان حال اللواء محمد نجيب في عام ١٩٥٢ أي في عام الثورة، رجلاً مسالما يرى أن الرغبة السامية لها احترامها ويرى أن المسألة في الجيش ليست ثورة بل رأياً عاماً لجمال وصلاح وعبد الحكيم!

هكذا كان حال الرجل الذي تحدث عنه العالم كله وأشاد بثورته المجيدة وببطولته الفذة، وقيادته للشعب المصري في معاركه ضد الاستعمار والإقطاع.. ضد جلاديه.

كان مثل أي رجل في مصر وفي مثل سنه، مثل أبي وأبيك..

كان موظفاً يجلس إلى مكتبه من الصباح حتى الظهر وليس في ذهنه أي شيء عن العدالة الاجتماعية أو عن الاستغلال والاستبداد ومحنة الاستعمار. كل الذي كان يشغل باله في عام الثورة.. عام ١٩٥٢ هو نفس الشيء الذي كان يشغل بال أي موظف كبير في مثل سنه.. ربما علاوة أو ترقية أو منصباً آخر غير منصبه في سلاح المشاة!

لم يكن يخطر على باله أن التاريخ يعده ليكون أكثر من هذا.. ليكون على رأس ثورة.. ثم ليكون رئيساً لجمهورية البلاد.. لا رئيساً لسلاح الحدود!!

ولم يكن يخطر على باله أن جمال وعبد الحكيم وصلاح الذين يراهم أحياناً كما يرى عشرات غيرهم من الضباط في كل يوم يعدون العدة لكي يفتحوا أمامه أبواب التاريخ ثم ليقولوا له.. تفضل.. أنت زعيم!!

هذا هو وضع محمد نجيب في عام ١٩٥٢.. في عام الثورة!!

موظف كبير من موظفي الدولة.. أساءت إليه السراي عندما نقلته من وظيفته، فقرر القدر أن يعوضه عن هذه الإساءة الهينة بوضعه على رأس الدولة!!

جمال وعبد الحكيم في القاهرة:

وأعود إلى القصة فأقول أنه في صيف ذلك العام بحث التنظيم أمر تنفيذ الخطة من جديد.. وتقرر تأجيل التنفيذ إلى نوفمبر من نفس السنة.. سنة ١٩٥٢..

وكان هناك أربعة من الهيئة التأسيسية للتنظيم خارج القاهرة وهم جمال وعبد الحكيم وصلاح وكاتب هذه السطور.. كنا في العريش ورفح..

وفي شهر يوليو سافر عبد الحكيم عامر إلى القاهرة في أجازة مرضية، وسافر جمال إلى الإسكندرية في أجازة أيضاً، ثم قطع جمال أجازته وعاد إلى القاهرة بعد

أن سمع إشاعات عديدة عن الإجراءات التي سيتخذها الملك ضد الضباط الأحرار.. وبعد أن سمع أن هناك أوامر من الملك بسرعة البحث عن هؤلاء الضباط بين أفراد القوات المسلحة للبطش بهم!

١٥ يوليو.. ونجيب لا يعرف!

وفي ذلك الوقت أي في يوليو.. أي في شهر الثورة، كان محمد نجيب مريضاً في منزله، وأيضاً ليس في ذهنه شيء عن أية ثورة!

ربما كان أمله الوحيد في شهر يوليو أن يغادر فراشه إلى عمله في سلاح المشاة، وكان أملنا نحن هو أن يغادر ذلك الرجل فراشه ليذهب إلى قصر عابدين رئيساً للجمهورية!

أي موقف ذلك الذي مرت به الثورة المصرية في ذلك الشهر من عام ١٩٥٢؟!

خطة الثورة توضع وقائد الثورة في منزله لا يعلم!! قائد الثورة في فراشه والثورة نفسها تجهله.. قائد الثورة في فراشه، والثورة نفسها لا تدري هل هو الذي سيوضع على رأسها، أم سيكشف أحد حقيقته في اللحظة الأخيرة، مثلما اكتشف صلاح حقيقة فؤاد صادق؟!

لم يكن هناك وقت على الإطلاق أمام جمال ورفاق جمال لاكتشاف حقيقة محمد نجيب.. فنحن في ١٥ يوليو.. ونجيب لا يعلم شيئاً بالمرة.. ثم يصدر الأمر بحل مجلس إدارة نادي ضباط الجيش.

نجيب في بيته لا يعلم

صدرت الأوامر بحل مجلس إدارة نادي الضباط في ١٥ يوليو ١٩٥٢.. كانت مفاجأة للجميع، وإن كنا نعرف أن القصر كان يتربص بمجلس الإدارة المذكور بعد أن لمس مدى سيطرة ذلك المجلس على الموقف وتحديه للرغبات السامية، ورفضه قبول عضو يمثل سلاح الحدود.

ولم تصدر الأوامر فقط بحل المجلس، بل وبتعيين مجلس إدارة مؤقت، ليس للضباط الأحرار عليه سلطان أو نفوذ!

وشعرنا جميعاً بأن الضربة الثانية ستوجه للضباط الأحرار، وكان علينا أن نبدأ في العمل فوراً لنضيع على القصر فرصة البطش بنا.

وفي ١٦ يوليو عقد اجتماع سريع حضره جمال وحسن إبراهيم وكمال الدين حسين وعبد الحكيم عامر وخالد محيي الدين وبغدادي وكان ذلك الاجتماع هو أخطر اجتماعات الهيئة التأسيسية التي كان بعض أفرادها في فلسطين ورفح في ذلك الوقت، وفي ذلك الاجتماع تقرر بدء المعركة الكبرى النهائية، وكان يجب علينا أن نأخذ بمبدأ المبادأة حتى لا نؤخذ على غرة، ويتوصل جواسيس القصر إلى معرفة أشخاص الضباط الأحرار وتشكيلاتهم في أسلحة الجيش المختلفة.

الوقت سيد الموقف..

وكانت هناك حركة تنقلات ضخمة في الجيش، وشعر التنظيم أن هذه الحركة إنما لغرض منها هو تشتيت شمل الضباط الأحرار وإحداث ارتباك بين صفوفهم. وفعلاً حدث ما كانت تهدف إليه رئاسة الجيش.. فقد بدأت التحركات بين وحدات الجيش على أثر صدور حركة التنقلات السريعة وشعر التنظيم بالخلل في جهازه نتيجة تلك التحركات.. فهناك ضباط أحرار كان عليهم أن يتركوا أماكنهم إلى غيرها نتيجة لتلك التحركات الجديدة.

كانت فترة حاسمة في تاريخ الضباط الأحرار، وكان الوقت هو سيد الموقف.. ولابد من التماسك والتكتل ثم الوثوب على الأعداء قبل أن تحدث كارثة.

كانت هناك خطتان.. نواجه بهما الموقف:

الأولى هي البدء في تنفيذ الخطة الأساسية، أي القيام بقلب نظام الحكم، وإقامة نظام جديد، فإذا لم يكن هذا ممكناً. أي إذا ما جاءتنا أحداث جديدة، أو ظروف طارئة تؤجل الخطة الأولى وتنفذ الخطة الثانية وهي كانت تقضي بالقيام بحركة اغتيالات على نطاق واسع.

كنا في ١٨ يوليو، شهر الثورة.. وعندما استعرضت الخطة الثانية اعترض عليها جمال عبد الناصر..

قال إن الاغتيالات لن تحقق أهدافنا، لأن النظام سيبقى كما هو حتى لو نجحت خطة الاغتيالات..

وقال جمال أيضاً أن هذه الخطة سوف تعطي فرصة لقوى الرجعية مجتمعة تقضي فيها على جميع الضباط الأحرار. وبهذا نكون قد ضيعنا الفرصة الكبرى على الشعب، فرصة قيام القوات المسلحة وهي أمل البلاد الوحيد بقلب نظام الحكم.

١٩ يوليوونجيب لا يعلم!

كانت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار توالي اجتماعاتها في تلك الأيام التاريخية الرهيبة المليئة بالأحداث..

وأبلغ جمال الهيئة أنه يمكن تنفيذ الخطة الأساسية بالقوات الموجودة، وقال أن ذلك يمكن أن يتم ليلة ٢١ و ٢٢ يوليو..

كل هذا كان يحدث وكل تلك الأحداث التاريخية الكبرى كانت تقع واللواء نجيب في بيته لا يعلم شيئاً ولا يرى شيئاً.. بل لم يكن قد عرف أن في الجيش تنظيماً سرياً سوف يقلب نظام الحكم.. وكنا في ١٩ يوليو..

وقد صدرت الأوامر لجميع الضباط الأحرار بالانتظار يومياً في "مراكز تجمع" من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى منتصف الليل.. وابلغوا بموعد التنفيذ، وكل هذا واللواء نجيب في بيته لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً، بل ولم نكن قد فاتحناه حتى ذلك الوقت بمسألة قيادته للثورة.. على أي حالة لقد كان كل شيء يعد له لكي يدخل من أبواب التاريخ، لكي يحرر الشعب، ويطرد الملك ويقضي على الفساد ويعلن الجمهورية..

كنا جميعاً نمهد له الطريق في تلك الأيام نحو الخلود.. كنا نواصل ليلنا بنهارنا لكي يخرج من بيته – وهو لا يعلم – ويقال له.. أنت زعيم..

رقابنا.. ومصائر أطفالنا وزوجاتنا.. كل هذا لكي يصبح اللواء الذي في بيته على رأس الدولة وهو لا يعلم..

وكما قلت كنا في ١٩ يوليو، أي قبل الثورة بأربعة أيام..

لنتأمل – إذن – في هذا الوضع التاريخي العجيب، وليتأمل معنا العالم كله في كيف يصبح الرجل – أي رجل – زعيماً وقائداً لثورة شعبية في أربعة أيام.. في غمضة عين..

أليس هذا شيئاً أشبه بالسحر؟ ألا يذكرنا هذا بمصباح علاء الدين وخاتم سليمان، والعملاق الذي يخرج من القمقم ليقول: شبيك لبيك عبدك وملك يديك!

لقد قلنا للواء نجيب هذا.. قلنا له شبيك ولبيك وخل ما تطلبه بين يديك.. وطلب أن يكون فكان..

العمالقة على باب نجيب..

قلت أننا كنا في ١٩ يوليو، وكانت الأوامر قد صدرت إلى مجموعات الضباط الأحرار، وكان على كل مجموعة أن تنفذ دوراً معيناً في الخطة..

وكان جمال عبد الناصر هو الذي وضع الخطة العامة وعاونه عبد الحكيم عامر وكمال حسين، وكان عبد الحكيم في تلك الأيام كما قلت – في الفصل السابق – في أجازة مرضية..

وتم وضع الخطة العامة ثم كُلف عبد الحكيم بوضع الخطة التفصيلية واستعان عبد الحكيم بزكريا محيي الدين..

وفي ٢٠ يوليو أي قبل الثورة بثلاثة أيام توجه جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر إلى بيت محمد نجيب لإبلاغه بأنه الزعيم والقائد ومحرر البلاد الذي سيقلب نظام الحكم..

وطرق العملاق باب البيت وكان عند نجيب البكباشي جلال ندا والصحفي محمد حسنين هيكل.. وكانت الأنظار قد اتجهت إلى نجيب في ذلك الوقت بعد أزمة مجلس إدارة نادي الضباط..

وأقول مرة ثانية وثالثة ورابعة حتى الألف أن نجيب لم يكن يعلم لماذا جاء جمال وعبد الحكيم.. وربما ظن أن الاثنين جاءا لمواساته بعد حل مجلس إدارة النادي ولتشجيعه كالعادة.. وتظاهر جمال وعبد الحكيم أنهما جاءا للاستفسار عن صحة اللواء.. وبدأ الحديث في موضوع آخر غير موضوع الثورة.. فلا أحد في الحجرة كان يعلم ماذا في رأس جمال وعبد الحكيم، ولا أحد في الحجرة – حتى نجيب – كان يتخيل أنهما جاءا ليقولا لنجيب: أيها القائد.. أنت زعيم الشعب.

والحديث الذي دار كان حول موضوع نادي الضباط فقد كان ذلك الموضوع هو حديث الناس في ذلك الحين، ودار الحديث – كما قلت – حول التصرف الذي يمكن أن يحدث بعد حل مجلس إدارة النادي.. وقال جمال عبد الناصر:

– "إحنا عاوزين نرفع قضية أمام مجلس الدولة.. ومحتارين مين اللي يرفعها"

وقال جلال أنه مستعد أن يرفع القضية باعتباره ضابطاً على المعاش وعضواً في النادي..

ومضى جمال حتى نهاية الشوط فأخرج ستة جنيهات وأعطاها لجلال ندا كمصاريف للقضية.. ولم يتمكن جمال وعبد الحكيم من الانفراد بنجيب، وكان عليهما أن يتظاهرا أمام ندا وهيكل بأنهما ما جاءا إلا للاستفسار عن صحة نجيب..

وظلا جالسين فترة طويلة، والحديث يدور حول نفس الموضوع.. وحول القضية التي سيرفعها جلال ندا أمام مجلس الدولة.. وأخيراً لم يجد جمال وعبد الحكيم بدا من الانصراف.. دون أن يفاتحا "نجيب" في مسألة الثورة.. وهو كان لا يدري ماذا في رأسيهما.

وبعد تلك الزيارة – في ٢٠ يوليو – لمس جمال أنه ربما يكون من الخطر على الثورة الاتصال بنجيب مرة ثانية. إذ ربما أنه كان في ذلك الوقت موضوعاً تحت المراقبة.

وأمام هذا الخاطر قرر جمال الاتصال بنجيب بعد نجاح الخطة.. أي بعد القيام بالثورة.

أزمة النادي وأزمة الحكم:

وجاء يوم ٢١ يوليو.. ولم تكن الخطة التفصيلية قد فرغ منها بعد.

وأُجلت العملية من ليلة ٢١ – ٢٢ إلى ٢٢ – ٢٣ حتى يمكن استدعاء جميـــع الضباط الأحرار الذين لا زالوا في الأجازة، وكان كمال الدين حـــسين هـــو حلقـــة الاتصال معهم.. يبلغهم تطورات الموقف أولاً بأول.

فماذا حدث بعد ٢١ يوليو؟!

أي قبل الثورة بيومين اثنين؟!

إن نجيب لم يعرف. كان لا يزال ينتظر في منزله حل أزمة نادي الضباط، أما نحن فكنا ننتظر حل أزمة نظام الحكم.

أحداث الليلة الأولى

أحداث الليلة الأولى

تأجلت عملية قلب نظام الحكم من ليلة ٢١ – ٢٢ إلى ٢٢ – ٢٣ يوليو، حتى يمكن استدعاء جميع الضباط الأحرار الذين كانوا في الأجازة.

وكمال الدين حسين كان حلقة الاتصال بين التنظيم وبينهم، ليبلغهم تطورات الموقف أولاً بأول، بعد أن اتخذت الجمعية التأسيسية للضباط الأحرار قراراً ببدء الثورة..

وكنت قد قلت في مقال سابق أن جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ذهبا إلى بيت اللواء نجيب يوم ٢٠ يوليو، ليبلغاه – ولأول مرة – أن في الجيش تنظيماً سرياً له تشكيلات في جميع وحدات القوات المسلحة..

ثم ليبلغاه أيضاً أن هذا التنظيم السري الضخم قرر القيام بقلب نظام الحكم وأنه – أي التنظيم – قد اختاره ليكون قائداً للثورة وأن العملية ستبدأ بين لحظة وأخرى!

وفي بيت نجيب وجد الرفيقان زواراً عنده، فلم يتمكنا من أبلاغه هذه الحقائق ودار الحديث حول الموقف بعد حل مجلس إدارة نادي الضباط، وكان نجيب يجهل تماماً الغرض الذي جاء من أجله جمال وعبد الحكيم، كان يعتقد أنهما ما جاءا إلا لزيارته، ولتشجيعه – كالعادة – بعد أن حل مجلس إدارة نادي الضباط..

ومر الوقت والزوار مع نجيب، والرفيقان يتحدثان عن كل شيء ما عدا – الثورة – وقلب نظام الحكم..

ثم خرجا بعد أن أوهما الزوار ومحمد نجيب أيضاً أن كل ما يشغل بالهما هو رفع قضية في مجلس الدولة، لعدم شرعية حل مجلس نادي الضباط وتعيين مجلس جديد له..

وفي ذلك اليوم – ٢٠ يوليو – قرر جمال عدم الاتصال باللواء نجيب، لإبلاغه بأن الثورة ستقوم وأنه قائدها إلا بعد انتهاء العملية ونجاحها..

لقد قال جمال أن بيت نجيب ربما كان موضوعاً تحت المراقبة، بعد أن ظهر أمام السراي كخصم لحسين سرى عامر، وفي هذه الحالة يصبح الاتصال بنجيب قبل بدء العملية خطراً على الثورة.

الوزارة الخامسة والأخيرة!..

وبعد هذا أي في ٢٠ يوليو، تحدد موعد قيام الثورة نهائيا ليلة ٢٢ – ٢٣ يوليو، وصدر ذلك القرار بالموعد النهائي من أعضاء الجمعية التأسيسية الموجودين في القاهرة، ولم أكن موجوداً يومها في القاهرة وأيضاً صلاح سالم وجمال سالم فقد كنا في العريش ورفح..

وفي ذلك الوقت، عندما قررت القوات المسلحة قلب نظام الحكم في البلاد كان حسين سرى قد استقال مع وزارته، وهى الوزارة المشهورة التي كان كريم ثابت – باشا – وزيراً فيها..

ودارت المشاورات كالعادة لتأليف الوزارة الخامسة بعد حريق القاهرة..

وكانت حكومة حسين سرى في قبضة السماسرة والخدم، وكذلك كانت كل الوزارات التي تكونت بعد حريق القاهرة، لا يكاد أفرادها يستقرون على مقاعد الحكم حتى تتحرك أصبع سمسار أو خادم فيطيروا من فوق المقاعد كالدمى...

كيف يحكم الشعب؟

إن نظام الحكم في ذلك الوقت كان يتهاوى من تلقاء نفسه والبلاد معه..

والمسألة كانت: هل يحكم الشعب أم يحكم القصر عن طريق عملائه من أمثال كريم ثابت؟!

إن الشعب كان لا يحكم على الإطلاق فكانت الوزارات التي تتكون تبدو كحكومات لشعوب أخرى تعيش في بلاد أخرى غير مصر..

فكيف – إذن – كان يمكن أن يحكم الشعب والقوات المسلحة هي التي كانت قيادتها تحمى النظام نفسه؟!

كان حتماً – إذن – كما قلت في مقالاتي كلها أن يتخلى الجيش عن قيادته الخائنة المتآمرة مع القصر والإقطاع والاستعمار على الشعب..

تلك القيادة التي خضعت للقصر وحكومة الوفد أيام معارك القنال، فمنعت القوات المسلحة من خوض تلك المعارك جنباً إلى جنب مع أبناء البلاد على اختلافهم.

كيف ظهرت القيادة الجديدة؟

وكما قلت وسأقول دائماً أن الثورة المصرية كان عليها في عـام ١٩٥٢، أن تجد قيادة جديدة لها..

قيادة غير وفدية، لأن الوفد انسلخ من الشعب عندما ضمت قيادته الإقطاعيين..

وغير قيادة السعديين والأحرار الدستوريين الذين يمثلون مصالح الساسة الذين خلقهم الاستعمار والقصر والرجعية المصرية..

وغير قيادة الإخوان، لأن الإخوان أهدافهم هي استغلال الدين لمصالح الرجعيين..

هو الدين الذي تقف آياته في صف الشعوب لإحكامها..

أين - إذن - كان يمكن أن تظهر قيادة شعبية للثورة المصرية؟..

وفي أي صفوف بين هذه الملايين المصرية المستعبدة يمكن أن يخرج زعماء يولون وجوههم شطر الشعب ويعطون ظهورهم للاستعمار والقصر!

ليس هناك سوى القوات المسلحة كما قلت، فهي الصفوف التي تـضم ألـوف المصريين المسلحين..

والضباط والجنود الذين تضعهم تلك القوات ليسوا مرتبطين - بأية مـصالح - مع القصر والإقطاع وحاميهما الاستعمار!..

فقيادة الثورة المصرية تكون في هذه الحالة خاضعة لمصالح الشعب، ويمكـن أن تمضي في الطريق الذي يحقق تلك المصالح .

وكانت منشورات الضباط الأحرار تعلن أهداف تنظيمهم الضخم الذي يعمـل لقلب نظام الحكم في البلاد، وهي - أي المنشورات - كانت تحدد اتجاهات الشعب تماماً، في السياسة وفي الاجتماع، كانت المنشورات صدى لما يعتمل في صـدور الملايين المصرية!..

وفي كل صباح كانت تلك المنشورات تحمل أهداف القيـادة الجديـدة.. إلـى الشعب والجنود والضباط..

والضباط الأحرار كانوا قد انتشروا بالعشرات في جميع وحدات الجـيش، حتـى أن إدارة المخابرات وهي من أخطر أجهزة الجيش ولمنعها كان للضباط الأحرار أفراد فيها!

وأمام هذه الحقائق كلها تقرر قلب نظام الحكم بواسطة القوات المسلحة.. وتحـــددت – كما قلت – ليلة ٢٢ – ٢٣، للبدء في العملية.. لقد ظهرت القيادة الجديدة!

في مطار العريش:

وفى يوم ٢١ يوليو.. في ساعة مبكرة من الصباح كانت هناك طائرة تتجه من القاهرة إلى العريش.. وهى نفسها الطائرة التي تسافر إلى العريش عادة كل يوم – اثنين – لكن في هذه المرة كان حسن إبراهيم فيها، أرسله جمال عبد الناصر إلينا.. صلاح سالم وجمال سالم وأنا..

وكان جمال عبد الناصر قد اتصل بنا تليفونياً وأخطرنا بأن "حسن" في طريقه إلينا.. وفى مطار العريش كنت مع جمال سالم في انتظار الطائرة..

جاء حسن إبراهيم ليبلغنا أن الخطة الأساسية ستنفذ ما بين ٢٢ يوليو و ٥ أغسطس!

وطلب حسن منى أن أسافر على الفور إلى القاهرة لمقابلة جمال عبد الناصر..

وقال جمال سالم انه ما دامت الخطة ستنفذ خلال هذه الفترة، فأنه سيبقى فـــي العريش لينهى بعض الأعمال العاجلة، ثم يطير إلى القاهرة يوم الخميس..

وتركت حسن إبراهيم لأعود إلى رفح سريعاً، وأعددت حقائبي على الفور، ثم استأذنت من قائدي في السفر، بعد أن أخبرته أن والدتي مريـــضة جـــداً.. وكـــان القطار الذي يسافر إلى القاهرة يقوم في الصباح!

وفى صباح ٢٢ يوليو كنت جالساً في قطار القاهرة.

من السينما إلى المعركة:

وفى محطة القاهرة وكانت الساعة الرابعة والنصف بعد الظهـــر، رأيـــت أن أقضى السهرة مع أولادي في إحدى دور السينما الصيفية القريبـــة مـــن منزلنـــا.. اعتزمت هذا على أساس أنني سأتوجه في الصباح التالي لأقابل جمال عبد الناصر وأتلقى منه ما يخصني من أوامر لتنفيذ الخطة..

وكانت دار السينما تعرض – كالعادة – ثلاثة أفلام مرة واحدة.. وجلست مـــع الأولاد في السينما نتابع الروايات الثلاث..

وفى خلال تلك المدة كان جمال قد ذهب إلى منزلي بسيارته الاوستن المشهورة ولم يجدني، ولم يعرف البواب دار السينما التي ذهبنا إليها وعاد جمال يسأل مرة أخرى بعد ساعة فلما لم يجدني، ترك لي بطاقة مع البواب كتب عليها:

"المشروع ينفذ الليلة، المقابلة في بيت عبد الحكيم الساعة ١١.."

وجمال في تلك الليلة كان يلف بسيارته في جميع أنحاء القاهرة كالنحلة تماماً.. ليوزع الأوامر على الزملاء..

وما كاد البواب يناولني البطاقة بعد عودتنا من السينما حتى وجدت نفسي أقفز فوق درجات السلم إلى شقتي، تاركاً أولادي مذهولين مع البواب!..

وخلعت القميص والبنطلون، وارتديت ثيابي العسكرية، ثم ركبت سيارتي الخاصة الصغيرة وانطلقت بها..

إنني لم أجد أحداً في بيت عبد الحكيم عامر، فأين أذهب؟ كنت حائراً..!

الملازم الذي قبض عليّ!

لم أر بدا من التوجه إلى مبنى رياسة الجيش، لابد أن قواتنا قد اتجهت إليها ما دامت العملية قد بدأت، وكنت منطلقاً في شوارع القاهرة بأقصى سرعة تحتملها السيارة الصغيرة، وعند قشلاق العباسية أوقف أحد الضباط سيارتي ولما رأى رتبتي خاطبني بلهجة حاسمة ملينة بالحرم، بالرغم من إنه كان يوزباشي لكنه كان من الضباط الأحرار..

قال لي أن لا أذهب إلى وحدتي في الصباح وأن أكون في انتظار أوامر جديدة!

وعلمت أن تلك كانت صيغة الأمر الذي يبلغه الضباط الأحرار إلى جميع الضباط من رتبة بكباشي فما فوق!

وتابعت مسيري فوصلت إلى قشلاق السواري، وكان الطريق هناك مقفلاً، وتأكدت أن العملية بدأت فعلا وخاصة بعد أن سمعت أصوات مئات الطلقات وهى صادرة من ناحية مبنى القيادة..

وأردت أن أمر من "الكردون" الذي صنعته قواتنا، ولكن الضابط منعني، وكان صارماً جداً معي.. لانى لا أعرف كلمة السر..

كان موقفي رهيباً.. فبلا كلمة السر لن يسمح لي الضابط الصغير أن أمر من "الكردون" إلا على جثته! فكيف أتصرف معه؟!

كيف أقنعه أني من الأحرار.. كيف أدعه يتركني أخوض المعركة مع قواتنا..

لقد كنت أرى أشباحاً عديدة من بعيد.. إنها قواتنا تقلب نظام الحكم، وأنا واقف خلف "الكردون" والضابط الصغير يمنعني بل وبدأ يتحرش بى..

وامتلأت رأسي بمئات الخواطر.. ترى هل أصيب أحد من الزملاء.. ترى ماذا يصنع جمال الآن.. وأين عبد الحكيم.. أين الجميع وماذا صنعوا؟!

وعدت بسيارتى ثم اضطررت إلى اللف من فوق كوبرى القبة، لأمر من المدخل الثاني للكوبري الذي يواجه مستشفى الجيش..

وهناك وجدت الطريق مغلقاً أيضاً، ولكن ضابط "الكردون" كان يعرفني.. لمحت وجهه من بعيد فعرفته، إنه ملازم أول كان يعمل معي في رفح، وهو يعرفني شخصياً قضينا معاً وقتاً طويلاً في مكان واحد..

واقتربت من "الكردون" وقد استراحت أعصابي قليلاً.. أضاء الأمل في صدري.. سوف أمر إذن وأشترك في العملية!

وما كدت أقترب حتى سمعت صوت الملازم صديقي وهو يمنعني من الاقتراب.. ثم وهو يقترب منى ويرى وجهي.. لكن لا تظهر على وجهه علامات تبشر بالخير، فبالرغم من إنه عرفني إلا أنه كان لا يعلم أنى من الضباط الأحرار فألقى القبض علىّ في الحال..

وهنا شعرت بصدري يمتلئ بالضيق وبرأسي تكاد تنفجر، حاولت إفهامه دون جدوى، إن الصداقة التي تربط بيننا لم تشفع لي عنده في معركة الحياة أو الموت.. فلم يصدقني لأني لا أعرف كلمة السر ولم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل وزاد من هلعي أن أصوات الطلقات النارية من قريب ازدادت حدتها!

يا عبد الحكيم أنا أنور!!

وفجأة أضاء الأمل مرة ثانية صدري. وكنت مع الملازم صديقي الذي قبض علىّ فوق الكوبري، فسمعت صوتاً من بعيد يشبه صوت عبد الحكيم عامر.. واجتاحني شعور بالخلاص، كان الصوت القريب إلى نفسي يصدر تعليمات إلى

قوات كثيرة، ويحدد لها أماكنها.. وفى هذه اللحظة كانت العربات المحملة بـالجنود والضباط تمر من أمامي، إنها قواتنا بدأت تقلب نظام الحكم!

ووجدت نفسي أنادى بملء صوتي:

"يا عبد الحكيم.. يا عبد الحكيم.. أنا أنور!"

ورأيت شبح عبد الحكيم يقترب منا.. وهنا فقط أفرج عنى صديقي الضابط!

البطل الصامت!!

ومضيت مع عبد الحكيم.. لم يكن معي سلاح، وناولني عبد الحكيم طبنجـة.. وهو في تلك الليلة كان يحمل كل أنواع الأسلحة الصغيرة..

وبدأت أسأل عبد الحكيم في لهفة عن الموقف.. وكان صوت الطلقات لا يزال يدوى كالرعد من حولنا، وقال عبد الحكيم:

- "رئاسة الجيش سقطت.."

وصمت ثم عاد يرد على أسئلتي في هدوء عجيب..

قال لي:

- "الطلقات اللى أنت سامعها دى عملية تطهير لمبنى الرئاسة"!

ولم يقل لي عبد الحكيم في تلك اللحظة إنه هو الذي قاد معركة رئاسة الجيش، وأنه هو الذي احتلها بجنوده!

هو الذي قاد الجنود ثم تقدمهم واقتحم بهم المبنى وهو يحمل طبنجته.. تماماً مثلمـا فعل ذات يوم في فلسطين.. عندما تقدم وفى يده مسدس ومن خلفه عـساكره واقـتحم مستعمرة نيتساليم... وكان تصرفه ذاك أشبه بالأساطير التي ترويها لنا جداتنا...

ولولا أنه رقى إلى رتبة صاغ استثنائياً لما عرف أحد ماذا صـنعه يـوم نيتساليم.. إنه صامت على الدوام، لا يتكلم أبداً عن نفسه، وأعصابه تبدو كأنها في أعماق الجليد!!

لقد كان عبد الحكيم عامر دائماً باسلاً حاسماً يخوض معاركه بإيمـان راسـخ متين وأعصاب تبدو ساعة المعارك كأنها الفولاذ!

إنه في يوم نيتساليم بمسدسه وعساكره من خلفه.. وفي يوم رئاسة الجيش بمسدسه وعساكره من خلفه..

وفي يوم ٢٧ فبراير فيما بعد.. في عام ١٩٥٤ حين تدخل ببسالته وحسم الموقف، فمنع بجرأته قيام حرب أهلية كانت على وشك أن تقع بعد دقائق..

أقول في كل هذه المواقف كان عبد الحكيم بطلاً أسطورياً يحمل رأسه على كفيه وبإيمان لا يزعزعه رصاص أو ديناميت!

المخابرات تعرف الخطة:

وأعود إلى قصتنا.. إلى قصة سقوط رئاسة الجيش.. بمن فيها من قواد!!

في الساعة الحادية عشرة مساء يوم ٢٢ يوليو، توجه أحد ضباط المخابرات، اليوزباشي سعد توفيق وهو كان من الضباط الأحرار وأبلغ جمال عبد الناصر أن الخطة اكتشفتها رئاسة الجيش، وأن حسين فريد رئيس هيئة أركان حرب الجيش، قد دعا قواد الوحدات إلى مؤتمر عاجل في مبنى الرئاسة..

جمال كقائد..

وكان معنى ذلك أن الثورة لن تقوم.. بعد أن عرفت قيادة الجيش خطة الضباط الأحرار..

ولكن جمال عبد الناصر لم يتراجع.. إن العملية قد بدأت ولا سبيل إلى التقهقر، فلم يبق غير ساعة واحدة وتصل جميع قواتنا إلى مراكز تجمعها.. وتبدأ المعركة!!

أقول لم يتراجع جمال، بل قرر القبض على هؤلاء القواد الذين دعاهم حسين فريد للاجتماع في مبنى الرئاسة!!

وفي ذلك الوقت، وبعد كل التطورات كان اللواء محمد نجيب لا يزال في منزله.. لا يرى شيئاً ولا يسمع شيئاً!

كيف نجحت الثورة؟

شخصية جمال

بدأت الثورة إذن – واللواء نجيب لا يعلم..

وانطلقت رصاصات جنود عبد الحكيم عامر حول مبنى رئاسة الجيش وسقطت القلعة المنيعة في ثوان.. وبقوادها.

لقد كان بين الذين وقعوا في قبضة الثورة في لحظاتها الأولى رئيس هيئة أركان حرب الجيش بلحمه ودمه.!

لقد وفر لنا كشف المخابرات لخطتنا وقتاً طيباً، كما وفر علينا جهوداً ضخمة في نفس الوقت فبعد أن علم جمال عبد الناصر بأن المخابرات كشفت الخطة كان مفروضاً أن تقف جميع العمليات التي سيقوم بها الضباط الأحرار يوم ٢٢ يوليو.. أي تقف الثورة ويبقى النظام..!

وهنا تتضح شخصية جمال كقائد.. إنه لا يتراجع.. إنه يصمد.. يقرر هذا بعد أن علم باجتماع قواد الوحدات لمواجهة الثورة وإخمادها.. وبعد أن عرف هذا كله قرر القبض على هؤلاء القادة في مبنى رئاستهم، وبهذا يوفر التنظيم جهوداً ضخمة في الرجال والوقت كانت ستبذل للقبض على هؤلاء القواد في منازلهم.. كل على حدة!

لقد اصطاد جمال عصافير عديدة بحجر واحد.. أما الحجر فكان عبارة عن مجموعة من الجنود فوجئ جمال بهم ليلة الثورة وهم يتقدمون تحت رئاسة ضابطهم – اليوزباشي محمد شديد – نحو مراكز تجمع قوات الضباط الأحرار.. وظن جمال إن تلك القوة أوفدتها رئاسة الجيش كمقدمة للقوات التي ستحشدها لإخماد الثورة.!!

وتتضح الحقيقة.. ويعرف جمال أن اليوزباشي "شديد" جاء بتلك القوة التي تعمل تحت رئاسته من تلقاء نفسه، وبلا أوامر من أحد عندما علم بأنباء الثورة، فقرر أن يشترك بجنوده في المعركة قبل موعد بدئها بساعة.!!

وكانت تلك المفاجأة مكملة لمفاجأة كشف المخابرات للخطة، واجتماع قواد الجيش العاجل بدعوة من حسين فريد في مبنى الرئاسة.!

واتخذ قرار في الحال بعد وصول قوة الضابط شديد بأن تتوجه نفس القوة برئاسة عبد الحكيم عامر وتحتل مبنى رئاسة الجيش ثم تلقى القبض على القادة أثناء اجتماعهم العاجل.!

وفعلاً قام عبد الحكيم وهو يشهر مسدسه، وتقدم الجنود ثم اقتحم بهم مبنى الرئاسة وانتصر التنظيم في المعركة الأولى، وهي كانت أول معركة حاسمة، تكسبها الثورة.!

وقد قتل في تلك المعركة اثنان وجرح أربعة من الفريقين.!

مفيش حاجة:

كان كل واحد من الضباط الأحرار يحتل مكاناً معيناً في أرض العملية، وكل واحد كان عليه تنفيذ جزء من الخطة.. ولعل جمال عبد الناصر كان الوحيد الذي ليس له مكان يستقر فيه.. كان يطوف بأرض العملية كلها.!

وبعد أن سقطت رئاسة الجيش وقبض على رئيس هيئة أركان الحرب وقواده كان جمال قد انتهى من طوافه، واطمأن على نتائج الضربة الأولى فتوجه إلى مبنى رئاسة الجيش وجلس في المكتب.. ثم دق جرس التليفون بعد وصول جمال بقليل، وكان المتحدث هو اللواء عبد الله النجومي..

وسمع جمال النجومي يسأل عن حسين فريد رئيس هيئة أركان الحرب.. ورد عليه جمال بأن الباشا يقوم بجولة تفتيشية!

وسأل النجومي عن اسم من يتحدث إليه فقال له جمال إنه الضابط النوبتجي!

والنجومي كان يتحدث من الإسكندرية ليطمئن على الموقف.. وسمع جمال النجومي يقول له:

– حسين فريد وهوه بيكلمني من شوية سمعت ضرب نار والسكة انقطعت.

ورد عليه جمال في هدوء:

– لا.. مفيش حاجة أبداً!

رشاد مهنا مرة أخرى:

وفى الساعة الثانية من صباح ٢٣ يوليو بلغت من القاهرة إشارة - النجاح - المتفق عليها إلى جميع وحدات الجيش خارج القاهرة.. فلم تمض ساعة حتى كانت جميع وحدات القوات المسلحة يسيطر عليها الضباط الأحرار..

فقد كانت التعليمات تقضى بأنه بمجرد تبليغ إشارة النجاح يسيطر الضباط الأحرار على القوات في الحال..

وفى العريش ورفح كان صلاح سالم وجمال سالم قد سيطرا على جميع القوات هناك سيطرة كاملة.. بمن معهما من ضباط أحرار..

وفى تلك اللحظة وبعد أن سيطر جمال سالم وصلاح سالم على قوات العريش ورفح توجه جمال سالم إلى رشاد مهنا.. وكان وقتذاك في العريش كما سبق أن قلت، وطلب جمال سالم من رشاد مهنا أن يتولى قيادة لواء العريش وبالرغم من أن رشاداً كان قد عرف أنباء نجاح التنظيم في السيطرة على الجيش، إلا إنه تردد أيضاً في هذه المرة مثلما كان دائماً يفعل كلما اتصل به أحد من التنظيم ليطلب منه أن يشترك في العمليات!

وبعد أن رفض رشاد مهنا أن يتولى القيادة في العريش، طلب جمال سالم من صلاح حتاته - رئيس الدائرة الأولى لمحكمة الشعب فيما بعد - أن يتولاها وفعلاً تولى صلاح قيادة لواء العريش بدلاً من رشاد مهنا!

حقيقة تعلن لأول مرة.!

أين كان نجيب أثناء هذا كله.. وماذا كان يفعل.. والساعة كانت الثالثة من صباح ٢٣ يوليو.. وكل شيء كان قد تم بنجاح مذهل، وأقول كل شيء لأن قيادة الضباط الأحرار كانت تؤمن بأن السيطرة على القوات المسلحة بعد إبعاد قيادتها الخاضعة للملك هو الأساس في عملية قلب نظام الحكم!

وقد تم هذا فعلا في الساعة الثالثة من صباح ٢٣ يوليو.. وسيطر الضباط الأحرار على جميع قوات مصر المسلحة في القاهرة وخارج القاهرة في تلك الساعة!

فأين كان اللواء محمد نجيب... قائد الثورة؟!

أين كان في تلك الساعة.. بعد نجاح العملية الكبرى وبعد أن أصبح نظام الحكم بلا جيش يحميه.. ويذود عنه!

في الساعة الثالثة صباحاً من ٢٣ يوليو بدأ أول اتصال بين قيادة الجيش الجديد أعني الضباط الأحرار وبين محمد نجيب.. وهذه حقيقة تعلن على العالم لأول مرة!

وكان ذلك الاتصال عن طريق التليفون!

لقد دق جرس التليفون في رئاسة الجيش للمرة الثانية، ورفع جمال عبد الناصر السماعة. وظن أن المتحدث هو اللواء عبد الله النجومي أيضاً.. يريد أن يطمئنه حسين فريد على الحالة!

ولكن المتحدث في هذه المرة كان اللواء محمد نجيب.. وكان يتكلم من منزله.. وقال محمد نجيب بالحرف الواحد:

– المراغي اتصل بى من إسكندرية.. وقال لي روح هدى الحالة في رئاسة الجيش.. هيه أيه الحالة يا جمال!؟

وإني أنقل هنا ما كتبه اللواء محمد نجيب بنفسه في عدد الأهرام الصادر في ٢٣ يوليو عام ١٩٥٤ ونشرت الجريدة ما كتبه نجيب في صفحتها الأولى تحت عنوان.. قائد الثورة يسجل..

قال نجيب عن حديث المراغي معه بالحرف الواحد:

– دق جرس التليفون في منزلي، وإذا بالأستاذ مرتضى المراغي يكلمني من الإسكندرية ويقول لي: الأولاد بتوعك متجمهرين عند كوبرى القبة وعاملين دوشة.. قوم سكتهم أحسن مش راضيين يسمعوا كلام حد!

وقلت له: أنا ما عنديش أولاد ولا حاجة!

قال لي: فيه شوية ضباط متهورين عاملين دوشة..!

قلت له: أعرف منين الكلام ده، يمكن حد مدبر مكيدة ضدي علشان أروح وتمسكوني وتقولوا ده شريك معاهم..

فقال لي المراغي: أنا حا أجيب لك دولة الرئيس الهلالى باشا علشان يكلمك بنفسه ويعطيك عهد إن ما حدش يمسكك..

قلت له: وازاى أتحقق من شخصيتكم في التليفون؟!

ومرت لحظات، وإذا بالتليفون يدق من جديد، وكلمني الأستاذ نجيب الهلالي من الإسكندرية وقال لي:

- أنا أستاذك يا نجيب.. ومستقبل الوطن متوقف عليك، فأرجوك تعمل على تهدئة الحالة لأن الإنجليز سيحتلون مصر، وتبقى مسألة خطيرة.. فطمأنته وقلت له: "إني ذاهب لأرى الحالة بنفسي".

انتهى ما كتبه نجيب بنفسه في الأهرام عام ١٩٥٤.

والذي لم ينشره اللواء نجيب في الأهرام هو حقيقة ما فعله بعد اتصال المراغي والهلالي به ليلة ٢٢ يوليو.. إنه كان في منزله.. لا يرى شيئاً ولا يعلم شيئاً... ثم في الساعة الثالثة اتصل بجمال في مبنى القيادة - كما قلت - وبعد أن كان كل شيء قد تم وأصبح الجيش تحت سيطرة الضباط الأحرار!.

وقد رد جمال على سؤال نجيب بأن وضح له الموقف كله.. وأبلغه - لأول مرة - أن في الجيش تنظيماً اسمه تنظيم الضباط الأحرار، وإن قيادة ذلك التنظيم قد سيطرت - الآن - على جميع القوات المسلحة في جميع أنحاء البلاد!

قال جمال لنجيب بالحرف الواحد في تلك الساعة من صباح ٢٣ يوليو شارحاً له الحكاية:

- الضباط الأحرار قاموا بالثورة الليلة.. والثورة نجحت والمنطقة العسكرية محاصرة.. وإحنا عايزينك تيجى، حانبعتلك عربية تجيبك..

وهكذا عرف نجيب - لأول مرة - حكاية الضباط الأحرار!

وفى الساعة الخامسة صباحاً.. أي بعد ساعتين من معرفة نجيب لحكاية الثورة، وبعد أن عرف أن جمال يجلس - الآن - مع أعضاء القيادة الجديدة في مبنى رئاسة الجيش أقول في الساعة الخامسة وصل نجيب إلى مبنى رئاسة الجيش.. وفى هذا الوقت كان عبد الحكيم عامر جالساً يعد البيان الذي سيذاع على الشعب في الصباح من محطة الإذاعة..

وجلسنا جميعاً في مبنى القيادة نرقب شروق الشمس.. وكل شيء قد كلل بالنجاح الساحق، ولم نكن نتوقع النجاح بهذه الصورة السريعة الخاطفة!

القاهرة تستيقظ:

وأشرقت الشمس على القاهرة، ثم خرج الناس من منازلهم، وامتلأت شوارع المدينة الكبيرة بهم، وخرج أفراد منا إلى المدينة ليروا بأنفسهم مدى انعكاس الثورة على الشعب ثم بدأ الصحفيون يفدون إلى مبنى القيادة.. إن الشعب يؤيد ما حدث.. إن الشعب يعلن عن تأييده في كل شبر في البلد، الناس فرحون. كل الناس. فقد كانت فرصة العمر!!

صحيح أن الشعب فوجئ بما حدث، لكن المفاجأة أيقظت وعيه في الحال، فوقف إلى جانب القوات المسلحة لإيمانه بأنها ستتولى تصفية حسابه مع جلاديه!!

إن الذي كان يطوف بشوارع القاهرة في صباح ذلك اليوم التاريخي، كان يرى صوراً للشعب مليئة بالأمل والثقة!

إن بائع "الخروب" الذي وزع ما يحمله على الناس مجاناً في ميدان السيدة زينب، كان يعبر بتصرفه ذاك عن إيمان الشعب بما حدث، وأيضاً كان يعبر عن حاجة الشعب الملحة إلى قيام ثورة..

وغير بائع الخروب.. مئات من الصور الباهرة التي كانت تعكس في صدق كبير بهجة الشعب بما حدث في تلك الليلة.. بثورة القوات المسلحة من أجله!

وفى القاهرة كانت قيادة الثورة المصرية وليدة أحداث ٢٣ يوليو تستعد للمرحلة الثانية من الخطة الأساسية، وتلك الخطة كانت تعتمد على ثلاث مراحل:

الأولى: السيطرة على القوات المسلحة..

والثانية: السيطرة على البلد..

والثالثة: طرد الملك..

وفى الإسكندرية كانت حكومة البلاد والملك يترقبان ما سوف يجرى بعد ذلك في حيرة.. وربما كانت الحكومة والملك، بل وكل أعداء الشعب.. كانوا لا يتوقعون أن يمضي الجيش إلى أبعد من هذا.. لقد ظنوا أن المسألة لا تعدو طلبات يريد هؤلاء الضباط إجابتها، ثم ينتهي الإشكال..!

في أقل من ٢٤ ساعة..

وكنا نحن نعتقد أن تنفيذ المراحل الثلاث للخطة الأساسية، ربما استغرق وقتــاً طويلاً بعد بدء العملية..

لكن ما إن انتصف نهار ٢٣ يوليو حتى كانت الـسيطرة علـــى الجــيش قــد أصبحت مطلقة، بل إن الذي كان يرى حال البلد في منتصف نهار ذلك اليوم.. كان يقطع بأن الجيش قد سيطر عليها أيضاً!

وكان المظهر الضخم لهذه الحقيقة.. أي سيطرة قيادة الثورة على البلد.. يبدو مــن فرحة الناس بما حدث.. وتلك الفرحة كانت تكاد تقفز من وجه كل مواطن في الطريق!

تمت – إذن – مرحلتان من الخطة الأساسية في أقل من ٢٤ ساعة.. لقد كانت – فعلا – معجزة لم نتوقع أن تتم على الإطلاق في مثل هذا الوقت القصير جداً!.. ولم يبق أمامنا إلا المرحلة الثالثة.. طرد الملك!

ثم بعد ذلك نمضي في تحقيق أهداف الثورة المصرية...

طرد الملك فاروق

ثورة بلا ضحايا

انهارت القلاع واحدة وراء الأخرى في ساعات، وكانت الخطة الأساسية لقيادة الضباط الأحرار تتضمن ثلاث مراحل..

وكما قلت تمت مرحلتان من الثلاث بنجاح ساحق وفى ساعات..

وسيطر الضباط الأحرار على الجيش تماماً في صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢.

ثم سيطرت قيادتهم على البلد نفسها في اليوم نفسه، فقد كان الشعب يترقب تلك الفرصة، وهى كانت فرصة العمر كما قلت أمس، وما كاد يسمع البيان الذي أعدته قيادة الضباط الأحرار من الراديو حتى وقف وراء القوات المسلحة مؤيداً ومنفذاً لتوجيهات قيادتها الجديدة، فلم يقع حادث تخريب واحد، ولم تحدث فتنة..

لم يجد أعداء الشعب فرصة لإحداث شغب يعطل تنفيذ المرحلة الثانية من الخطة، وهى السيطرة على البلد..

لقد استيقظ وعى الشعب في الحال بالرغم من إنه فوجئ بما حدث في ذلك اليوم، وكان ذلك الوعي هو المظهر الحقيقي القوى لسيطرة قيادة الضباط الأحرار على البلد. وكان معنى وقوف الشعب وراء أحداث ٢٣ يوليو هو أن الشعب يريد ثورة... يريد الخلاص..!

وكل شيء كان هادئاً في البلاد.. لا دم ولا بارود... لا قتلى ولا جرحى.. لم تنسف مدينة ولم تتزلزل الأرض تحت أقدام الناس..!

إنها كانت ثورة عجيبة لم تشهد بلد من بلاد العالم التي تحررت مثيلا لها..

كل ثورة كان لها ضحايا يعدون بالألوف وبالملايين إلا ثورة مصر..!!

كل ثورة كان لا يمكن أن تتقدم خطوة إلا إذا فتكت طبقة بأخرى فتمضى في طريقها فوق الأشلاء والدم والأنقاض.. إلا ثورة مصر..

كل ثورة كانت تنسف وتدمر وتقتل وتشيع الموت حيث تكون إلا ثورة مصر..!

إن كل شيء كان هادئا في مصر يوم الثورة..

لم يكن في مصر غير الفرحة والآمال التي سطعت في الصدور..

لم يخسر الشعب نقطة دم واحدة يوم ٢٣ يوليو، وبالرغم من هذا مضت عملية تغيير نظام الحكم في طريقها بنجاح وسرعة مذهلة، لا تكاد تصدق!

فهل حدثت تلك المعجزة التاريخية الكبرى لأن الثورة المصرية ليس لها أعداء..!؟

لا أحد يمكنه أن يزعم هذا، فلم توجد الثورة التي لا أعداء لها..

فكيف إذن لم تحدث مجزرة..؟

كيف لم تغرق الدماء الشوارع وكيف لم يقتل مواطن واحد من أبناء البلاد، الذين يريدون التحرر..!؟

كل مواطن كان يجلس في بيته وفى عمله أو في المقهى.. كل الشعب كان هادئا ساكناً ونظام الحكم يشهد أخطر تطور منذ ثلاثة آلاف سنة..!

فما هو السر؟.. لماذا تكون الثورة المصرية هي وحدها التي تتم هكذا في هدوء، وبلا مجازر في الشوارع وفى الحقول؟

لماذا أخذت الثورة المصرية هذا الشكل السلمي العجيب؟

إنني هنا أقول مرة أخرى إن السبب في هذا هو أن أعداء الثورة المصرية كانوا يحكمون الشعب بواسطة القوات المسلحة، ثم فجأة ثارت القوات المسلحة على هؤلاء الأعداء بعد أن أصبح لتلك القوات قيادة جديدة..

فكان على هؤلاء الأعداء أن يستسلموا أو يبادوا، فلا قوة هناك يمكنها أن تحميهم.. لم يعد معهم جيش ولا شعب!

هكذا بدأت عملية تغيير نظام الحكم، وهكذا مضت في طريقها بعد ٢٣ يوليو!

أبواب التاريخ:

قلت لم يبق بعد السيطرة على الجيش والبلاد إلا مرحلة واحدة، ثم تبدأ الثورة المصرية تحقق أهدافها، لم يبق إلا طرد الملك...

وجلسنا في مبنى القيادة، بعد أن أعد عبد الحكيم البيان الذي سيذاع على الشعب في صباح ٢٣ يوليو وكنا في تلك اللحظات قد اطمأنت قلوبنا على الحالة تماماً، وكان اللواء نجيب قد عرف أن الجيش قام بثورة بعد أن سأل جمال عن الحكاية فرواها له، وأخبره أن الضباط الأحرار قد سيطروا على الجيش، ثم طلب منه أن يحضر فورا إلى مبنى الرئاسة وأرسل له سيارة لتعود به..

وفى اللحظة الأولى التي وطئت أقدامه فيها مبنى رئاسة الجيش كانت أبواب التاريخ كلها قد فتحت على مصاريعها أمامه.. كان قد أصبح زعيماً، وهو الذي كان لا يعلم..

كان قبل حضوره بلحظات يسأل جمال عن الحكاية، لأن المراغى طلب منه تهدئة – الأولاد – الذين عملوا "دوشة" عند كوبرى القبة!

مناورة قبل طرد الملك:

كانت خطتنا تقضى بأن نقوم بمناورة مع الملك، حتى نطمئن إلى أنه ليس هناك تدخل أجنبي يهدد مصالح البلاد وبعد أن نطمئن ننقض على صاحب الجلالة ونطرده..

وجلسنا نتكلم، وكان موضوع الحديث يدور حول رئاسة الحكومة، أو بعبارة أدق حول الرجل الذي نريد فرضه على الملك كرئيس لمجلس الوزراء، وكان نجيب لا يزال في منزله.. لم يحضر إلينا بعد. فهو قد حضر كما قلت في الساعة الخامسة صباحاً..

واستعرضنا أسماء رجال السياسة الذين يمكن أن نفرضهم على الملك رغماً عنه!

ولم نكن نريد على الإطلاق واحداً من رجال الأحزاب، مهما كان موقفه من القصر، لأننا أردنا ألا نطبع ثورتنا بطابع حزب معين له مصالح تتعارض مع مصالح الشعب.. فالمسألة كما قلت كانت عملية تغيير كامل لنظام الحكم، ولم تكن مسألة حكومة من الحكومات!..

ورأينا أن على ماهر هو الرجل الوحيد الذي لا ينتمي لحزب من الأحزاب، وهو كان رئيس الحكومة التي تولت زمام الأمور بعد ٢٦ يناير المشهور!

وبدأنا نعد تفاصيل المناورة قبل الانقضاض على الملك..

على ماهر رئيس مجلس الوزراء بدلاً من الهلالي الذي كان موجوداً في الحكم حينئذ، فإذا خضع الملك لرأينا وجاء بعلي ماهر يمكن بعد ذلك أن نبعث بـه إلـى الملك يحمل طلبات لنا – كما تقضي المناورة – فإذا رفض الملك طلباتنا كان ذلـك إيذانا ببدء المعركة معه!

وبعد أن انتهينا من هذه المسألة فتح باب الحجرة ودخل اللواء نجيب.. قائد الثورة..

البحث عن عنوان على ماهر:

وفي الساعة التاسعة من صباح ٢٣ يوليو اتصل نجيب الهلالي بنا مرة ثانيـة، وحاول أن يتفاهم، وتحدث إليه محمد نجيب وكنا من حول نجيب نهمس في أذنـه بما يجب أن يقوله للهلالي..

وانتهت المحادثة ولم ينجح الهلالي في إقناعنا بشيء..

ثم كلفني الزملاء بالاتصال بعلي ماهر لنبدأ المناورة ثم تتم المرحلة الثالثة من خطة التنظيم.. أي طرد الملك..

ولم أكن أعرف عنوان منزل على ماهر ولا أحد في الحجـرة كـان يعـرف العنوان أيضاً.. وكان الصحفيون يفدون منذ الصباح المبكر على مبنـى القيـادة.. وفي هذه اللحظة التي كنا فيها نبحث عن عنوان منزل على مـاهر دخـل علينـا الأستاذ إحسان عبد القدوس، وسألته على الفور هل يعرف منـزل علـى مـاهر، ورحب إحسان بتوصيلي إلى المنزل.. وقمت معه على الفور..

هل هذه طائراتكم؟

وصعدنا إلى الدور الثاني في المنزل، وجلسنا في الشرفة في انتظـار علـى ماهر. وجاء على ماهر، وقبل أن يجلس قال لي إن عنـده فـي البيـت – الآن – الأستاذ أدجار جلاد فهل يأتي به ليحضر المقابلة، فقلت له:

– لا. ما يجيش.. عايزين نقعد وحدنا..

وبدأت أتحدث إليه عن مهمتي... قلت له أنني موفد من القيادة لكي يؤلف الوزارة..

وخيم الصمت علينا فترة قصيرة.. وانتظرت رد على ماهر.. ولكني شـعرت أنه يريد أن يسمع كلاماً أكثر، وفي هذه اللحظة بالذات مرت أربع طـائرات مـن

ذوات الأربع محركات فوق رؤوسنا، على ارتفاع قليل لدرجة أن أصواتها غطت على حديثنا فسكتنا إلى أن ابتعدت، وهنا التفت على ماهر وسألني:

– الطيارات دى بتاعتكم؟

وأجبته مبتسماً لأطمئنه:

– نعم، والقوات المسلحة كلها لا تخضع إلا لقيادتنا اليوم...

ومضيت أتحدث إلى على ماهر بصراحة.. تكلمت عن الفساد وعن الأوضاع الغريبة التي تمر بها البلاد، وعن الملك وتصرفاته الشاذة.. (وهنا شعرت بقدم إحسان عبد القدوس تدوس على قدمي.. وبدأ إحسان يزغدنى خلسة حتى لا أستمر في الحديث بهذه الصراحة).

لكنى لم أتوقف. ومضيت أتكلم بصراحة أكثر، حتى يفهم على ماهر وجهة نظر القيادة.. ثم عدت أقول لعلى ماهر أن القيادة تكلفه بتأليف الوزارة..

وقال على ماهر:

– أنا مستعد أتعاون، بشرط أن يكلفني الملك بتأليف الوزارة!

وقلت له:

– تقدر تعتبر نفسك من دلوقت مكلفاً بتأليف الوزارة، فجهز نفسك من الآن..

ثم قلت له وأنا أهم بالانصراف:

– فيه طلبات الجيش عايز من الملك ينفذها فوراً..

وقبل أن أنصرف قال على ماهر:

– الزيارة دى ستبلغ للملك.. وأظن من الأحسن أبلغها أنا دلوقت لادجار جلاد وهوه موجود عندي!

وقلت له:

– تقدر تقول اللي تحب تقوله.. إحنا بنشتغل دلوقت على المكشوف. وعلى فكرة نجيب الهلالى اتصل بنا النهارده وعرف إننا رفضنا بقاءه في الوزارة.. ولابد إنه بلغ رأينا للملك..

.. ثم غادرت منزل على ماهر إلى القيادة.

لقد بدأت المناورة مع الملك...

وجاء عم ناريمان:

وجلست أروى تفاصيل ما دار بيني وبين على ماهر للزملاء.. ثم جاء من يخبرنا أن مصطفى صادق عم ناريمان يريد مقابلة أحد من القيادة..

لقد جاء مصطفى صادق ليعرض علينا تعيين اللواء نجيب وزيراً للحربية..

وقال لنا مصطفى صادق أيضاً إنه ما علينا بعد تعيين نجيب وزيراً للحربية إلا أن نذهب إلى قصر رأس التين ونقيد أسماءنا في سجل التشريفات ثم ينتهي الإشكال!

وفوجئ مصطفى صادق برفض العرض الذي حمله إياه فاروق.. وقلنا له إنه لابد أن يؤلف على ماهر الوزارة بلا مناقشات أو أخذ ورد..

ثم قلنا له ونحن نشيعه إلى الباب أن على ماهر سيحمل طلبات أخرى لنا إلى جلالة الملك..

وخرج عم ناريمان بعد فشله في مهمته..

وكان البيان الذي أذعناه إكمالا لخطوات "المناورة" لا يتضمن سوى أن الجيش قام بحركته لتطهير صفوفه.. أي أن الحركة مقصورة على الجيش فقط..

كانت المناورة متشعبة وكان لابد لنا أن نأخذ حذرنا..

ومن أجل هذا لم نكشف كل أوراقنا يوم ٢٣ يوليو.

الملك يطلب منا تأليف الوزارة:

وبعد ظهر ٢٣ يوليو جاء عم ناريمان إلى القيادة مرة ثانية، وكان يحمل عرضاً جديداً من الملك..

قال لنا أن جلالة الملك يعرض علينا نحن أن نؤلف الوزارة..

وشعرنا بسخف الاقتراح، إلى حد إننا لم نحتمل وجود عم ناريمان معنا في الحجرة فطردناه منها.. بدلاً من توديعه كما فعلنا معه في المرة الأولى..

ثم جلسنا نسخر من ذلك العرض العجيب، وشعرنا في تلك اللحظة أن المناورة بدأت تنجح..

وقد اتصل بنا على ماهر بعد خروج مصطفى صادق بقليل، وقال لنا إنه تلقى الأمر بتشكيل الوزارة..

ثم قال أيضاً أن الملك طلب إليه أن يسافر في الحال إلى الإسكندرية، وإنه – أي على ماهر – يريد مقابلتنا قبل أن يسافر، ليعرف وجهة نظرنا تماماً، ثم يحمل طلباتنا بعد ذلك ليبلغها إلى صاحب الجلالة..

وقال على ماهر أن الملك قلق جداً ويريد أن يراه سريعاً لكي يطمئنه.

جرشكل الملك:

لقد كانت المسألة في نظر الملك.. بل وفى نظر جميع الساسة المصريين في ذلك اليوم هي إننا نريد تطهير الجيش فقط من الخونة والأذناب.. كانوا يعتقدون أنها أزمة لا تلبث أن تحل، ثم تعود المياه إلى مجاريها.. يبقى الملك على عرشه ويبقى الجميع في أماكنهم.. والشعب أيضاً..

لقد كانت المناورة في بدايتها..

كنا نجلس في مبنى القيادة نعد خطة خلع الملك، والملك في الإسكندرية ينتظر وصول على ماهر إليه ليطمئنه بعد أن تحل الأزمة بإجابتنا إلى طلباتنا..

قد حددنا لعلى ماهر الساعة الخامسة والنصف من مساء ذلك اليوم لنقابله في منزله ونسلمه طلبات الجيش.. ثم بعد ذلك يسافر إلى الإسكندرية ليطمئن صاحب الجلالة..

وفى الموعد المحدد خرجنا من مقر القيادة.. جمال عبد الناصر ومحمد نجيب وأنا، وتوجهنا إلى منزل على ماهر وإكمالا للمناورة سلمنا على ماهر عريضة دونت فيها طلبات الجيش..

إنني أذكر إننا وقعنا في ورطة عندما قال لنا على ماهر قبل أن نقابله أن الملك في انتظار طلباتنا.. فلم تكن في رؤوسنا طلبات معينة، إن الشيء الوحيد الذي يملأ رأس كل فرد منا هو مسألة تغيير نظام الحكم.. أما طلبات الجيش من صاحب الجلالة فذلك شيء لم يخطر على بالنا إطلاقاً..

إن الأحوال في ٢٣ يوليو كانت تترى بسرعة فائقة.. لم نكن قد أعددنا أنفسنا لهذه الظاهرة العجيبة.. للسرعة الفائقة..

وأذكر أننا جلسنا نكتب طلبات على الورق كيفما اتفق.. كان لابد أن نمضي في مناورتنا مع الملك إلى نهاية الشوط قبل أن ننقض عليه لنسقطه عن عرشه..

واتفقنا – بعد جهد – على أن تكون الطلبات التي سيتقدم بها على ماهر إلى صاحب الجلالة أساسها طرد الحاشية، فقد كنا نعرف أن الملك سيرفض هذا الطلب، وبهذا نكون قد نجحنا في جر شكله، فتبدأ بعد ذلك عملية طرده..

وهكذا كتبنا طلبات من الشرق والغرب على الورق، كان أساسها كما قلت طرد الحاشية..

وبعد أن قابلنا على ماهر في الساعة الخامسة سلمه جمال عبد الناصر تلك الطلبات، واستعد على ماهر للسفر على الفور، فطلبنا منه أن يخطرنا من الإسكندرية بالنتيجة، وقال له جمال أن المسئولية ستقع على الملك إذا لم تجب كل هذه الطلبات في الحال..

وخرجنا من منزل على ماهر بعد أن تمنينا له سفراً سعيدا.. خرجنا ليبدأ جمال عبد الناصر وزكريا محيى الدين في وضع تفاصيل خطة طرد فاروق، وتجهيز القوات اللازمة للسيطرة على الإسكندرية وتأمينها..

تحرك القوات إلى الإسكندرية

قطعنا - في المناورة - مع الملك شوطاً بعيداً.. سافر علي ماهر إلى الإسكندرية يحمل طلباتنا إلى صاحب الجلالة، وبعد أن أكد له جمال أن المسئولية ستقع على الملك في حالة عدم إجابته الطلبات كلها!

كنا نريد جر شكل صاحب الجلالة لكي نبدأ في إسقاطه عن عرشه وبذلك تتم المرحلة الثالثة من الخطة الأساسية..

وقد عدنا من منزل على ماهر في مساء ذلك اليوم (٢٣ يوليو) إلى مقر القيادة في كوبرى القبة لنرقب الأحداث..

واللواء نجيب كان يجلس بيننا لا يدرى ماذا في رؤوسنا..

كنا لا نشك فيه، ونعتبره واحداً منا وخاصة بعد أن فرضناه قائداً عاما للقوات المسلحة، وكان هذا العرض من بين الطلبات التي أرسلناها لفاروق..

وصحيح إنه لم يكن بيننا أحد قد أكتشف حقيقته بعد، فهو يجلس بيننا كأنه فرد منا، وكنا نحن نحاول قدر ما نستطيع إفهامه بأنه القائد والزعيم وصانع كل هذه الأحداث التاريخية.. كنا قد قررنا أن نفنى جميعاً في شخصه..

قررنا أن نجعل منه زعيماً لهذا الشعب يقوده في معاركه القادمة ضد جميع أعدائه.. أما نحن فقد اعتبرنا أنفسنا جنوداً في ثورة نجيب..!

وانقضى يوم ٢٣ يوليو، وجاء يوم الثورة الثاني، وكنا لا نزال على مقاعدنا في مقر القيادة لم ننم ولم نسترح، والعرق يغرق ثيابنا فالحر كان شديداً.. لكننا لم نشعر بالإرهاق على الإطلاق. كنا نعرف ان أمامنا ليالي أخرى سوف نقضيها ساهرين على مقاعدنا، وربما في الشوارع وفي الحقول مع الشعب نخوض معركة دموية من أجل مصائر الملايين..

لم نكن نعرف - بالتحديد - ماذا سوف يحدث لنا في اليوم الثاني للثورة، لأن الأحداث كما قلت كانت تترى بسرعة فائقة لم نتوقعها، والقلاع كانت تتساقط من تلقاء نفسها..

كل الذي كنا نعرفه إننا قد سيطرنا على القوات المسلحة وعلى البلد..

وبعد ذلك لتأت الأحداث بما تشاء من مفاجآت، فقد كنا على ثقة من أن عملية تغيير نظام الحكم ستتم اليوم أو غداً أو بعد شهر.. حتى لو ظهرت في الأفق بوادر تدخل جهات أجنبية فقد كان كل واحد منا قد أعد نفسه قبل أن يغادر بيتـه وأولاده لمعركة سيخوضها.. وربما مات وربما فقد ذراعا.. المهم إننا جميعـا كنـا علـى استعداد للنزول إلى الشوارع والحقول وخوض حرب مدمرة ضد جميع الأعداء لو فكروا في الوقوف أمام الثورة.

جمال يأمر بتحرك القوات..

ووصل على ماهر إلى الإسكندرية وقابل صاحب الجلالة على الفور وقدم لـه طلباتنا، وفي صباح اليوم التالي للثورة – يوم الخميس ٢٤ يوليو – اتصل بنا على ماهر من الإسكندرية وقال إن صاحب الجلالة قد وافق على جميع طلباتنا!

وطلب على ماهر أن نوفد إليه أحد أعضاء القيادة إلـى الإسـكندرية ليخبـره بالتفاصيل، ووقع الاختيار عليّ لأقوم بهذه المهمة...

وحتى ذلك الوقت كان على ماهر لا يعرف ماذا نهدف إليه بالتحديـد. كـان يعتقد حتى صباح الخميس ٢٤ يوليو أن الأزمة انتهت بعد أن قبل الملك طلباتنـا.. والمياه ستعود إلى مجاريها قطعاً، وخاصة وأن الملك قبل أفدح تلك الطلبات بالنسبة له.. وهو طلب إبعاد الحاشية!

وإن كان قد قال لعلى ماهر أنهم – أي أفراد الحاشية – كأهل منزلـي فكيـف يتدخل الجيش في شئون بيتي!؟

على ماهر – إذن – ظن أن الأزمة انتهت بعد أن تحدث إلينا بالتليفون، وأبلغنا بموافقة صاحب الجلالة على طلباتنا.

ولم يكن يعرف – مثلاً – أنه بعد أن غادر القاهرة في اليوم السابق.. أي فـي مساء ٢٣ يوليو لم يضع جمال عبد الناصر دقيقة واحدة، فجلس ومعه زكريا محيى الدين – وكان في ذلك الوقت مديراً للعمليات – وبدأ الاثنان يدرسان الموقف فـي الإسكندرية واحتياجات عملية طرد الملك..!

درست في تلك الليلة كل الاحتمالات..

كما أعدت في نفس الليلة خطة السيطرة على الإسكندرية وتأمين مرافقها..

وانتهت الدراسة قبل أن يتصل على ماهر بنا في صباح الخميس (٢٤يوليو)..

وأصدر جمال أمراً بتحريك قوة إلى الثغر.. وكانت القوة التي أمر جمال بتحريكها لإسقاط الملك وطرده عبارة عن لواء مشاة وآلاى دبابات لتأمين المدينة واعتبرت مدفعية قواتنا في الإسكندرية ضمن القوة التي ستقوم بتنفيذ المرحلة الثالثة من الخطة.. طرد الملك.

على ماهر يسأل.. ما الداعي لهذا؟!!

وبالرغم من أن اللواء محمد نجيب كان يجلس معنا في حجرة واحدة، بل وحول مكتب واحد في ذلك اليوم، إلا إنه كان لا يشترك مع أحد في إعداد أي شيء، فكل الخطط كانت معدة قبل أن يأتي إلينا وقبل أن يعرف أنه زعيم الشعب!

وحتى التفاصيل كان يعدها جمال والزملاء وهم من حول نجيب يبتسمون له في احترام وثقة وهو صامت يترقب الأحداث!

وقد تحركت من القاهرة القوة التي ستسقط الملك في ليلة ٢٤ يوليو.. أي في نفس اليوم الذي قبل فيه الملك كل طلباتنا!!

وقد فوجئ على ماهر والملك بهذا الذي حدث.. فوجئا بالطابور المسلح يدخل الإسكندرية. وكانا قد اعتقدا أن المياه ستعود إلى مجاريها بعد أن قبلت الطلبات!!

وقوبل ذلك الطابور المسلح من الشعب في الإسكندرية بالتهليل والهتاف الذي شق عنان السماء..

وكما حدث في القاهرة صباح ٢٣ يوليو حدث في الإسكندرية..

التف الشعب حول القوات المسلحة يؤيدها ويحتضن أفرادها، ويجري خلف المصفحات في الشوارع بعد أن غمرته الفرحة..

وبعد أن أخذت قواتنا في الثغر أماكنها طبقاً للخطة، اتصل بنا على ماهر مرة أخرى بالتليفون ليسألنا:

- ما هو الغرض من وصول تلك القوات.. ألم يوافق الملك على جميع طلباتكم؟!

وأردف على ماهر يقول في التليفون:

- إن الملك قلق جداً منذ وصلت تلك القوات.. ويسأل ما هو الداعي لهذا، بعد أن أجابكم إلى ما تريدون؟!

وقلنا لعلى ماهر:

- لا شيء.. لا شيء بالمرة.. طمئن مولانا وقل له إن هذه القوات أرسلناها لتأمين الإسكندرية، ومنع الاضطرابات والحوادث!!..

نجيب يطلب السفر معي...

وبقى التنفيذ..

متى تبدأ العملية؟!

إن قواتنا في الإسكندرية، وقد اتخذت أماكنها والشعب من حولنا يؤيدها ويهتف لأفرادها من الأعماق، لا اضطرابات ولا حوادث..

كل شيء كان هادئاً في المدينة تماماً مثلما كانت القاهرة يوم ٢٣ يوليو..

وكان جمال قد كلفني – كما قلت – بالسفر إلى الإسكندرية بعد أن تحدث إلينا على ماهر من هناك ليخبرنا بأن الملك وافق على الطلبات، ثم طلب أن يسافر أحدنا إليه ليخبره بالتفاصيل..

وطلب جمال مني أن أؤجل سفري إلى صباح الجمعة – ٢٥ يوليو – حتى تكون قواتنا قد وصلت واحتلت أماكنها..

وقررنا عزل الملك يوم ٢٥ يوليو..

وفى صباح الجمعة – ٢٥ يوليو – طلب محمد نجيب أن يسافر معي إلى الإسكندرية، وكنا قد اتفقنا مع على ماهر على إنني أنا الذي سأقابله وحدي، فرفضنا طلب محمد نجيب، لكنه ألح علينا بشدة لكي يسافر معي!

فوافقنا بعد أن لمسنا مدى تمسكه بتلك الرغبة، وبشرط ألا يحضر معي مقابلة على ماهر ساعة الوصول، وإنما يذهب لمقابلة على ماهر بعد الظهر، وهو يحمل الإنذار التاريخي المشهور، الموجه إلى الملك والذي نطلب منه فيه أن يتنازل عن العرش ويغادر البلاد..

جمال قال لي..

وكان عليّ أن أغادر القيادة إلى المطار.. وقبل أن أغادر المبنى أخذني جمال عبد الناصر إلى ركن من الردهة وكان وجهه قد اكتسى بذلك الطابع المعروف عنه ساعة أن يقرر أمراً.. الصلابة والعزم القوي والإصرار التام.. وكانت في يده سيجارة وقال لي وهو ينفخ دخان سيجارته ورأسه يتحرك قليلاً إلى الأمام كعادته:

- شوف يا أنور.. لازم نخلص من فاروق النهاردة أو بكره بالكثير.. لأن الموقف ما عدش يحتمل!

ونظرت إلى وجه جمال وهو يكلمني، وعرفت إنه يتحتم فعلاً الخلاص من فاروق بأية صورة اليوم – الجمعة – أو غداً.. إن جمال لا يلقي الكلام جزافاً.. فهو لا يقرر أمراً إلا إذا عرف أن لا مناص منه حتى لا تحدث كارثة!

اليوم أو غداً.. لابد أن يطرد فاروق.. فقد كانت المشاكل قد بدأت تطل علينا في اليومين الماضيين.. والموقف لا يحتمل وجودها!

كانت مشاكل تهدد وحدتنا وتماسكنا.. ونحن لم نخلقها.. بل خلقها واحد لم نكن نتوقع على الإطلاق أن يظهر بيننا في اليومين المذكورين.. إنه رشاد مهنا!!

زوبعة على أبواب القيادة!

كان رشاد في العريش كما سبق أن ذكرت ذلك في حينه.. وكان قد رفض أن يتولى قيادة لواء العريش عندما طلب منه ذلك جمال سالم.. وتخلى عنا أيضاً كعادته حتى بعد أن عرف الحقيقة كلها.. بعد أن عرف أن الضباط الأحرار قد سيطروا على الجيش تماماً.. في ليلة الثورة الأولى، وبعد أن وصلت إلى العريش إشارة النجاح!

وعندما عرف أن الضباط الأحرار نجحوا تماماً وإنه سوف لا يكون له مكان الإطلاق بينهم، وخاصة وأن جمال سالم كلف صلاح حتاتة بقيادة لواء العريش.. أقول بعد أن عرف رشاد أن الثورة نجحت بدونه، جاء إلى القاهرة بلا إذن وتوجه من فوره إلى سلاح المدفعية، وهو كان يتبع له، وكان ضباط السلاح لا يعرفون شيئاً عن موقفه ليلة الثورة كانوا لا يعلمون إنه رفض التعاون ورفض أن يشترك في العملية.. وظن ضباط السلاح أن رشاد مهنا هو أحد أقطاب الثورة.. وربما ظنوا أنه هو الذي قاد لواء العريش وسيطر عليه!!

لهذا قابلوه بالهتاف ورحبوا به وحملوه على الأعناق.. ثم أركبوه سيارة وتقدموا السيارة بالموتوسيكلات، وجاءوا إلى القيادة بالبطل!!

ورأينا موكب رشاد مهنا يدخل من باب القيادة.. وأمامه راكبو الموتوسيكلات.. وكانت مفاجأة.. شعرنا على الفور أن زوبعة على الأبواب!

وكنا لا نستطيع أن نقول لضباط المدفعية أن هذا الرجل ليس واحداً منكم.. لم يشترك معكم في عمل.. إنه رفض أن يعاونكم..

كان الموقف – إذن – حرجاً للغاية ولا يحتمل أية خلافات.. فالملك لا يزال في البلاد..

تلك كانت إحدى المشاكل التي أطلت علينا في اليومين الماضيين. وقررنا أن نلتزم الصمت حيالها لأن الموقف كما قلت كان لا يحتمل أية خلافات، ومعركة فاروق على وشك أن تقع..

أما المشكلة الثانية، فقد كانت لا تقل خطورة عن مشكلة وجود رشاد مهنا..

أعنى مشكلة الخلافات..

الإنجليز في القاهرة

فقد كان هناك أناس في البلد دفعهم الحرص الشديد، وخوفهم الشديد في يوم الثورة الأول وفى يومها الثاني إلى أن يجيئوا إلينا ليقولوا:

– فاروق اتصل بفايد.. إنجليز في طريقهم إلى القاهرة..

وأقوال أخرى كان مصدرها الرعب والفزع مما سوف يقع..

وكنا نعرف أن هؤلاء الناس جبناء تفزعهم المعارك... كنا نعرف أن ما يقولونه ليس صحيحاً.. إلا إننا كنا قد قررنا أن نعد أنفسنا لكل الاحتمالات.. وأسوأها..

لهذا كانت طائرات سلاح الطيران المصري طوال أيام ٢٣، ٢٤، ٢٥يوليو دائمة الحركة والاستكشاف فوق المناطق التي يحتمل أن يزحف منها الإنجليز على القاهرة.. إذا فكروا في التدخل..

وكانت تقارير سلاح الطيران تصل إلينا في مبنى القيادة ساعة بساعة..

تلك كانت المشاكل التي رأينا أن وجود فاروق يوماً أو يومين آخرين سيضاعفها.

يا باشا.. قررنا عزل الملك!!

وأعود إلى الموضوع.. فبعد أن كلمني جمال قبل مغادرتي القيادة إلى الإسكندرية توجهت ومعي اللواء محمد نجيب إلى المطار، وانطلقت بنا الطائرة إلى أرض العملية.. إلى الإسكندرية، وفى مطار النزهة وجدنا مندوب على ماهر في انتظارنا..

وحسب الاتفاق توجه اللواء نجيب إلى القيادة في مصطفى باشا، وتوجهت أنا مع مندوب على ماهر إلى رئاسة مجلس الوزراء في بولكلى..

وقضيت ساعة ونصفاً مع على ماهر.. سألني عن القوات التي وصلت الإسكندرية مرة ثانية، وكانت الحيرة بادية على وجهه ومضى يقول لي:

- الملك وافق على الطلبات كلها.. واستقالات أفراد الحاشية في جيبي أهه..

وأخرجها من جيبه ليريني إياها، وتظاهرت بالاهتمام فتناولت منه الاستقالات لأقرأها، ولفت نظري توقيع الياس اندراوس على استقالته. فقد وقع صاحبها عليها هكذا: "اليس اندراوس"، وبخط رديء للغاية..

وهززت رأسي في دهشة.. إن الياس اندراوس كان أحد الذين يحكموننا.. نحن الشعب.. كان محسوباً علينا كمصري، ويؤلف الوزارات ويسقطها.. وهو لا يعرف كيف يكتب اسمه.. لا يعرف لغة البلاد التي ينتمي إليها..

وتنبهت على صوت على ماهر مرة أخرى وكان لا يزال حائراً.. وسألني مرة ثالثة عن حكاية القوات التي جاءت إلى الإسكندرية..

وفى هذه المرة اعتدلت في مقعدي وبدأت أتحدث إليه في الموضوع لأول مرة.. قلت له وكان ساعتها يبدو مذهولاً للغاية:

- بصراحة يا باشا القيادة قررت عزل الملك "اليوم".

لا خيار لك فالشعب مع الجيش!!

وقبل أن يفيق على ماهر من ذهوله أردفت قائلاً له:

– اللواء نجيب سيجيء إليك في الساعة السابعة وهو يحمل إنذاراً موجهاً إلى الملك من القيادة، بتنازله عن العرش ومغادرة البلاد، وعليه أن يتحمل النتائج في حالة رفضه لهذا الإنذار..

ومضيت أقول لعلى ماهر:

– أنصحك – وأنت الذي ستتوجه بهذا الإنذار – أن تؤكد للملك أن لا فائدة من المقاومة إطلاقاً، لأن الجيش والشعب سيسحقان أية مقاومة مهما كانت، والأوامر التي صدرت قاطعة في هذا الشأن..

وكان على ماهر لا يزال في ذهوله الشديد.. فاقتربت منه قائلاً:

– أنت لا خيار لك في هذا.. بل إنني أعتقد أنك مسئول عما أصاب البلاد إلى حد ما لأنك أنت الذي نصبته ملكاً على البلاد في دقائق عام ١٩٣٦..

وهنا لاحظت أن على ماهر تحمس قليلاً.. فقال:

– أنا نصبته فعلاً ملكاً على البلاد.. لكنني لم أكن أتصور أبداً أن يصل على يد مربيه أحمد حسنين إلى ما وصل إليه اليوم.. إنه هو الذي كتب بيديه أفعاله ومصيره..

ومضى على ماهر يقول لي:

– لعلك أنت تعلم، ويعلم الناس أن "فاروق" أبعدني منذ إحدى عشرة سنة بتأثير من مربيه أحمد حسنين والحاشية..

وسكت على ماهر ثم عاد ينظر إليّ.. وقمت لأؤكد له مرة ثانية أن لا خيار له في الأمر.. فالشعب مع الجيش سيسحقان أية مقاومة.. وعدت من بولكلى إلى مصطفى باشا.. حيث كان نجيب هناك، وكان معه أيضاً زكريا محيى الدين – مدير العمليات – وجمال سالم وحسين الشافعي..

وأخبرتهم أن على ماهر جاهز لتلقى الإنذار في الساعة السابعة من هذا المساء.

زكريا محيى الدين يفاجئنا..!

كان زكريا محيى الدين في تلك اللحظة منتحياً في ركن من الحجرة وأمامه خريطة لمدينة الإسكندرية، ثبت فوقها دبابيس عديدة، وفى كل دقيقة يدخل أحد

الضباط الحجرة ليتلقى أمراً ثم يخرج.. وزكريا كأنه غير موجود في الحجـرة.. لا يتحدث إلينا ولا يلتفت إلى أحد.. كان منهمكاً في "البحلقة" في الخريطة، وفى تثبيت الدبابيس على أماكن متعددة فيها.. فهو كان مديراً للعملية..

وكتبنا صيغة الإنذار، ثم اتصلنا بجمال عبد الناصر في القاهرة وأخبرنـــاه بما تم حتى اللحظة بعد مقابلتي لعلى ماهر.. ثم قرأنا له صيغة الإنــذار الــذي سيوجه إلى الملك فأقرها..

ثم بعد ذلك اتجهنا إلى زكريا محيى الدين في الركن الذي انتحى فيه بعيداً عنا في الحجرة.. وسألناه متى تكون قواته جاهزة في أماكنها المحددة لها حسب الخطة، لكي نسلم الإنذار ثم تبدأ عملية طرد فاروق..

وفوجئنا بزكريا يقول في هدوء:

- العملية لا يمكن أن تتم الليلة..

وذهلنا.. وسألناه في صوت واحد:

- لماذا؟!..

ثم بدأنا نتناقش.. وارتفعت أصواتنا لتنفذ من الجدران.

رصاصة رأس التين

كانت مفاجأة لم نتوقعها.. فزكريا محيى الدين أصر على رأيه وظل متمسكا بذلك الرأي ووجهه يبدو هادئاً للغاية، ونحن من حوله تكاد أصواتنا تبلغ حد الصراخ.

فبعد أن انتهينا من وضع صيغة الإنذار الذي سيوجه باسم القيادة إلى الملك، اتجهنا إلى زكريا نسأله متى تكون قواته جاهزة؟..

وبهدوء تام أجاب:

– العملية لا يمكن أن تتم الليلة!..

تلك كانت مفاجأة زكريا محيى الدين لنا في ذلك اليوم.. ٢٥ يوليو..

فهو كان مديراً للعمليات، وهو الذي كان مسئولاً عن تحركات القوات في الإسكندرية أثناء قيامها بعملية طرد فاروق.

وقال لنا زكريا أن القوات لم تنل قسطها من الراحة، وبعضها وصل إلى المدينة متأخراً، وهو لا يستطيع أن يخوض معركة بجنود متعبين، وقال إن القوات بعد أن تستريح وتنال وجبة ساخنة، يمكن أن تبدأ المعركة على الفور!..

وقلنا له أن مسألة التعب والإرهاق هذه لا يصح أن نسلم بها، لأننا جميعا لم ننل أي قسط من الراحة طوال ثلاث ليال، ولا نزال نقف على أقدامنا متحفزين لخوض هذه المعركة، وغيرها!..

وبهدوء أيضاً أجاب زكريا:

– ما ليش دعوة بيكم.. لكن قواتي لابد أن تستريح، وكل شيء حيكون جاهز بكرة الساعة الثامنة صباحاً..

ولم يفلح أحد منا في إقناع زكريا، لكي يبدأ في تنفيذ العملية اليوم (٢٥ يوليو).

وسلمنا الأمر لله... ثم اضطررت إلى الاتصال بعلي ماهر في بولكلى لكي أخبره أن موعد الساعة السابعة مساء، قد تأجل إلى التاسعة من صباح اليوم التالي..

وذلك الموعد كنا قد حددناه لعلي ماهر لكي نقابله فيه ونسلمه الإنذار التاريخي الموجه إلى الملك فاروق من القيادة بالتنازل عن العرش ومغادرة البلاد.

إعدام فاروق

وقضينا ساعات الليل في مناقشات عنيفة..

إن جمال سالم يصر على ألا يخرج الملك حياً من البلاد، إنه يرى محاكمته جزاء ما اقترف من جرائم في حق الشعب وهي جرائم يستحق من أجلها الإعدام..

وظل جمال سالم مصراً على رأيه هذا، وكنت قد قلت رأيي في الموضوع وهو أن محاكمة فاروق سوف تستغرق وقتاً، ونحن نريد التخلص منه في أقرب وقت، اليوم أو غداً، ويكفي أن يخرج من مصر ثم تطوى صفحته ولا حاجة إلى أن نبقيه في البلاد إلى أن يعدم، فالأحداث يمكن أن تفاجئنا وتأخذنا على غرة!

وظلت المناقشة دائرة بيننا في القيادة بمصطفى باشا تلك الليلة حتى بلغت الساعة الثانية صباحا، وهنا قررنا عرض موضوع – مصير فاروق – على الزملاء بقية أعضاء القيادة في القاهرة..

فالهيئة التأسيسية للضباط الأحرار يمكنها أن تجرى عملية اقتراع حول المسألة.. وسواء صوت أعضاؤها ضد اقتراح جمال سالم أو أيدوه فالمسألة حينئذ تصبح أمرا واقعا..

واستقل جمال سالم طائرة في تلك الساعة وطار بها إلى القاهرة، ليأخذ الأصوات حول مصير فاروق.. ثم عاد إلينا في الساعة السابعة من الصباح ومعه رأى لبقية الزملاء..

وكانت الأصوات التي اشتركت في حسم ذلك الخلاف هي: تسعة أصوات فقط.. وهم أعضاء الهيئة التأسيسية واللواء محمد نجيب لم يكن عضواً في الهيئة، فلم يكن له صوت في عملية الاقتراع..

وقد رجح الزملاء كفة الرأي القائل بإخراج فاروق من البلاد دون محاكمة.. لأن المسألة: كما قلت – كانت تحتم الخلاص منه في ساعات قبل أن تحدث مفاجآت!

وقد علمت من جمال سالم بعد عودته من القاهرة أن جمال عبد الناصر اتصل بعزيز المصري فجر ذلك اليوم – ٢٦ يوليو – وأخذ رأيه في الموضوع..

مستشار السفارة الأمريكية يسأل؟!

وفى الساعة السادسة من صباح – ٢٦ يوليو – كان زكريا محيى الدين يرأس مؤتمراً من ضباط جميع القوات الموجودة في الإسكندرية، وشرح لهم واجباتهم ثم أصدر إليهم الأوامر النهائية..

وبعد نصف ساعة تحركت القوات، ثم احتلت مراكزها قبل الثامنة صباحاً..

وفى الساعة التاسعة توجهت مع اللواء نجيب إلى رئاسة مجلس الوزراء في بولكلي لتسليم على ماهر الإنذار الموجه إلى الملك.. وقبل أن نصل إلى مكتب رئيس الوزراء قابلنا مستشار السفارة الأمريكية في الردهة، وكان المستشار الأمريكي في حالة يرثى لها.. كان يرتعش، وكان قد فقد السيطرة على أعصابه تماما.. وقال موجها حديثه إلينا:

– أنا قادم الآن من رأس التين، إن هناك معركة..

وأردف المستشار الأمريكي قائلاً وهو يرتعش:

– ما سبب هذا؟.. إن الملك فيما نعلم قد أجاب كل طلبات الجيش، وأريد تفسيرا لهذا الذي يحدث الآن عند رأس التين، ويهمنى أن أطلب باسم "واشنطن" ما يفيد تأكيد سلامة فاروق الشخصية..

وصمت المستشار الأمريكي ثم نظر إلينا في حيرة..

وقال له اللواء نجيب:

– إننا قادمون الآن للتفاهم مع رئيس الوزراء في هذا الموضوع وتركنا مستشار السفارة الأمريكية لندخل مكتب على ماهر.

على ماهر ظن أن الجيش تراجع

وبعد أن صافحنا رئيس الوزراء، مددت يدي في جيبي وبحركة مسرحية أخرجت "الإنذار" من حافظتي وقدمته إلى اللواء نجيب، فسلمه هو بدوره لعلى ماهر.. وكان الإنذار من صورتين وقع على ماهر على إحداهما بتسلم الصورة الأصلية..

ورأيت على ماهر يلتفت إلىّ وفى عينيه تساؤل واضح، ولم يكن قد بدأ يقرأ الإنذار، وفهمت في الحال إنه يريد أن يعرف إن كان هذا هو "الإنذار" الذي حدد مصير فاروق!؟

ويبدو أن على ماهر كان قد أعتقد أننا تراجعنا عن مسألة طرد فاروق، وخاصة بعد أن تأجل ميعاد مقابلتنا له من السابعة مساء إلى اليوم التالي!

وقد أومأت برأسي لعلى ماهر وكأني أقول له: نعم.. هذا هو الإنذار بعينه!

وبدأ على ماهر يقرأ الإنذار، ثم التفت إلينا قائلاً بعد أن انتهى من قراءته:

- هذا هو ما يستحقه، فكثيراً ما نصحته ولم يستمع أبداً إلى نصحي..

وغادرنا مكتب على ماهر.. وخرج هو معنا في تلك اللحظة ليتوجه إلى الملك ويسلمه الإنذار..

وكان الملك قد استدعاه في صباح ذلك اليوم، قبل أن نقابله، وذلك عندما شعر بالقوات وهى تقيم حصاراً حول سراي رأس التين..

وقبل أن يستقل على ماهر السيارة لتتجه به إلى رأس التين قلت له وأنا أهمس في أذنه:

إن كنت ترى إنك في حاجة إلى حضوري معك فأنا مستعد ولكنه قال: "لا داعي لذلك في هذه الخطوة"..

ومضت به السيارة إلى الملك.. ليسلمه إنذاراً من القيادة يقضي بأن يتنازل عن عرشه في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً، ويغادر البلاد في السادسة من مساء نفس اليوم، وإلا!...

الدوافع لهدم رأس التين

وكانت القوات التي تقرر اشتراكها في عملية طرد فاروق قد أقامت حصاراً على سراي رأس التين وسراي المنتزه، وفى نفس اللحظة كانت هناك قوات في القاهرة تحاصر قصري عابدين والقبة..

وحول سراي رأس التين حيث كان الملك هناك كانت القوات المحاصرة تتكون من مشاة وعربات مصفحة ومدفعية وقد احتلت المدفعية منذ الصباح الباكر موقعاً يتحكم في سراي رأس التين، بحيث يمكن هدمها إذا ما استدعى الأمر ذلك..

المعركة التي حطمت الملك..

وكان على قوات المشاة أن تتقدم لحصار السراي، غير أن الأوامر التي صدرت لقائد تلك القوات كانت تقضي بعدم الاشتباك مع قوات حرس السراي إلا بأمر من القيادة.

وأثناء تقدم تلك القوات لإتمام الحصار خارج الأسوار حدث أن صعدت قوات الحرس إلى الأبراج فوق تلك الأسوار، وراحت تنصب عليها مدافع "الماكينة" لاعتقادهم أن القوات المتقدمة ستهاجم السراي في الحال، وواجبهم يقضي بالدفاع عنها... فهم كانوا لا يعلمون شيئاً..

وتنبه قائد القوات المتقدمة لحصار السراي، وكان قد تعدى نطاق الحصار المعين له في "العملية".. ورأى قائد القوة المدافع والحرس ينصبها فوق الأبراج، فنادى جنود الحرس وهو يأمرهم بالانسحاب.. وكانت تبدو على وجوه جنود الحرس الحيرة الشديدة، كانوا ينصبون المدافع فوق الأبراج وهم ينظرون إلى إخوانهم جنود المشاة، وهم خارج الأسوار وكانت تلك النظرات فيها أبلغ آيات القلق والاضطراب فهم لا يستطيعون أن يفتحوا مدافع الماكينة على إخوانهم هؤلاء... وفي نفس الوقت واجبهم يحتم عليهم الدفاع عن السراي، لأنه لا توجد أوامر جديدة قد وصلتهم، حتى كان يمكنهم أن يتخذوا موقفاً مختلفاً..

وفي هذه اللحظة وبعد أن نادى قائد القوة جنود الحرس يأمرهم بالانسحاب خرجت رصاصة – طائشة – من مدفع كان أحد الجنود ينصبه فوق البرج.. ويبدو أن الرصاصة خرجت خطأ من شدة ارتباك الجندي، وفي الحال لم تجد قواتنا بدا من إسكات المدفع الذي انطلقت منه الرصاصة، ولا أحد كان يعلم ساعتها أن تلك الرصاصة خرجت خطأ وفتحت النيران على البرج الذي انطلقت منه الرصاصة، وفعلاً سكت المدفع بعد أن أصيب سبعة من جنود الحرس ولم يصب أحد من القوات التي حول الأسوار.

تلك كانت المعركة التي أفزعت مستشار السفارة الأمريكية ولم تفزعه هو وحده بل وجعلت فاروق يفقد أعصابه ويتهاوى كالحطام..

فاروق يستنجد بالسفير الأمريكي!

ويقول على ماهر أن تلك المعركة الصغيرة كان لها وقع الصاعقة على فاروق والحاشية فما كادت الطلقات تتتابع حول السراي حتى أعتقد فاروق إنه ميت لا محالة.. ولم يتمالك نفسه فأصيب بحالة – هستيريا – وأسرع يطلب على ماهر في فندق سان ستفانو.. فلما وجده لم يستيقظ بعد ظل يصرخ في التليفون طالباً من إدارة الفندق إيقاظه في الحال.. وفعلاً استيقظ على ماهر وكلم الملك، فسمعه يتحدث بصوت ضعيف مشوب بالذعر وهو يطلب حضوره.

وفي نفس الوقت استنجد فاروق بالسفير الأمريكي، وأرسل له السفير سكرتيره الخاص، ثم بعد ذلك أرسل لنا مستشار السفارة.

كانت معركة فاصلة ما في ذلك شك بالرغم من بساطتها وهـي إن دلـت نتائجها على شيء فإنما تدل على إنه لا توجد قوة مهما كانت يمكنها الـصمود أمام تكتل الجيش والشعب..

فما كادت تلك المعركة تنتهي بهذا الوضع الذي ذكرته حتى خرج من السراي اللواء عبد الله النجومى ومعه أربعة ضباط مـن الحـرس، وقـالوا لقائـد القـوة المحاصرة إنهم يريدون الذهاب إلى القيادة في مصطفى باشا للتفاهم.. وجاءوا إلـى القيادة فعلاً.. وكانوا في حالة عصبية مروعـة، فحجزنـاهم هنـاك.. لتـستريح أعصابهم.. فهم كانوا لا يعرفون شيئاً ولا يعلمون ماذا في الأفق!

فاروق طلب استثمار ثروته!

واتصل بنا على ماهر وقال لنا إن الملك قد خضع للإنذار وطلب منـا علـى ماهر أن نوافيه في بولكلى – لنشترك معه في وضع صيغة وثيقة تنازل الملك عن العرش وأيضاً لكي يعرض علينا طلبات الملك الأخيرة بشأن سفره..

وتوجهنا إلى بولكلى مرة أخرى، محمد نجيب وجمال سالم وأنـا.. ووجـدنا سليمان حافظ جالساً مع على ماهر ثم أرسل يستدعى السنهوري لإعـداد صـيغة التنازل، وفى هذه الأثناء عرض علينا على ماهر طلبات الملك بشأن رحيله وهي:

* أن يسمح له بالسفر في المحروسة ويتولى قيادتها جلال علوبة.

* أن يجرد كل شيء في السرايات الملكية ثم يضاف ما في تلك السرايات إلى ثروته وأن تجمع ثروته مع ثروة شقيقاته وتستثمر لحسابهم أو تقسم عليهم.

* أن يسمح له باصطحاب بوللى وحلمي حسين، وإن لم يكن هذا ممكناً فيسمح لبوللى فقط بالسفر معه.

تلك كانت طلبات فاروق الثلاثة، وقد وافقنا على الطلب الأول فقط، ورفـضنا باقي الطلبات بلا مناقشة..

ولم يكن لفاروق خيار في الأمر، فقد كان ينفذ كل ما يطلب منه بلا تردد، بعد أن أصبح كل ما يأمل فيه هو أن يخرج حياً من هذه البلاد.

كان قد اقتنع أنه لا توجد قوة – مهما كانت – يمكنها أن تحميه من الجيش والشعب.. فتهاوى من تلقاء نفسه وبلا مقاومة.

إرادة الشعب

وكتب السنهوري وسليمان حافظ صيغة التنازل – الأولى – وعرضت تلك الصيغة علينا ولكن جمال سالم أعترض بشدة.. فلم تكن الصيغة تتضمن السبب الأساسي الذي حتم على فاروق أن يتنازل عن عرشه.. لم يكتب فيها نزولاً على رغبة الشعب.

وكتب جمال سالم الصيغة النهائية والتي وقع عليها الملك نزولاً على رغبة الشعب..

واخذ سليمان حافظ "الوثيقة" وتوجه إلى رأس التين ليوقع الملك المخلوع عليها..

وخرجت أنا لأتوجه إلى رئاسة البحرية المصرية، كي اتفق هناك على خروج "المحروسة" لتحمل فاروق إلى حيث يشاء، وأيضاً لكي أخلى سبيل أمير البحر جلال علوبة الذي كان ممنوعاً من مغادرة مكتبه.

وفى طريقي رأيت سليمان حافظ واقفا مع الضابط الذي كان يرأس قوة حصار رأس التين، وكان الضابط قد منعه من دخول السراي، وطلبت من الضابط أن يتركه وأن يرافقه إلى الباب الخارجي للسراي وظل الضابط معه حتى فتحوا له الباب..

وتوجهت أنا بعد ذلك إلى رئاسة البحرية.. وهناك فوجئت بما لم يكن في الحسبان!!

المحروسة وضباط البحرية والسواحل

تركت سليمان حافظ بعد أن فتحوا له باب سراي رأس التين، وكان يحمل وثيقة تنازل فاروق عن العرش ليوقعها صاحب الجلالة ثم يرحل بعد ذلك عن البلاد.

ثم توجهت إلى رئاسة البحرية لأعطى تعليمات بخروج "المحروسة" لتحمل فاروق إلى منفاه، وأيضاً لكي أخلى سبيل أمير البحر جلال علوبة الذي أراد فاروق أن يتولى هو قيادة المحروسة في رحلتها.

وكان أمير البحر المذكور ممنوعاً من مغادرة مكتبه في ذلك الوقت.

وهناك في رئاسة البحرية فوجئت – كما سبق أن قلت – بما لم يكن في الحسبان!

فما كدت أصل إلى الرئاسة حتى جلست مع قائد البحرية وكان معنا رؤساء الفروع، وأخبرتهم بقرار القيادة الذي يقضي بخروج المحروسة لتحمل فاروقاً إلى المنفى... وما أن سمعوا ذلك مني حتى قالوا لي إنهم يتوقعون نسف المحروسة أثناء خروجها إلى عرض البحر!

وقبل أن أفيق من دهشتي مضوا يقولون لي: إن مراكب الأسطول المصري كلها واقفة في الميناء – الآن – وجميعها محملة بالذخائر، وهم لا يستبعدون أن تطلق إحدى قطع الأسطول نيران مدافعها على المحروسة وهي ماضية بفاروق إلى المنفى!

والواقع إننا كنا لا نعلم بالتحديد نوايا السلاح البحري المصري، فتنظيم الضباط الأحرار بالرغم من نجاحه في تكوين تشكيلات في جميع وحدات القوات المسلحة لم يكن على علاقة ما بضباط البحرية.

وكان جمال عبد الناصر قبل الثورة بأسبوعين، قد سافر إلى الإسكندرية في أجازة، وهي لم تكن أجازة للراحة، بل سافر إلى الإسكندرية خصيصاً لكي يتصل بضباط البحرية، ولكي يخلق صلة بين بعضهم وباقي القوات المسلحة تمهيداً للقيام بالثورة.

وكانت مهمة صعبة إلى حد كبير... فجميع إخواننا الضباط الذين ارتبطوا بالتنظيم في جميع أسلحة الجيش كان من السهل خلق الصلة بيننا وبينهم سواء

كانوا في الطيران أو في باقي الوحدات، لأننا – جميعاً – كنا زملاء في كلية واحدة.. هي الكلية الحربية.

وأما بالنسبة لضباط البحرية فإن كليتهم لم توجد إلا بعد أن انتهينا من دراستنا وتخرجنا، فلم نكن نعرف أحداً من هؤلاء الضباط المعرفة التي تجعلنا نفاتحهم في مثل هذه الأمور!

وكنت قد قلت من قبل أن ثورتنا هذه كان الأساس في قيامها قائماً على الصداقات وصلات الأخوة بين أعضاء التنظيم... وقبل أن توجد الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، كانت الصداقات بيننا هي الدافع القوى والأول إلى التفاهم والاتفاق على عمل واحد... ثم تحديد أهداف واحدة.

فقد كان مجرد الحديث عن هذه الأهداف بين الأفراد جريمة كبرى وخيانة يعاقب صاحبها عقاباً صارما..

ومن أجل هذا كنا نحن – الأصدقاء – نتبادل الحديث حول ذلك العمل وتلك الأهداف دون أن نخشى افتضاح أمرنا، ومن أجل هذا أيضا ظل الضباط الأحرار يعدون خطتهم ومشروعاتهم طوال عشر سنوات، ولم يعرف أحد سرهم!

وأعود بك إلى موضوع البحرية فأقول إن جمالاً ظل في الإسكندرية أياماً قليلة وهو يحاول عمل حلقة اتصال مع ضباطها... وبينما هو في محاولته إذ طلب إليه أعضاء الهيئة التأسيسية العودة فوراً إلى القاهرة... لأنه – كما قلت من قبل – قد وصل إلى علمنا أن الملك ينوى البطش بالضباط الأحرار بعد أن عرف أشخاصهم!

وترك جمال الإسكندرية قبل أن يتمكن من إيجاد الصلة بيننا وبين ضباط البحرية.

المفاجأة الثانية..

تذكرت كل هذا وأنا جالس مع قائد البحرية ورؤساء الفروع في رئاستهم، ولهذا كانت دهشتي كبيرة عندما قالوا لي أن مراكب الأسطول الراسية في الميناء ربما أطلقت مدافعها على المحروسة وهى تحمل الملك المخلوع إلى منفاه وتناقشنا طويلاً حول هذه المشكلة، وقلت لهم أن القيادة ارتبطت بوعد، ولا بد من أن ينفذ وعد القيادة، لا بد أن تخرج المحروسة سليمة إلى عرض البحر بمن عليها..

وأستقر رأينا – كوسيلة لمنع ضرب المحروسة بالمدافع – أن نوزع أنفسنا على مراكب الأسطول.. أنا وقائد المحروسة ورؤساء الفروع، كل واحد منا يصعد

على ظهر مركب من مراكب أسطولنا في الميناء، على أن يكون كل واحد منا مسئولاً عن منع ضباط البحرية من نسف المحروسة!

وجاءوا بأحد اللنشات ليحملنا إلى مراكب الأسطول الراسية في الميناء.. وبينما كنت متأهباً للنزول إلى اللنش إذ دق جرس التليفون في غرفة قائد البحرية، وقالوا لي أن القيادة تطلبني.

كان زكريا محيى الدين – مدير العمليات – هو الذي يتكلم.. قال لي إنه نمى إلى علمه أن ضباط مدفعية السواحل قرروا ضرب المحروسة بالمدافع الساحلية الضخمة أثناء سفرها بالملك المخلوع، وهم لن يسمحوا لها بالخروج من الميناء!

وطلب مني زكريا محيى الدين أن أتصل بهم وأعمل الترتيب اللازم حتى ينفذ وعد القيادة!

وكانت مفاجأة ثانية في ذلك اليوم..

فضباط الأسطول قد استطعنا أن نجد طريقة لمنعهم من نسف المحروسة.. فماذا نصنع لنمنع ضباط السواحل من إطلاق مدافعهم الضخمة الرهيبة؟!

ولم أجد بداً من الاتصال تليفونياً بمندوب الضباط الأحرار في مدفعية السواحل.. وشرحت للضابط الموقف ثم طلبت منه أن يتوجه بنفسه إلى جميع مواقع المدفعية الساحلية لكي يشرح للضباط الوضع بالتفصيل، ويقول لهم إن القيادة ارتبطت بكلمتها.. ولابد أن يخرج الملك المخلوع سليماً من البلاد.

وانتظرت بجوار التليفون، ولم يلبث مندوب الضباط الأحرار أن أتصل بي ليخبرني أن كل شيء على ما يرام.. فقد استطاع إقناع ضباط مدفعية السواحل بعدم نسف المحروسة!

وبقى إقناع جلال علوبة بالسفر مع فاروق، فهو كان قد رفض السفر عندما أخبرته بأمر القيادة أثناء وجودي في رئاسة البحرية، لأنه خاف أن لا يسمح له بالعودة إلى مصر بعد توصيل فاروق لكنى أخذته إلى القيادة وهناك أقنعناه بأن عقليتنا لا يمكن أن تصل إلى هذا الحد.. فهو مصري ومكلف بمأمورية وبالرغم من صداقته لفاروق فنحن لا يمكن أن نمنعه من العودة إلى بلده!

وبعد ذلك ركبنا اللنشات واتجهنا إلى مراكب الأسطول لنمنع ضباطه من نسف المحروسة!

فاروق في اللحظات الأخيرة

وكان من نصيبي الطراد "فاروق" وهو أكبر قطعة من أسطولنا.

ومن العجيب إنه كان يقف تجاه المحروسة تماماً!

ووقفت على ظهر الطراد وبدأت أنظر إلى رأس التين بالمنظار البحري المكبر..

واقتربت الساعة من السادسة.. وكنت لا أزال أتجه ببصري نحو رأس التين.. وكنت أرى اللنشات وهي تتجه إلى المحروسة ثم تعود ثم تجيء إليها مرة ثانية، وعلمت أنهم يحملونها بالمؤن وبمتاع الملك المخلوع استعداداً للرحيل.

وفي الساعة السادسة تماماً نظرت من المنظار المكبر فرأيت علم فاروق فوق السارية أمام رأس التين وقد أنزل... ثم رأيتهم... رأيت فاروقاً ومن حوله المودعون من نساء ورجال، ولم أميزهم جيداً بالمنظار، وإن كنت عرفت فيما بعد أنه كان من بين هؤلاء المودعين على ماهر والسفير الأمريكي وشقيقته فوزية.

فاروق يشتم الصحفيين:

وظللت في مكاني فوق الطراد "فاروق" أحملق في المنظار المكبر وأشهد أمامي نهاية ملك.. بل نهاية نظام.

ورأيت فاروقاً بجسمه الضخم يستقل اللنش إلى المحروسة، وكان يرتدي بذلة بحرية بيضاء ويقف على مقدمة اللنش.. وخيل إليّ أنه يريد أن يبدو شجاعاً في لحظاته الأخيرة، وهو يغادر أرض الثورة.

وكانت اللنشات تروح وتجيء في الميناء منذ الصباح حتى ساعة الرحيل، وتقترب تلك اللنشات من رأس التين ثم تدور حول المحروسة.. فكل الناس يريدون مشاهدة الفصل الأخير من رواية "فاروق الأول".. بعد أن شهدوا كل فصول الرواية وضاقوا بها.

وكانت ناريمان وبنات فاروق قد وصلن إلى المحروسة قبل الساعة السادسة.

وقبل أن يمر اللنش الذي يحمل الملك المخلوع أمام الطراد الذي كنت فوقه سمعت طلقات رصاص.. وبحلقت في المنظار وقد انتابني شعور بالفزع.. خيل إليّ أن أحداً أطلق الرصاص على فاروق.. وبهذا تكون القيادة قد أخلفت وعدها .

ثم عرفت – في الحال – أن أحد اللنشات أقترب من "لنش" الملك المخلوع وكان فيه صحفيون مصريون جاءوا ليلتقطوا صوراً لفاروق ساعة رحيله عن مصر... وما كاد فاروق يراهم وهم يقتربون منه حتى "تهيج" وصرخ بصوت عال وسبهم بشتائم مقذعة، فما كان من حرس خفر السواحل الذين كانوا في "لنش" يسير بهم محاذياً للنش فاروق إلا أن أطلقوا النار للإرهاب... وانطلق لنش الصحفيين بعيداً.

ووصل فاروق إلى المحروسة، ورأيته يصعد درجات السلم ثم يقف بعد ذلك في الممشى فوق ظهر اليخت، وكأنه ينتظر وصول أحد.

وبعد فترة قصيرة جداً جاء لنش آخر يحمل نجيب وجمال سالم وحسين الشافعي.. وكان من المفروض أن يودعوا فاروقاً من "مرسى" سراي رأس التين قبل رحيله لكنهم تأخروا.. واقتربت الساعة من السادسة، فأستقل فاروق اللنش على الفور كما ينص الإنذار الذي تلقاه.

وجاء محمد نجيب وجمال سالم وحسين الشافعي إلى المحروسة لتوديعه، ورأيتهم يقفون مع فاروق، وظللت أبحلق فيهم بمنظاري لكنني لم أكن أسمع حديثهم... ثم ما لبثوا أن غادروا المحروسة..

كان أمر القيادة يقضى بأن يؤدى الطراد "فاروق" آخر تحية للملك المخلوع والمحروسة في طريقها إلى المنفى، وطلبت من قائد الطراد أن يؤدى تلك التحية.. فبدأت المدافع تنطلق.. وأطلقوا واحداً وعشرين مدفعاً، وكانت المحروسة خلال الطلقات تنسحب إلى الخلف لكي تغادر "البوغاز" ثم تمضي بعد ذلك بعيداً عن أرض الثورة.

نمت على باب القيادة:

وظللت أتابع "المحروسة" بالمنظار إلى أن غابت عن عيني وهنا تلفت حولي لأجد ضباط الطراد يحيطون بى وعلى وجوههم الفرحة الطاغية.. وفى هذه اللحظة فقط وبعد أن انتهت "العملية" شعرت بالتعب يطبق على كل جزء في جسمي...

وترنحت وكدت أسقط فوق ظهر الطراد... فمنذ ٢٣ يوليو حتى ذلك المساء لم أنم ولم أسترح... ولم اطمئن..

وكنت قبل رحيل المحروسة لا أشعر بتعب ولا بإرهاق.. وفجأة أصبحت لا أستطيع جر قدمي، حتى عندما أردت مغادرة الطراد لأعود إلى القيادة في مصطفى باشا لم أستطع النزول من فوق السلم.. فأمسك بي ضباط الطراد وساعدوني حتى وصلت إلى اللنش..

ووصلت إلى مصطفى باشا، وكنت لا أزال أترنح... ثم دخلت من باب القيادة أجر قدمي جراً كأني مصاب بعشرات اللكمات والضربات، ورأيت إلى جوار الباب حجرة الضابط النوبتجي... ولم يكن فيها أحد... وبلا تفكير اتجهت إليها، وبحذائي وبثيابي المبللة بالعرق والتراب تمددت فوق الأرض لاستغرق في نوم لم أذق أعمق منه أبداً.

مشكلة البنات والحيوانات:

واستيقظت من نومي في صباح اليوم التالي.. ووجدت نفسي أغادر القيادة في مصطفى باشا وأتوجه إلى محل ألبان كنت أتردد عليه في وقت ما أثناء هربي من البوليس... وتناولت طعام الإفطار ثم عدت إلى القيادة... وعلمت أن جمال عبد الناصر أتصل بنا في المساء وطلب منا أن نعود اليوم إلى القاهرة.

وقد توجهت مع اللواء محمد نجيب إلى مستشفى الحرس، حيث زرنا الجنود السبعة الذين أصيبوا في معركة رأس التين. وصرفنا لهم مكافآت.

وأثناء وجودنا في المستشفى جاء اللواء عبد الله النجومى وكان معيناً من قبل القيادة لتصفية السرايات الملكية وتسليمها للحكومة.

وخيل إلىّ أن النجومى في ورطة.. وفعلاً بدأ يتحدث عن ورطته.. قال أنه يوجد في سراي المنتزه واحدة وعشرون فتاة من مختلف الجنسيات وهن كن يعملن وصيفات، وسألنا النجومى ماذا يصنع بهن الآن؟

ثم بدأ يتحدث عن مشكلة ثانية استعصت عليه وهى أن الحيوانات والغزلان والطيور الموجودة في السرايات مطلوب لها طعام؟..

وطلب النجومى منا أن نحل المشكلتين، وحللنا مـشكلة البنـات الوصـيفات بإخراجهن من البلاد.. فترحل كل واحدة إلى بلدها.

أما مشكلة الحيوانات والغزلان فقد حلت بأن قلنـا للنجـومى إنهـا - أي الحيوانات - يمكن أن تأكل طعامها العادي الذي كان يؤتى لها بـه.. إلـى أن تتسلمها الحكومة.

وعدنا إلى القيادة بعد ذلك لنستعد للسفر إلى القاهرة..

وفى القيادة كانت تنتظرنا مفاجأة أخرى..

أول اجتماع للقيادة

كانت تنتظرنا مفاجأة في القيادة بمصطفى باشا.. وقد استبدت بنا الدهشة عندما دخل رشاد مهنا علينا في ذلك اليوم بعد رحيل فاروق!

وكنا – أو كنت أنا بالذات – لا أتوقع تلك المفاجأة إطلاقاً..

ماذا يريد هذا الرجل؟.. وما الذي جاء به أيضاً في الإسكندرية؟

لا أحد كان يدرى.. فذلك الرجل لم يفهمه أحد تماماً، ولم يعرف أصدقاؤه، أو أعداؤه أهدافه الحقيقية..

هل يريد أن يثير زوبعة هنا.. مثل تلك التي أثارها في مبنى القيادة بكوبري القبة..!؟ عندما جاء من العريش بدون إذن إلى القاهرة، وكان ضباط المدفعية لا يعلمون موقفه من الثورة، ورفضه الاشتراك في العملية عندما بدأت، بل بعد أن نجحت صباح ٢٣ يوليو، ظل يرفض التعاون.. ثم فوجئ بأننا نجحنا نهائياً وأصبحنا فعلاً نسيطر على الجيش وعلى البلد... فأسرع إلى القاهرة وهو مذهول لا يكاد يصدق أن الثورة نجحت بدونه!

ويومها – كما قلت – ظنه ضباط المدفعية أحد أقطاب الثورة فأحاطوا به هاتفين، ثم جاءوا به في موكب هائل إلى القيادة في كوبرى القبة، ولم نستطع أن نفسر لضباط المدفعية موقف رشاد مهنا. لم نقل لهم أن هذا الرجل ليس من الثوار، ليس واحداً منكم، فالمسألة لم تكن تحتمل، فقد كان من الحماقة إثارة خلافات في يوم الثورة الأول..

تذكرت كل هذا وأنا أبحلق في وجه رشاد مهنا عندما جاء إلينا في الإسكندرية يوم طرد الملك، ووقف في الحجرة تائهاً مضطرباً.

لقد شعرت عندما رأيته في ذلك اليوم أن المتاعب في طريقها إلينا إن لم تكن قد جاءت فعلاً!

ولم أتمالك مشاعري، كان لابد أن أحدد موقفي على الفور من ذلك الرجل، الذي لم يحدد إطلاقاً أهدافه أو معتقداته، ولا يستطيع إنسان أن يعتمد عليه.

وزاد في إحساسي بالريبة منه ذلك الاضطراب البادي عليه..

كانت عيناه تتدحرجان في جميع الاتجاهات وهو يتحدث إلينا...

لقد علم أن العرش قد سقط، ولم يشترك هو في عملية إسقاطه. وعرف أنه قد أصبح في مصر مئات الأبطال وقادة فتح لهم التاريخ كل أبوابه وهو ليس واحداً منهم، فمكانه سيكون خلف تلك الأبواب.

وها هو الآن أمامي في تلك الحجرة بقيادة مصطفى باشا، إني أراه جيداً في تلك الصورة.. الإنسان الذي لم يعرف طريقه، وبالرغم من جهله بالطريق فهو يريد أن يصل سريعاً، وبأي ثمن!

وظللت أتأمل في رشاد مهنا وهو في جلسته المضطربة أمامي في مصطفى باشا..

وكما قلت لم أتمالك مشاعري فاقتربت منه ثم أخذته من ذراعه إلى ركن في الحجرة.. وسألته:

- إيه يا رشاد... مالك!؟

ونظر إليّ في اضطراب أكثر.. فسألته في هذه المرة بلهجة جافة إلى حد ما... قلت له:

- عايز إيه يا رشاد... قول، إيه اللي أنت عايزه... مالك كده... مضطرب ليه!؟

وفوجئت به يبكي..

ثم قال لي وهو لا يزال يبكي:

- أنا مش عايز حاجة.. أنا جاى أبارك على الخطوات الموفقة دى..

رشاد يطلب إخراجي مع جمال سالم..

وقد تكلم رشاد مهنا يومها بصوت مهزوز، وكان طوال حديثه زائغ البصر..

ثم انشغلنا عنه بأمورنا.. وتركناه في الحجرة تائهاً كما هو ومن حوله أربعة جدران..

ولم أكن أدري يومها أن حديثي الصريح معه سوف يفهمه على أساس أنني عدو له حتى كان ذلك اليوم الذي ذهب فيه جمال عبد الناصر إلى رشاد مهنا،

وكان رشاد وقتها قد أقيل من منصبه كوصي للعرش وأراد جمال كعادته دائماً مع كل من تربطه بهم صلة ما.. صداقة كانت أم زمالة أو حتى مجرد تعارف عابر.. أقول أراد جمال أن يمد يده لرجل يعرفه، لا لأنه صاحب نفوذ فهو كان قد أصبح لا شيء ولا لأنه في حاجة إليه، بل لأنه قد عرفه في فترة ما..

أراد جمال أن يمد يده لرشاد مهنا بعد خروجه من وصاية العرش فذهب إليه وقال له أن من الممكن الاستفادة بخدماته لهذا فهو يعرض عليه أن يكون سفيراً لمصر في أية دولة يختارها، وظن رشاد مهنا في تلك اللحظة أن جمال عبد الناصر قد جاء إليه تائباً.. وأنه – أي جمال – في حاجة شديدة إلى معونته، وأن الثورة لم يعد يمكنها السير بدونه.. فقال لجمال أن له شرطاً أساسياً لقبول التعاون من جديد.. وهو أن يخرج جمال سالم وأنور السادات من القيادة..

واضطر جمال عبد الناصر أمام هذه المفاجأة أن يوضح لرشاد مهنا في هدوء المسألة كلها.. فقال له أنه لم يأت إليه لأنه في حاجة إلى التعاون معه، بل لكي يساعده.

وتكلم جمال معه بصراحة.. فاستعرض أمامه مواقفه من الثورة قبل قيامها وبعد أن قامت، ثم بعد أن أصبح وزيرا ثم وصياً على العرش.. وخرج جمال من هذا كله بنتيجة واحدة أعلنها في هدوء أمام رشاد مهنا.. وهو أن الوضع بالنسبة له أي – رشاد – هو أنه خرج على الثورة، أما بالنسبة للاثنين اللذين طلب إبعادهما عن القيادة فهو العكس تماماً..

ورفض رشاد بعد أن سمع رد جمال عبد الناصر.. أقول رفض الوظيفة..

هذا ما عرفته بعد موقفي الصريح منه يوم طرد فاروق، عندما فاجأنا بوجوده في مصطفى باشا..

ولنترك حديث رشاد مهنا، فرشاد سوف نلتقي به كثيراً في قصة ثورتنا..

وأعود إلى الموضوع..

كان علينا بعد أن رحل فاروق عن البلاد أن نعود فوراً إلى القاهرة، بعد أن استدعانا جمال ليلة ٢٦ يوليو..

وفي اليوم التالي – ٢٧ يوليو – كنا في القاهرة، وانعقد في نفس اليوم أول اجتماع للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار بعد قيام الثورة، والاجتماع كان يرأسه

جمال عبد الناصر، وكان جمال قد انتخب مرتين رئيساً للهيئة بالإجماع كما سبق أن قلت..

ولم يحضر اللواء نجيب هذا الاجتماع لأنه لم يكن عضواً في الهيئة..

وعندما بدأ اجتماع الهيئة كان اللواء نجيب في مكتبه، ثم جاء إلينا، وعندما رآنا مجتمعين عاد ثانية إلى مكتبه..

استقالة جمال عبد الناصر

وفي هذا الاجتماع الأول للهيئة التأسيسية بعد الثورة وقف جمال عبد الناصر وتكلم فقال أنه يقدم استقالته من رئاسة الهيئة بعد أن انتهت أول مرحلة من كفاح الضباط الأحرار، ثم توجت بالنصر ساعة أن طرد الملك.. ومضى جمال يقول: أنه رأي حتماً عليه أن يستقيل بعد انتهاء تلك المرحلة من كفاحنا لكي يعطي فرصة لأعضاء الهيئة فينتخبوا رئيساً جديداً يواجه الأحداث القادمة..

وانتهى جمال من حديثه بأن أصر على تقديم الاستقالة..

وقد رفضت استقالة جمال بالإجماع، وطلب إليه الأعضاء أن يستمر في عمله كرئيس للهيئة، لكنه أصر على الاستقالة إصراراً تاماً..

واضطررنا إلى إجراء انتخاب جديد، وتمت عملية الانتخاب في اقتراع سري – كالعادة – ففاز جمال بالإجماع.

موقف خالد محيي الدين

وبعد أن تمت عملية الانتخاب وبقى جمال رئيساً للهيئة، وقف خالد محيي الدين وطلب الكلمة.. وتكلم فشرح موقفه..

قال خالد أنه يطلب من زملائه تنحيته عن عضوية الهيئة التأسيسية لأنه يدين بمبدأ معين، ولهذا فهو يخشى لو بقي في الهيئة التأسيسية أن يصطدم معنا من أجل المبدأ الذي يدين به..

ومضى خالد يقول أنه رأى منعاً لأي خلاف أن يعرض علينا تعيينه في السلك السياسي، فيسافر إلى الخارج..

وقد دارت مناقشة طويلة بين الزملاء وبين خالد، وكانت مناقشة عاطفية للغاية، ثم انتهت برفض انسحاب خالد محيي الدين من الهيئة.. أي استمرار التعاون معه..

اجتماعات في الليل والنهار

وبعد ذلك توالت اجتماعات الهيئة التأسيسية، كنا نجتمع بصفة مستمرة، في مبنى القيادة بكوبري القبة، وتلك الاجتماعات المستمرة ليلا ونهارا كانت من أخطر اجتماعاتنا.. فهي اجتماعات كنا نعد فيها خطط المعارك القادمة التي لا مفر منها بعد أن أصبحنا نحن على المسرح، بعد أن خرجنا من تحت الأرض ومن نطاق الاجتماعات السرية، والكفاح في الخفاء، إلى الكفاح في العلن مع الشعب جنباً إلى جنب.. وبلا فاروق..

والعالم كله كان لا يدري شيئاً عن أهدافنا بالتحديد.. والشعب أيضاً..

لم يكن أحد يعرف ماذا بعد فاروق..

هل يبقى النظام كما هو، وتظل مصر تحكم بتاج أسرة محمد علي، وصاحب الجلالة أحمد فؤاد الثاني – الطفل – كان على عرش البلاد؟!

بل لم يكن أحد في مصر أو في خارج مصر يعرف من نحن!!

وهذا الذي حدث قد تم على أيدي من؟!

عرف الناس – فقط – في مصر وفي خارج مصر أن اللواء نجيب هو قائد عام القوات المسلحة، وأنه هو الذي سيصنع المستقبل، لأنه هو الذي طرد فاروق في ذلك اليوم من شهر يوليو!

وكنا نحن لا نريد على الإطلاق أن يعرف أحد في مصر أو في خارج مصر شيئاً عن جمال عبد الناصر أو عبد الحكيم أو أي واحد منا.. لأننا قررنا أن نفني جميعاً في شخص اللواء نجيب القائد والزعيم..

وأردنا أن يرسخ في أذهان الشعب وفي أذهان كل العالم أن نجيب هو صانع كل تلك الإحداث في شهر يوليو!

الطريق نحو الديمقراطية

وقد يسألني بعض الناس.. ولماذا اتخذتم هذا القرار؟! ما دمتم قد حققتم أخطر مرحلة في كفاحكم، وطرد صاحب العرش عدو الملايين، فلماذا لم تخرجوا إلى الشعب بأشخاصكم وهو كان سيحملكم فوق رأسه مثلما حمل اللواء نجيب؟!

وأقول لهذا البعض أننا لم نكن نريد حكماً.. لم نكن نريد أن نكون أعضاء في حكومة مصر، أو ساسة ضمن ساسة البلاد.. بل كانت كل أهدافنا هي تغيير نظام الحكم ولا يعنينا أن يحملنا الشعب على رأسه أم لا، بل الذي يعنينا هو أن يتطور هذا الشعب بعد تحطيم كل قيوده!

أما الزعامة والمجد والنفوذ والسلطان فإنها لم تكن من أهدافنا، ومنذ اللحظة الأولى حددنا لأنفسنا الطريق، فاللواء نجيب هو القائد والزعيم.. وهو كل شيء!

ونحن – كما سبق أن قلت – لسنا سوى جنود في الثورة نحميها ونمهد أمامها الطريق لكي يصل الشعب إلى الحرية والعدالة الاجتماعية وباختصار لكي يحكم الشعب في النهاية نفسه بنفسه!

ذلك كان موقفنا بعد طرد فاروق في ذلك اليوم من شهر يوليو عام ١٩٥٢..

وكان علينا أن نعمل في الليل وفي النهار لكي نحقق النصر في مراحل الكفاح القادمة، وفي كل اجتماع للهيئة التأسيسية كنا نتناقش لا حول الأهداف فالأهداف مقررة ولا سبيل إلى تغييرها، بل حول وسائل تحقيقها.. بعد أن أصبحنا نكافح جنباً إلى جنب في العلن مع الشعب في سبيل أعظم هدف وأخطره بالنسبة لحياة ملايين المصريين.. في سبيل القضاء على المستعمر!

فهو – أي المستعمر – باق لم يطرد مع فاروق.. والمعركة القادمة ستكون حتماً معه.. فليس هناك في طريق الحرية والعدالة والديمقراطية أمام الشعب سواه ويجب أن يزول..!

وكان الاستعمار في تلك الأيام التاريخية من شهر يوليو قد فوجئ باللطمة التي أصابته عندما طرد فاروق..

وإني أذكر أول معركة كانت بيننا وبين ذلك المستعمر.. أذكر اليوم الذي طرد فيه فاروق وكيف جاء إلينا سفير بريطانيا بالنيابة في ذلك الوقت ليقابلنا في القيادة بمصطفي باشا.. قبل أن نعود إلى القاهرة.

كيف بدأت المعركة وكيف انتهت؟

دخل علينا القائم بأعمال السفارة في مصطفي باشا وكنا مجتمعين، وكانت في يده مذكرة مكتوبة على الآلة الكاتبة.. وبدأ يتكلم تماماً مثلما كان سفير الاستعمار يتكلم قبل أحداث يوليو:.

وقال نائب السفير لنا وهو يقرأ في "المذكرة" سالفة الذكر أن لديه طلبات!

ثم مضى يقرأ "المذكرة" محدداً تلك الطلبات وكانت:

أولاً: أن يعلن حظر التجول في أنحاء مصر خوفاً على أرواح الأجانب لأنه يخشى – على حد قوله – أن يفقد الشعب السيطرة على مشاعره من شدة الفرح فيعتدي – أي الشعب على المحلات والمؤسسات!

ثانياً: أن لا تحدث أية ثغرة في نظام الحكم بعد خروج فاروق من البلاد، فيعين مجلس وصاية على وجه السرعة..

ثالثاً: أن تحفظ حقوق أسرة محمد على، وبالتالي حماية النظام الملكي في البلاد!

وما كاد ينتهي من قراءة مذكرته حتى فوجئ بجمال سالم وبي – ونحن نتحداه ونسخر من طلباته..

قلنا له ما دخل بريطانيا في مثل هذه الأمور، وهي أمور داخلية بحتة تخص الشعب المصري لا الانجليزي، وقلنا له أنه ليس لبريطانيا أو لغيرها أن تتدخل في مثل هذه المسائل لأن هذا الزمن الذي كان لبريطانيا وغيرها من الدول حق تقديم طلبات قد انتهى ساعة أن تحركت "المحروسة" حاملة فاروقاً إلى منفاه..

وكانت فرصة لنا لكي نلقي على ممثل بريطانيا أول درس بليغ عن الموقف في مصر بعد فاروق..!

وبعد أن ألقينا على نائب السفير الانجليزي ذلك الدرس رأيناه يتراجع بسرعة عن موقفه، وقال على الفور وبلهجة ناعمة وعلى فمه ابتسامة وديعة:

– "أرجو أن تعتبروا زيارتي هذه ودية وهي زيارة للصداقة وللنصح لا غير..".

وطلب – رسمياً – أن لا نعتبر أن هناك طلبات من بريطانيا، وأن حكومته لم تكلفه بهذه الزيارة على الإطلاق، وهو قد فعل ما فعل كصديق!

وقاطعناه قائلين:

-"ولكنك كنت تقرأ من مذكرة في يدك.. فما هي الحكاية؟!"

ومد يده لنا بالمذكرة وكانت تحوي تلك الطلبات.. وقال وهو يحاول تفسير موقفه: "أنه فعلاً كتب تلك المذكرة بنفسه لكي يتذكر ما سوف ينصحنا به كصديق"..

ولم يتركنا نائب السفير يومها إلا بعد أن أكد لنا أكثر من مرة أنه ما جاء إلا كصديق، وأن المسألة ليست تبليغاً رسمياً من بريطانيا.. وقال أنه يسحب كل ما قاله لنا وطلب منا أن ننسى ما حدث.. ثم خرج!

تلك كانت أول معركة بيننا وبين بريطانيا، وحدثت يوم طرد الملك..

وكانت زيارة القائم بأعمال السفارة – في ذلك اليوم – قد سبقتها زيارات أخرى ومواكب أخرى عجيبة وكانت كلها مواكب نفاق.. بعد أن عرف الساسة الباشاوات أن فاروقا قد رحل عن البلاد.

الثورة وزعماء الأحزاب

الموقف السياسي بعد طرد فاروق

ماذا كان عليه الموقف السياسي بالتحديد، بعد رحيل فاروق؟! هذا هو السؤال..

إنها كانت تجربة ضخمة في تاريخ مصر السياسي.

في اليوم الأول للثورة - ٢٣ يوليو - وبعد أن سرت الفرحة فوق هذه الأرض، ماذا فعل الساسة الباشاوات؟!

هل فرحوا.. وأيدوا وثبة الجيش في تلك اليوم من شهر يوليو؟!

كان الموقف واضحا.. الجيش قام ليصفي الموقف مع جلادي الشعب، والجيش يفرض إرادته على ملك البلاد.. ثم الجيش يطلب عزل ذلك الملك..! فهل وقفوا بجوار قيادة الجيش صانعة أحداث يوليو التاريخية؟!

وهم حينما كانوا زعماء البلاد، كانوا يطالبون بالاستقلال التام أو الموت الزؤام، وينادون بالحرية والعدالة والديمقراطية، كلما أرادوا حكم الشعب..!

الوفد والسعديون والدستوريون والإخوان.. وكل الهيئات السياسية في هذا البلد، هل أيدت موقف الجيش من الملك في أيام ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ يوليو، مثلما أيد الشعب ذلك الموقف؟!

أم إنهم كانوا لا يمثلون الشعب فموقفهم - إذن - يصبح مختلفا تماما عن موقفه؟!

لقد كانت أحداث تلك الأيام من يوليو تشير بوضوح إلى أن الضربات بدأت توجه لأعداء الشعب.. لتصرعهم!

كان فرض إرادة الشعب على أسرة محمد على عملاً ديمقراطياً ومن المحال وصفه بغير هذا.. فلماذا لم يقف زعماء البلاد إلى جوار قيادة الجيش في اللحظات الأولى للمعركة، وهم الذين كانوا يطالبون بحقوق الشعب وهم في مخادعهم؟!

هل كانوا يتوقعون أن يفشل الجيش في طرد الملك، وفي هذه الحالة يصبح موقفهم إذا كانوا قد أيدوا الجيش عدائياً من أسرة محمد علي؟!

وماذا عليهم لو كانوا قد وقفوا ذلك الموقف معنا، والشعب كان يؤيدنا منذ الدقيقة الأولى.. أقول ماذا كان عليهم – وهم الزعماء الغيورون على مصالح الشعب – لو وقفوا وأيدوا الخطوة الأولى، ولا أقول باقي الخطوات؟!

إني أقولها ويقولها التاريخ نفسه أن الزعماء جميعا كانوا يستهدفون في تلك الأيام مصالحهم فقط ومصالح أحزابهم..

ففي صباح ٢٣ يوليو لم يؤيدوا الجيش لأن في ذلك التأييد خطراً على تلك المصالح وذلك في حالة فشل الجيش!

أما نجاح الثورة فذلك شيء لم يتوقعوه.. أما عزل الملك فذلك شيء لم يؤمنوا بأنه سيحدث!

لهذا فهم كانوا في بيوتهم، لم نسمع لهم صوتاً، ولم نر وجهاً واحداً من وجوههم الكريمة!

كنا وحدنا في المعركة ومعنا الشعب.. أما هم دعاة الديمقراطية والدستور والحريات فقد كانوا يأملون أن يفشل الجيش ويبقى ملك البلاد على عرشه.. فلا يحرمون من مقاعد الحكم ومغانم السلطان!

حتى ذلك الرجل حسن الهضيبي وأتباعه ورثة كتاب الله في هذا الزمان، لم يؤيدوا قيادة الجيش في أيام الثورة الأولى.. لم نر وجه الهضيبي وهو الداعية الذي يطالب بالحريات والديمقراطية!

فأين كان؟!

أين كان وأتباعه وهم الذين زعموا فيما بعد أنهم صانعو الثورة!

ثم فجأة وعندما عرفوا أن الثورة نجحت وأن العرش قد سقط من فوق رأس مولاهم جاءوا إلينا مهنئين.. وهم الذين اختفوا عن أنظارنا قبل رحيل الملك المخلوع.. بل أن رجال حزب الأغلبية، الحزب الذي يدعى أصحابه تمثيل الشعب، أقول أن هؤلاء الرجال ذهب بعضهم يوم ٢٤ يوليو – والشعب والجيش في عنفوان معركتهما ضد صاحب الجلالة – وقيدوا أسماءهم في سجل التشريفات، في سراي رأس التين، رافعين إلى الأعتاب السامية فروض الولاء والطاعة، في الوقت الذي كانت قوات الجيش تستعد للتحرك إلى الإسكندرية لتطرد ذلك الملك!

إن اسم الفاضل صلاح الدين وزير خارجية الوفد لا يزال في دفتر التشريفات يشهد على صدق ما نقول!!

وجاءوا للسيد الجديد:

وكنا في القيادة نعجب من هؤلاء الزعماء.. كنا نتوقع أن يجيء إلينا بعضهم ليعلنوا عن تأييدهم لما حدث.. لكن يبدو أننا كنا نحسن الظن بهؤلاء القادة، فهم الذين صانعوا القصر والمستعمر طوال أعوام حكمهم، وهم الذين فرضوا طغيان فاروق فرضاً على الملايين العارية الجائعة المريضة!

وهم الذين انسلخوا عن طبقتهم فعاشوا في القصور كسادة يرفلون في الحرير والنعيم، ولتذهب المثل والقيم وكل المبادئ إلى الجحيم!

وبعد أن زالت دهشتنا فوجئنا بمواكبهم تتدافع علينا في مصطفى باشا بالإسكندرية، وفي كوبري القبة بالقاهرة.

وقد بدأت طلائع تلك المواكب تظهر على أبواب القيادة بعد أن عرفوا أن فاروقا قد انتهى!

إن الفاضل صلاح الدين الذي رفع آيات الولاء والطاعة للملك باسم الوفد يوم ٢٣ يوليو – أي بعد الثورة، جاء بعد رحيل فاروق ليهنئنا ويبارك ما حدث على أيدينا..

والهضيبي وصلاح الدين والزعماء الأفاضل من الأغلبية والأقلية.. وكل القطيع السياسي تزاحم على أبواب القيادة ليقدم فروض الولاء للسيد الجديد!

نفس الموقف.. فهم في الماضي كانوا يتزاحمون على أبواب القصر معلنين عن الولاء والخضوع والطاعة، واليوم يجيئون إلى أبواب القيادة بعد أن رحل صاحب القصر، وقد ظنوا أننا مثل سيدهم الذي ذهب!

ظنوا أننا ستدور بنا الرؤوس أمام نفاقهم وريائهم فنضع مقاعد الحكم بين أيديهم ببساطة ونحن راضون!

ذهب سيد وجاء سيد، تلك كانت معتقداتهم وآمالهم!

لقد كنا ونحن نستقبلهم في القيادة لا نستطيع إخفاء أسفنا، كنا نكاد نختنق من الضيق، وهم أمامنا يبتسمون في خضوع مباركين ومهنئين ومؤيدين!

وكلما جاء إلينا زعيم من زعماء البلد كنا نلتفت إلى بعضنا، ولا نملك إلا أن نشكره على عواطفه الرقيقة ووطنيته الصادقة..

كانت المسألة رياء في رياء.. وليس لها أصل من الحقيقة!

نجيب يبدي دهشته:

ولنترك حديث دعاة الديمقراطية، بل جلاديها.. فحديثهم سيجيء كثيرا في قصتنا.. وأعود إلى الموضوع:

قلت فيما سبق أن الهيئة التأسيسية عقدت أول اجتماع لها بعد الثورة وبعد رحيل فاروق واستقال جمال عبد الناصر من رياسة الهيئة في ذلك الاجتماع، ثم أجريت انتخابات جديدة ففاز جمال بالإجماع للمرة الثالثة.. ثم توالت اجتماعات الهيئة التأسيسية.

وكانت الهيئة مجتمعة بصفة مستمرة في الليل وفي النهار، فقد كان علينا أن نعد عدتنا للمعارك القادمة بعد أن أصبح كفاحنا في العلن جنباً إلى جنب مع الشعب.

ولم يحضر اللواء نجيب تلك الاجتماعات فهو لم يكن عضواً في الهيئة التأسيسية فكان يظل جالساً في مكتبه حتى ننتهي من أعمالنا، فيجئ يجلس معنا، ونحيط به كأنه أب لنا، فكان لا يترك مناسبة دون أن يعبر لنا عن عجبه من موقفنا.

كان يقول لنا أن كل شيء قد تم بمجهودنا، وبالرغم من هذا فنحن ننسب كل شيء له وحده، وهو لم يصنع شيئاً على الإطلاق.. وكان يبدي لنا خجله من هذا الموقف، فكنا ننكر في شدة أننا صنعنا شيئاً، كنا نحاول خلق روح من الثقة التامة بيننا وبينه.. وفعلا كان موقفه يزيد من ثقتنا فيه، إلى حد أن عبد اللطيف بغدادي قال ذات مرة – كما قلت من قبل – أن هذا الرجل – أي نجيب – أصبحت أحبه مثل والدي.. وربما أكثر!

جمال يتنازل عن الرئاسة لنجيب!

وفي تلك الاجتماعات المستمرة للهيئة كانت كل صغيرة وكبيرة تعرض علينا للبت فيها طوال النهار والليل.. واللواء نجيب كان يجلس في مكتبه يستقبل الصحفيين المصريين والأجانب.. ثم عندما يعلم أننا لسنا مجتمعين يترك مكتبه ويجيء ليجلس معنا.

واستمر الوضع على هذا الحال حتى منتصف أغسطس..

وفي جلسة الهيئة التأسيسية التي انعقدت يوم ١٧ أغسطس فوجئنا بجمال عبد الناصر – رئيس الهيئة – يتقدم بطلب يقول فيه أنه يتنازل عن رئاسة الهيئة للواء محمد نجيب!

وقبل أن نفيق من دهشتنا مضى جمال يقول:

– "إن الوضع أصبح حرجاً للغاية بالنسبة لنجيب، فهو لا يحضر اجتماعاتنا وهو يحمل رتبة لواء فلا يصح أن نضمه كعضو في الهيئة فحسب، بل إني متنازل له عن الرئاسة".

وتناقشنا طويلاً حول هذا الموضوع، ثم تقدم جمال عبد الناصر باقتراح بضم أربعة آخرين إلى الهيئة التأسيسية مع نجيب، على أن يكون نجيب رئيساً بالنسبة لرتبته، لأنه لا يعقل أن يجلس معنا كعضو عادي ونحن الذين قدمناه للشعب باعتباره قائدا للثورة.. وبعد أن فرضناه أيضاً قائداً عاماً للقوات المسلحة!

اقتراح من جمال سالم:

وفي نفس الوقت تقدم جمال سالم باقتراح ثان وقال فيه أنه يرى أن يكون أعضاء الهيئة التأسيسية خمسة فقط، أو ثلاثة، على أن يعود باقي الأعضاء إلى وحداتهم في الجيش، ويبقى الثلاثة أو الخمسة لقيادة الثورة!

واستمرت المناقشة حول الاقتراحين فترة طويلة، ثم انتهت بأن وافقت الهيئة على اقتراح جمال عبد الناصر، فدخل محمد نجيب – لأول مرة – الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، ومعه أربعة هم: يوسف صديق، وزكريا محيي الدين وحسين الشافعي وعبد المنعم أمين..

ومضينا نستعد للأحداث القادمة..

موقف حزب الوفد من الثورة

أصبح اللواء نجيب معنا في الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، ولم يكن عضواً من قبل ولم يكن يحضر اجتماعات الهيئة لا قبل الثورة ولا بعدها..

فكنا كلما اجتمعنا بعد طرد فاروق كان يجلس في مكتبه حتى ننتهي من الاجتماع، فيجيء إلينا لنحيط به وعواطفنا كلها معه، لم نشك في إيمانه بالثورة، فأعطيناه كل ثقتنا واعتبرناه كأب لنا.. فهو كان في كل لحظة يجلس معنا يتحدث في خجل عن إنكارنا لأشخاصنا، فيقول أن كل شيء قد تم بمجهودنا نحن وهو لم يصنع شيئاً، وبالرغم من هذا فهو يعجب لأننا ننسب كل شيء له، ونقول للشعب وللعالم أنه هو قائد الثورة، وهو صانع كل شيء..!

وهكذا تبادلنا الثقة في أيام ما بعد فاروق.

وكما قلت سابقاً فاجأنا جمال عبد الناصر في جلسة الهيئة التي انعقدت في ١٧ أغسطس ١٩٥٢ بتنازله عن الرياسة للواء نجيب، وقال لنا وهو يبرر ذلك التنازل: "إن الوضع أصبح حرجاً للغاية، فاللواء نجيب قد قدمناه للشعب باعتباره قائداً للثورة، وفرضناه قائداً عاماً للقوات المسلحة.. وفي نفس الوقت هو لا يحضر اجتماعاتنا، وهذا ما لا يصح أن يدوم".

وبعد مناقشة استمرت وقتاً طويلاً جداً وافقنا على اقتراح جمال، وأصبح اللواء نجيب رئيساً للهيئة التي ظل جمال رئيساً لها منذ أنشئت، وانتخب ثلاث مرات قبل الثورة وبعدها بالإجماع ليرأسها..

ودخل أربعة آخرون مع نجيب أعضاء في الهيئة هم: زكريا محيي الدين وحسين الشافعي ويوسف صديق وعبد المنعم أمين..

ومضينا كما قلت، نستعد لمواجهة الأحداث القادمة.. نجيب رئيساً للهيئة وجمال وكيلاً لها.

وقبل أن أمضي في سرد الوقائع التي جرت بعد ذلك، أود أن أذيع على الرأي العام في مصر وفي الخارج حقيقة ظلت في طي الكتمان منذ قامت الثورة..

وهي سر اختيار رشاد مهنا وصياً للعرش.. فقد أوضحت في الحلقات السابقة موقف رشاد مهنا أولاً بأول من الثورة..

وكان آخر موقف له سردته هنا هو قصة مجيئه إلينا في الإسكندرية يوم طرد الملك، وحيرته الشديدة واضطرابه عندما دخل علينا في القيادة هناك! وسألته يومها عن سر اضطرابه وحيرته.. فبكى وقال أنه جاء ليبارك الخطوات الموفقة للثورة..!

وقد عاد رشاد إلى القاهرة معنا في نفس الطائرة يوم ٢٧ يوليو - ولم يكن أعضاء القيادة يتوقعون أن يقرر جمال عبد الناصر حسم الموقف بالنسبة لرشاد مهنا منعاً للخلافات، وبطريقة تحقق آمال ومطامع رشاد نفسه..

فقد كان ضباط المدفعية وغيرهم من الضباط لا يعلمون حقيقة موقف رشاد من الثورة كما قلت من قبل ولم يعرفوا أنه رفض الاشتراك في العملية ورفض أن يتعاون على الإطلاق واعتقدوا عندما جاء من العريش بدون إذن، أقول اعتقدوا أن رشاد مهنا هو أحد أقطاب الثورة وقائد من قادتها..!

والموقف لم يكن يحتمل تفسيراً.. فربما حدثت بلبلة ونبتت خلافات والثورة في أيامها الأولى..

فلم نقل للضباط الحقيقة، وظل رشاد صامتا أيضاً..

وعلى هذا ظل الاعتقاد - بأن رشاد مهنا قطب من أقطاب الثورة - سائدا بين ضباط المدفعية وغيرهم.

***

وأمام هذا الموقف شعر جمال عبد الناصر أن رشاد مهنا يريد شيئاً ما..

وعرف جمال الشيء الذي يريده رشاد..

وأراد جمال أن يعطيه ذلك الشيء حتى لا تحدث خلافات أو انقسامات نتيجة للفهم الخاطئ لموقف رشاد مهنا..

ورشاد يهوى المظاهر والنفوذ والسيطرة.. رشاد طوال حياته هكذا يجري خلف المظاهر ويتشبث بها، ولا يعنيه شيء على الإطلاق سوى عشقه للمظاهر.

ودون أن نعلم، توجه جمال عبد الناصر إلى علي ماهر وكان رئيساً للوزارة في ذلك الوقت. وقال له أن القيادة تريد أن يكون هناك من يمثلها في

مجلس الوصاية وطلب جمال من على ماهر أن يكون رشاد مهنا هو الذي يمثلنا في مجلس الوصاية..

وتبين بعد مراجعة الدستور أنه لكي يعين أحد وصياً لابد أن يكون وزيراً سابقاً على الأقل..

وزالت العقبة، فأتفق جمال على تعيين رشاد وزيراً للمواصلات ليصبح بعد ذلك وصياً على العرش.

وبعد أن أنهى جمال المسألة عاد إلينا في القيادة وأخبرنا بما تم. وبالرغم من أنها كانت مفاجأة لنا، إلا أننا اعتبرنا ذلك حلاً رائعاً لمأساة رشاد مهنا.. ولمشكلته التي كنا جميعاً نشعر بخطورتها. وعندما وقعت المأساة وأصبح رشاد وصياً على العرش استنتج الناس في مصر وفي خارج مصر أن ذلك الرجل هو قطب الأقطاب.. في الثورة، تماماً كما كان شائعاً على اللواء نجيب..

والواقع أن رشاد مهنا كان يتصرف عندما أصبح وصياً للعرش باعتباره ملك البلاد.. وسأروي في حلقة أخرى كيف كان رشاد مهنا يتصرف وهو جالس في قصر عابدين!

أنه لم يشبع بالوصاية فبدأ يعد لنفسه مستقبلاً أكبر.. ونسى الثورة كالعادة..

ويكفي اليوم أن أشير إلى كلمة قالها ردا على طلب للقيادة وكنا نعتبره ممثلاً لنا..

قال رشاد يومها وهو يرفض الموافقة:

- "إني أملك وأحكم أيضاً".

نصحونا بأن نحكم..

وأعود إلى قصتنا..

قلت أننا بدأنا نستعد بعد دخول نجيب الهيئة التأسيسية لمواجهة الإحداث القادمة، وبدأنا نناقش الوضع السياسي في البلاد، بعد خروج فاروق..

والموضوع الذي شغل وقتاً كبيرا من مناقشاتنا في تلك الأيام هو دعوة برلمان الوفد الذي كان قائماً قبل حريق القاهرة للانعقاد، والنحاس وسراج الدين كانا في مصايف أوربا يستشفيان في ذلك الوقت.

وأذكر أنه بعد ٢٦ يوليو أي بعد خروج فاروق جاء إلينا أناس كثيرون في نشوة النصر ونصحونا بأن نجلس نحن على مقاعد الحكم..

لقد ظنوا أن بريق النصر سيخدعنا..

اعتقدوا أننا طلاب حكم، لكنهم فوجئوا بنا نقول لهم: لا.. لا..

وكررناها في حزم وقوة.

وأعود إلى الفترة التي سبقت الثورة بوقت قليل..

عندما كنا نتصل بكل الهيئات ونحن نستعد لإشعال نار الثورة..

لقد فكرنا في تلك الفترة أن نطلق شرارة الثورة الأولى بأن نفرض حزب الأغلبية وقتذاك – الوفد – على الملك.. واعتبرنا هذه الخطوة بداية للمناورة، واتصلنا فعلاً بفؤاد سراج الدين "باشا" وأوفدنا إليه البكباشي أحمد أنور أحد الضباط الأحرار – وقائد البوليس الحربي – وذهب أحمد أنور ليسأل فؤاد سراج الدين عن موقف حزب الوفد في حالة ما إذا فرضه الجيش على الملك؟!

وقد طلب سراج الدين مهلة ليرد على ذلك السؤال.. حددها بشهر..

الوفد يخشى المعركة..

وبعد شهر جاءنا رد سراج الدين.. وهو الرفض لأن قطب الوفد، ووارث الزعامة رأى أنه من المحال أن ينجح الجيش في هذه العملية..

عاد أحمد أنور إلينا وهو يحمل رد الوفد.. أن حزب الأغلبية لا يؤمن على الإطلاق بأن هناك قوة يمكنها فرض أي شيء على الملك، لهذا يعتذر سراج الدين عن تحديد موقف معين – الوفد – في مثل هذه الحالة..

وفهمنا يومها مدى إيمان قيادة الوفد بالشعب.. فتلك القيادة لا تؤمن على الإطلاق بالكفاح العملي ضد أعداء الشعب "أي القصر" بل تترقب وتنتظر تحسن الأحوال حتى يستدعيها ملك البلاد إلى حكم البلاد..

أما فرض إرادة الشعب على الملك فذلك شيء لا يؤمنون به بل يهابون الاشتراك في إظهار تلك الإرادة.

وزيادة على هذا فقيادة الوفد قد رأت فيما عرضناه عليها خطراً قد يؤدي بها في حالة الفشل، وهي قيادة قد قررت عدم خوض معارك مع الشعب أو الجيش ضد الأعداء، بل قررت مهادنة هؤلاء الأعداء والتعاون معهم إذا أرادوا – أي الأعداء – تلك المعاونة.. وليذهب الشعب إلى حيث يشاء.

وفهمنا يومها أيضاً أن قيادة الوفد قد انسلخت نهائياً عن طبقات الشعب المكافحة المتطلعة إلى المستقبل.. انسلخت عنها في اللحظة التي ضمت فيها تلك القيادة طبقة الإقطاعيين وهي الطبقة التي اتحدت مصالحها مع مصالح القصر والاستعمار أيضاً.. الطبقة التي لولاها لما كان في البلاد قصر ولا استعمار ولا جوع ولا عري ولا مرض.. هي الطبقة التي تشرب الدم البشري وتريد أن تظل ممعنة في ارتكاب هذه الجريمة إلى الأبد..!

الوفد يتجه إلى مصدر القوة:

واستعرضنا يومها مواقف الوفد – أو بعبارة أكثر صدقاً – مواقف قيادة الوفد منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى حريق القاهرة!

وكان لابد أن نستعرض ذلك الموقف.. فالمسألة هي مسألة القضية الوطنية وليست شيئاً آخر.. وعلينا أن نعرف أعداء هذه القضية ثم علينا أن نعرف أيضاً قادتها الحقيقيين!

لقد كان موقف قيادة الوفد – وهو حزب الأغلبية – هو الاتجاه إلى مركز الثقل في السياسة المصرية، ومركز الثقل كان في يد كليرن السفير الذي كان يحكم البلاد.. ثم عندما انتقل مركز الثقل هذا إلى يد الملك بعد الحرب العالمية الثانية – وكان ذلك من خطة الاستعمار في ذلك الوقت – اتجه الوفد إلى القصر وهادنه.. تماماً مثلما هادن كليرن وارتمى في أحضانه!

وهذا التحول المؤسف في سياسة الوفد ظهر واضحاً للعيان بعد أن أجريت الانتخابات على يد حسين سري وفاز الوفد بأغلبية ساحقة، وأصبح على الملك أن يدعو الحزب الفائز ليتولى الحكم..

وسواء كان الوفد قد كسب المعركة الانتخابية بالباطل أو بالحق فهو – أي الوفد – قد فاز على أي حال وتربع أقطابه على مقاعد الحكم بعد أن ظلوا خمسة أعوام بعيدين عنها.. في انتظار الفرج.

أصبح الوفد – إذن – في يده كل الفرص لتحقيق مصالح الشعب وأهدافه العظمى بعد فوزه في تلك الانتخابات.. فهل فعل؟

لقد استبد الرعب بالملك عندما عرف نتيجة الانتخابات!

انتابه الفزع، فالوفد قادم ليصفي معه الحساب.. ليأخذ منه حق الشعب!

وليلة أن أذيعت نتيجة الانتخابات استدعى الملك حسين سري رئيس الوزراء وقال له:

- "تعالى حوش عني الوفد"!

وكان مفروضاً أن يخوض الوفد – باعتباره ممثلاً للشعب كما يقولون – المعركة في الحال ضد استبداد القصر.. فإن الفرصة الذهبية التي كان ينتظرها قد هبطت بين يدي قادته.. فهم أصبحوا حكاماً!

وفي يناير ١٩٥٠ استدعى الملك مصطفي النحاس ليكلفه بتأليف الوزارة بعد نجاح حزبه في الانتخابات.. وكان الملك يرتجف عندما دخل النحاس عليه في عابدين.. كان يتوقع استفزازاً أو حتى ابتسامة شماتة تظهر على فم صاحب المقام الرفيع، بعد أن فاز رغم أنف الملك وأصبح حاكماً رغم أنفه أيضاً.. وهو الذي ظل فريسة لاضطهاده طوال خمسة أعوام قضاها بعيداً عن لاظوغلي.. وعن النفوذ والصولجان!

وسمع الملك صوت صاحب المقام الرفيع يتكلم.. سمعه يقول له:

- "أنا ليّ طلب..".

وتوقع فاروق شراً.. ظن أن زعيم الأمة قرر الاشتباك معه في معركة وهو لم يزل في أول الطريق.. وقبل أن تختفي صفرة الخوف من وجه فاروق بعد ذلك السؤال سمع النحاس يقول له:

- "طلبي.. إني أبوس أيد مولانا!"

وهكذا سقطت قيادة الوفد نهائياً في قبضة أعداء الشعب فهي إذن قيادة غير شعبية.. وهي القيادة التي أيدها الشعب وجاء بها إلى الحكم لتحمي مصالحه وتعمل من أجله.. ففوجئ بها تحمي مصالح القصر وتعمل من أجل سراج الدين، وباقي الباشاوات أعضاء القيادة الوفدية!

ومن أجل هذا لم نعجب حين حمل إلينا أحمد أنور مندوب الضباط الأحرار إلى الوفد رد سراج الدين.. الذي اعتذر فيه عن التعاون معنا، وكنا قد قررنا أن نفرض الوفد على الملك كخطوة أولى لإشعال نار الثورة.

يريدون حكماً ونريد ثورة:

وبعد ذلك – أي بعد أن رفض فؤاد سراج الدين أن يخوض الوفد المعركة مع الضباط الأحرار – قررنا عدم التعاون إطلاقاً مع الهيئات والأحزاب في مصر.. لأن العقلية التي تسيطر على قادتها تختلف تماما عن عقليتنا.. فهم يريدون حكماً ونحن نريد ثورة.. نحن في ناحية وهم في ناحية أخرى.. نحن نريد تغيير نظام الحكم، وهم يريدون الحكم نفسه!

يريدون الحكم في كنف فاروق.. وكريم ثابت وبوللي وخدم القصور..

أما المعارك جنباً إلى جنب مع الشعب ضد فاروق فذلك شيء يرعبهم ويجعلهم يهربون من الميدان.. إلى المخادع الناعمة في انتظار العطف السامي.

كانت المسألة في برنامجنا هي كفاح من أجل الشعب، أما المسألة التي في برنامجهم فهي كانت كفاحاً من أجل الحكم..

لهذا قررنا استبعاد كل الهيئات والأحزاب من كل خططنا في المستقبل..

وقررنا في نفس الوقت الاعتماد على أنفسنا.. على تشكيل الضباط الأحرار، فمن بين صفوف هذا التنظيم المناضل يمكن أن تظهر القيادة السياسية الوحيدة التي لا تتعارض مصالح أفرادها مع مصالح طبقات الشعب المتطلعة إلى التحرر.. فكل الضباط الأحرار من عائلات متوسطة وليسوا أبناء باشاوات وليسوا من صلب الارستقراطية المصرية الخائنة المتعاونة مع القصر وكل أعداء الشعب.

رأيان يتصارعان:

غير أننا بعد عزل الملك بدأنا نناقش الوضع من جديد. وفي كل اجتماعات الهيئة التأسيسية المستمرة دائماً في تلك الأيام لم يقف أحد منا لينادي بأن نتولى نحن الحكم.. وإنما كان هناك رأيان يتصارعان.

الرأي الأول يقول: بما أننا كنا ننوى أن تبدأ الشرارة الأولى للثورة بفرض حزب الأغلبية على الملك فماذا يمنع لو استدعينا برلمان الوفد لتسيير الأمور ونجلس نحن نراقب الأحوال والخطوات وتنفيذ أهداف الثورة.

والرأي الثاني يقول: لا يصح أن يحدث هذا.. فالوفد وكل الأحزاب والهيئات بما فيهم الإخوان قد تخلفوا عن التعاون معنا قبل الثورة، واعتقدوا عندما اتصلنا بهم أن المسألة خيال في خيال.. وتخلفهم هذا معناه أنهم ليسوا ذوي نوايا حسنة بالنسبة للشعب، ومعناه أيضاً أنهم لا يؤمنون بما ينادي به الشعب، وكفاحهم من أجل مصالحهم هم لا مصالح الشعب. وقيادة كل هيئة وكل حزب أصبحت معزولة عن الشعب تماماً.. ومصالحها متناقضة مع مصالح الشعب فهي – أي تلك القيادات – سوف تكون حرباً على أهداف الثورة لو مددنا أيدينا إليها.

ومضى أنصار الرأي الثاني يفسرون أهداف الهيئات والأحزاب ويقارنوها بأهداف الشعب. ثم قالوا أن الثورة تحتم إلغاء كل تلك الأحزاب والهيئات التي تآمرت على الشعب طوال الربع قرن الأخير.. وهي على استعداد في كل وقت للتآمر على مصالحه حتى بعد خروج فاروق.. فلن يعدموا طاغية آخر وأعداء آخرين للشعب تتفق مصالحهم مع مصالح هؤلاء الساسة القدامى. وفي هذه الحالة ماذا سوف يحدث!

كأننا لم نقم بثورة.. وكأننا لم نطرد صاحب العرش، وكأننا كافحنا وأصررنا على الكفاح من أجل أن نسلم البلد لهذا القطيع المتآمر والخاضع للاستبداد المتطلع إلى لاظوغلي لا إلى الشعب!

واستمرت المناقشة واحتدمت في تلك الاجتماعات للهيئة التأسيسية. وكان الرأيان المتصارعان هما محور كل المناقشات!

التطهير المزيف للأحزاب

كان رسل الوفد يقفون أمامنا وينبري قطب منهم، ويقول:

- "اسمعوا.. لا خلاص لكم إلا بالوفد".

وقال لنا الإخوان:

- " نحن لها.. نحن الذين سننقذ الموقف.. أما غيرنا فيخدعكم ويغرر بكم.. اجعلونا أوصياء على الثورة، هذا هو الحل الوحيد، ولا خلاص لكم إلا بوصايتنا".

وكنا نؤمن بأن الثورة لا يمكن أن تمضي في طريقها بديمقراطية الوفد والإخوان والسعديين.. ديمقراطية النظام الملكي الإقطاعي القائم في كنف القوات المحتلة.. ديمقراطية العبيد..

وكنا نريد أن نجعل الجماهير المصرية صاحبة الحق المقدس في كل شبر من أرض مصر بعد طرد فاروق، تتيقظ وتعي موقفها تماما إزاء الأحداث التي ستترى بعد ذلك حتى لا تضلل، فينتخب الفلاحون صاحب العزبة نائباً عنهم وهو سارق أرزاقهم، وحتى لا تسير مظاهرة من أفراد مساكين، ويقودها مشعوذ أو أجير لتهتف:

- "حرامي.. حرامي.. لكن عايزينه".

وطالبنا الأحزاب بالتطهير..

ومنهم زرق الأنياب وقدامى السياسة والحكم، أنهم يستطيعون أن يضحكوا علينا..

وعقد الوفد اجتماعاً وأصدر قائمة..

وعقد السعديون اجتماعاً وأصدروا قائمة..

وعقد كل حزب اجتماعاً وأصدر قائمة..

وكانت حكاية التطهير مهزلة.

ولو كنا سلمنا بذلك التطهير المزيف للأشخاص والبرامج لما كان في مصر ثورة، ولا كانت مصر تستطيع أن تثور قبل عشرات السنين.

ماذا كانت تريد..؟

لقد وقفت بالقارئ في آخر حلقة من القصة عند موقف الأحزاب من هذه الثورة، وقلت أننا فتحنا أمامهم الأبواب ومددنا أيدينا لكل زعيم منهم وقلنا: تعالوا.. ساهموا معنا في هذا العمل التاريخي الكبير.. تعالوا نصنع – جميعا – مستقبل شعب قضى عمره يجوع ويمرض ويموت.

وترددوا – جميعاً – ولم يمد أحدهم إلينا يده.. كانوا يعتقدون أن الذي حدث في ٢٣ يوليو ما هو إلا أحد الانقلابات المعروفة العادية، والتي قد تزول بين يوم وليلة، وبعد ذلك يتولون زمام الأمور من جديد.

لم يفهموا على الإطلاق أنها ثورة وإلا فما معنى ترددهم؟!

قرروا أن ينتظروا ليروا إلى أين تتجه الأحداث بعد ذلك اليوم من يوليو. وفي نفس الوقت، ونحن نعد خططنا لتغيير نظام الحكم، كان الرسل يجيئون إلينا ويروحون.. رسل الوفد يقفون أمامنا وينبري قطب منهم ويقول:

– "اسمعوا.. لا خلاص لكم إلا بالوفد.. صدقونا.. أنتم لن تتمكنوا من صنع شيء على الإطلاق، إلا إذا أيدناكم نحن الوفديين، فلابد من حزب سياسي يقف إلى جواركم".

ولا ينسى "القطب" أن يستعرض أمامنا قائمة الأحزاب المصرية الموجودة.

وبعملية بسيطة نخرج من الاستعراض بأن الوفد هو الحزب الوحيد الذي لا نجاة للثورة إلا به، لأنه حزب الأغلبية. ويخرج أقطاب الوفد من عندنا ليدخل أقطاب آخرون هم الإخوان، وفي بساطة وبمنطق غريب يتحدثون عن أنفسهم كأنهم هم صناع التاريخ والتطور الإنساني.

قال لنا الإخوان: "نحن لها.. نحن الذين سننقذ الموقف أما غيرنا فيخدعكم ويغرر بكم.. اجعلونا أوصياء على الثورة.. هذا هو الحل الوحيد، ولا خلاص لكم إلا بوصايتنا".

من يريد أن يثور معنا؛

وكنا نلاحظ بوضوح ونحن نستمع إلى كلام "الإخوان" أنهم على ثقة من قدرتهم على خداعنا، فكنا نلوذ بالصمت ولا نشعرهم بأننا نفهم كل ما يدور في

رؤوسهم.. الجميع كانوا ينظرون إلينا باعتبارنا صغاراً لا قدرة لهم على مواجهة الأحداث.. كأنهم كانوا بأعمارهم المديدة قادرين على مواجهة أحداث ما قبل يوليو.. فما بالهم بما بعد ذلك التاريخ؟!

الواقع أننا – في ذلك الوقت – كنا في حيرة، فقد كانت الخطة التي وضعناها في إخلاص شديد تقضي – فعلاً – بالتعاون مع من يريد أن يثور معنا، من يفهم أن المسألة هي العمل والعمل والعمل.. وليس الحكم!

ومن أجل هذا طلبنا من كل الأحزاب أن تطهر نفسها فوراً كشرط للتعاون من أجل بعث مصر وتغيير شكل النظام القائم.

ديمقراطية العبيد:

قلنا لهم: انسوا برامجكم القديمة وأساليبكم الماضية، وتخلوا عن معتقداتكم التي كانت تتفق مع الوضع قبل يوليو، وقد اختلف الوضع بعد ذلك التاريخ.. ولا سبيل إلى العمل أو التعاون والاشتراك في "الثورة" بهذه العقلية وبتلك البرامج والمعتقدات!

كنا نؤمن بأن "الثورة" لا يمكن أن تمضي في طريقها بديمقراطية الوفد والسعديين والإخوان، فتلك كانت ديمقراطية النظام الملكي الإقطاعي القائم في كنف القوات المحتلة.. أي ديمقراطية العبيد!

فالبرلمان والدستور وكل الأشكال الوهمية للحرية.. والتي كانت قائمة قبل يوليو كانت وسيلة لحكم الشعب بالقوة ومنعه من نيل حق واحد من حقوقه التي كانت في قبضة أعضاء البرلمان والحكام وحماة الدستور.

كان الإقطاعي يمثل تمثيلاً – ديمقراطياً – مصالح الفلاحين.. عبيده! فأين الديمقراطية هنا، وكيف كان يمكن للثورة أن تقضي على الإقطاع إذا رأى قادتها أن يجعلوا مبدأ التعاون مع الوفد وغيره من الأحزاب هو الأساس الذي سيقوم عليه النظام بعد يوليو؟!

ذلك كان الموقف بالتحديد، لا ديمقراطية إذن ولا دستور ولا حريات ولا برلمان ولا ممثلين للأمة، لا شيء من هذا على الإطلاق كان يمكن أن تبقى عليه الثورة إذا لم تتطهر الأحزاب وتغير من برامجها، من أشخاص القائمين عليها وهم الأعداء الحقيقيون للشعب.

وليس هناك غيرهم يمكن أن يعطل التطور المحتوم للناس في مصر بعد سقوط فاروق.

النائب والشعب..

وقد كنا في ذلك الوقت نحاول أن نجد طريقة نغير بها من أساليب الكفاح السياسي الوفدي والسعدي والدستوري والاخواني.. كنا نريد أن نجعل الجماهير المصرية صاحبة الحق المقدس في كل شبر من أرض مصر بعد طرد فاروق تتيقظ وتعي موقفها تماماً إزاء الإحداث التي ستترى بعد ذلك حتى لا تضلل فينتخب الفلاحون صاحب العزبة نائباً عنهم وهو سارق أرزاقهم، وحتى لا تسير مظاهرة من أفراد مساكين، ويقودها مشعوذ أو أجير لتهتف:

- "حرامي.. حرامي.. لكن عايزينه".

كيف يفهم الفلاح:

كان حتماً أن يحدث التغيير في وعي الجماهير ليسير جنباً إلى جنب مع دورات الثورة، فكيف يكون ذلك، والثورة كانت بيضاء لم يشترك فيها الشعب بالسلاح كما هو الحال في كل الثورات التي غيرت نظم الحكم والاقتصاد؟!

كيف كان يمكن أن يفهم الفلاح الذي في "درين" أن الهتاف بحياة عبد العزيز البدراوي نائب مركز طلخا جريمة.. بعد يوليو؟! وهو - أي فلاح درين - لم يهدم الإقطاع بفأسه حتى كان يمكن أن يعي معنى الثورة؟! كنا نواجه حالة تاريخية شاذة.

كنا لا نريد أن تسيل الدماء في درين وفي القاهرة وفي كل المدن والقرى حتى يعي الشعب موقفه، ويفهم أن الثورة ما قامت إلا من أجله هو ومن أجل تحديد مستقبله، لا من أجل طبقة معينة.

والدماء كان يمكن أن تسيل.. كان الجيش على استعداد لخوض المعركة المسلحة إلى جانب الشعب في درين وفي القنال وفي أقاصي الصعيد.. لكن ما ثمن كل هذا.. وما نتيجة الدم المراق؟

حيرة التاريخ..

وماذا لو استطعنا أن نحقق للشعب كل حاجاته وأهدافه بلا دم؟! هنا يقف التاريخ حائراً إلى حد ما ليرقب النتيجة.. فهي حالة شاذة كما قلت في تاريخ الثورات!

وفي حجرتنا القائمة هناك في مبنى القيادة بكوبري القبة، كنا نجلس لنعد خطة الزحف الأبيض على أعداء الشعب.. الزحف الذي يمتد بلا ضحايا.. بلا بارود ولا أشلاء ولا رقاب طائرة.

صحيح أن الثورة الدموية تخلق الوعي السياسي في الحال بين الجماهير وتجعل الشعب يرى طريقه فيمضي كالمارد فيه حتى النهاية، لكن مقومات الثورة الدموية التي كان من المفروض أن تحدث بعد يوليو لم تكن موجودة.. فلا الشعب يريد الدم ولا الجيش.

وليس في البلاد ميادين لمثل هذه المعارك، لأن الموقف في مصر مختلف عنه في كل بلاد الدنيا.. الظروف، والأوضاع والوعي والتنظيم الثوري النابع من أعماق الشعب.. ثم هناك الحقيقة الكبرى في قصة ثورتنا، وهي أن قيادة الثورة ظهرت بين صفوف القوات المسلحة فسيطرت تلك القيادة على هذه القوات.. وهذه الحقيقة ذكرتها في الفصول السابقة مراراً عديدة.. فهي – إذن – حقيقة تاريخية ومعناها أنه لا مجال على الإطلاق لمعركة مسلحة بين الشعب وأعدائه مادام الشعب قد أصبح يملك السيطرة على قواته المسلحة، ومادامت قيادة تلك القوات أصبحت تنادي بمطالب الشعب.. وتعمل على تحقيقها.

أين هم الأعداء الذين يمكنهم أن يقفوا أمام هذه الحقيقة دون أن يستسلموا..

لا البدراوي ولا أي عدو آخر يمكنه أن يتمسك بالأرض إذا رأى دبابة تقف أمام قصره في دربن وينذره قائدها بتسليم الأرض لأصحابها..

إن الموقف بالتحديد هو أن الدبابة كانت تحمي البد راوي من فلاحيه، ثم أصبحت بعد يوليو تحمى الفلاحين من البدراوي!

ومضينا في زحفنا الأبيض:

وأمام هذا الوضع التاريخي رأينا أن نمضي في زحفنا الأبيض على أعداء الشعب حتى النهاية.. ومن أجل أن نطمئن الجميع – حتى الأعداء – طلبنا من الأحزاب – كما قلت – أن تطهر نفسها وتعد برامج تتفق مع التطور المحتوم للشعب بعد يوليو.

لكن – كما قلت – أعتقد أقطاب تلك الأحزاب أنهم يستطيعون أن يضحكوا علينا، نحن الضباط الشبان الصغار، فهم زرق الأنياب وقدامي في السياسة والحكم.. أما نحن.. فمن نكون؟

وانتظرنا من زرق الأنياب هؤلاء أن يطهروا أنفسهم ويغيروا من برامجهم في صدق وليس كما فعلوا بعد ذلك كما سيجيء فيما بعد.. لكنهم ظلوا يناورون مما اضطرنا إلى إنذارهم، ونشر الإنذار في الصحف وأذيع، وقد جاء في نهايته تلك العبارة: "وقد أعذر من انذر..".

التطهير المزيف..

وهنا شعروا أن "الثورة" جادة في المسألة، وأن الموقف ليس كما كانوا يعتقدون مجرد كلام في كلام..

وأسرع حزب الوفد وعقد اجتماعاً، وأدار الاجتماع الأعداء الذين ما قامت الثورة في مصر إلا لتقضي عليهم، بل ما قامت أية ثورة في أي قطر من الأقطار إلا للقضاء على أمثالهم..

المهم أن الوفد عقد الاجتماع والسلام، واصدر الوفد قائمة بأسماء بعض أعضائه الذي قرر إخراجهم من الحزب لتطهيره. وهؤلاء الأشخاص لم يكن لهم نفوذ في الحزب بل لم يكن هناك مبرر لإخراجهم، ولا أحد يعلم لماذا قرر الوفد إخراجهم، وقد ظنوا كما ظن غيرهم فيما بعد أنهم ضحكوا علينا بعمليات التطهير والتغيير المزيفة تلك.. وكانت حكاية التطهير مهزلة..

ولو كنا سلمنا بذلك التطهير المزيف للأشخاص والبرامج لما كان في مصر ثورة ولا كانت مصر تستطيع أن تثور قبل عشرات السنين!

تحديد الملكية

تحديد الملكية والأحزاب

كان هناك رأيان يتصارعان في اجتماعات الهيئة التأسيسية، وقد احتدمت المناقشة بين أعضاء الهيئة حول الرأيين..

وكان أصحاب الرأي الأول يرون أنه بالرغم من أن قيادة الوفد قد انسلخت عن الشعب حين ضمت إليها الإقطاعيين، إلا أنه يمكن استدعاء برلمان الوفد الذي كان قائماً قبل أحداث يناير سنة ١٩٥٢ لتسيير الأمور، على أن نراقب نحن الأحوال والخطوات وتنفيذ أهداف الثورة.. ذلك هو الرأي الأول.

أما الرأي الثاني فيقول أصحابه أن حزب الوفد والإخوان وكل الأحزاب في البلد، يكافحون – جميعاً – من أجل مصالحهم فقط، وليس من أجل مصالح الشعب، والثورة قامت لتحقيق المصالح الشعبية، فوجود تلك الهيئات والأحزاب – إذن – معنا سيعطل الثورة وربما قضى عليها!

وظلت المناقشات دائرة فترة طويلة، ليلا ونهاراً حول تلك الموضوع.. فإلى أي الرأيين اتجه الأعضاء في النهاية؟!

في النهاية اقتنع الأعضاء بالرأي الثاني..

اقتنعنا أن كل الأحزاب والهيئات بما فيها الإخوان ما هي إلا نتاج طبيعي للوضع السياسي في البلاد خلال ربع القرن الأخير.. أي إنها ما وجدت إلا لتعمل في كنف الاستعمار وعملاء المستعمر والقصر.. ورواسب الاحتلال باقية في رؤوس قادة تلك الأحزاب والهيئات لأن مصالحهم ارتبطت به وبوجوده والنظام القائم في البلاد.. فالتعاون بين تلك الهيئات والأحزاب وبين الاستعمار هو تعاون من أجل تبادل المصالح والمنافع، فإذا مدت الثورة يدها لهؤلاء القادة فمعنى هذا هو أن الثورة ستهادن أيضاً الاستعمار وتبقى على النظام القائم وكل شيء.. أي أنها لا تكون ثورة.. ولم يكن هناك ما يدعو لقيامها مادامت أهدافها هي جعل الأحزاب والهيئات التي وجدت في البلاد خلال ربع القرن الأخير تتولى زمام الأمور..

واستعرضت خلال المناقشة المفاسد التي كانت الطابع الواضح في قيادات الوفد والإخوان وباقي القطيع!

وعلى هذا الأساس أعدت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار قراراً يقضي بحل الأحزاب كلها والإخوان أيضاً، وإبعاد كل السياسيين القدامى الذين تعاونوا مع القصر والمستعمر، وانسلخوا عن القاعدة الشعبية نفسها، والتي بدونها لا يصبح للحزب أو الهيئة مهما كانت صفتها دور في تطور الشعب أو تحريره من المظالم كلها.. أو في خلق الحياة الديمقراطية الصحيحة التي قامت الثورة من أجل إرساء قواعدها الصحيحة.

وفي نفس الوقت يفسح المجال أمام جيل سياسي جديد يؤمن بالشعب وبأهدافه ويرتبط بمصالحه ولا ينسلخ عن طبقات الأمة التي قامت الثورة من أجل تحطيم قيودها!

جمال يقول.. هذه ديكتاتورية

وبعد أن وصل أعضاء الهيئة إلى هذا القرار، وقف جمال عبد الناصر.. واعترض على هذا القرار.. وقال:

– "يا جماعة.. إني أخشى أن يفهم البعض من هذا القرار أننا نتجه نحو الديكتاتورية!".

ومضى جمال يقول لنا:

– "إن ثورتنا ديمقراطية، وهي قد قامت أساساً لإعادة حقوق الشعب بعد انتزاعها من أعدائه، الملك والاستعمار والحكام، ونحن لا نستطيع أن نصنع ديكتاتورية في هذه البلاد، لأن الديكتاتورية لا تقوم إلا لحماية مصالح طبقة، والبطش بمصالح الطبقات الشعبية الأخرى.. وليس في مصر طبقة يمكن أن تقام ديكتاتورية تحميها من الشعب إلا الإقطاع، ونحن في سبيل ضرب ذلك العدو الذي ربض على صدور الشعب طوال مئات السنين، فلمصلحة من تقام الديكتاتورية؟!

لمصلحة الرأسماليين؟!

إننا قمنا بثورتنا لتحرير الشعب من استغلال الرأسماليين فالديكتاتورية إذن تصبح ضد أهداف الثورة!".

وبدأنا ننصت إلى كلمات جمال وهو يتحدث إلينا معترضاً على قرار حل الأحزاب والهيئات، ومنع السياسيين القدامى من مزاولة أي نشاط سياسي.

وعاد جمال يقول:

- "أحب أن تفهموا أن الديكتاتورية معناها أن طبقة معينة تريد استغلال باقي الطبقات الأخرى في الأمة، وهي، أي تلك الطبقة، لا تستطيع أن تستغل الشعب إلا في ظل النظام الديكتاتوري. فأي طبقة تلك التي نريد نحن أن نستغل الشعب لحسابها ونبطش به، ونحكمه بالكلمة المجردة من أجل بقاء الطبقة المذكورة وحماية مصالحها؟

إننا لا نمثل طبقة الرأسماليين فنحن جميعا أبناء فلاحين ومن عائلات متوسطة فليست لنا مصلحة في إقامة نظام ديكتاتوري.. فمصلحتنا هي نفس مصلحة جميع أبناء العائلات المتوسطة والفقيرة والكادحة.. هي نفس مصالح الشعب، وتلك المصالح على اختلافها لا تتحقق إلا في ظل نظام ديمقراطي سليم يفرض إرادة تلك الطبقات على الحاكم. فيظل ملتزماً حدودها..".

والديكتاتورية لاستعمار الشعوب!

ومضى جمال يقول:

- "ومسألة ثانية وهي أن الديكتاتورية تقام أيضا من أجل استعمار بلاد أخرى..

بمعنى أن تقرر دولة ما فتح أسواق عالمية أمام إنتاجها وتكون تلك الأسواق تسيطر عليها دول أخرى، وفي هذه الحالة تقيم الدولة المذكورة ديكتاتورية في أرضها لتوجيه شعبها إلى الحرب، أي لاستعمار الدول التي تريد الاستيلاء على أسواقها..

فهل نحن نريد استعمار دول العالم؟

لا شيء من هذا على الإطلاق له وجود في رؤوسنا أو في حياتنا.. فكيف إذن نقيم حكماً ديكتاتورياً؟

إنه من المحال – مادياً – إقامة مثل هذا النظام في مصر! لأن الوضع في مصر يحتم إقامة نظام ديمقراطي".

ومضى جمال يومها يتحدث عن الديكتاتورية والديمقراطية حتى قال:

– "أنا بطبيعتي أنفر من الديكتاتورية ولا أتصور أنه من الممكن العمل في ظلها وأخشى أن يفهم بعض الناس هنا أو في الخارج من هذا القرار الذي أعددتموه أننا نستهدف إقامة نظام ديكتاتوري.. ففي هذا الفهم الخاطئ تعطيل للثورة، وعرقلة لخطواتها. وستحاول الرجعية المصرية، وكل الأعداء، استغلال هذا الموقف وهذا الفهم الخاطئ للقرار المذكور في تشويه ثورتنا!

صحيح أن كل الهيئات والأحزاب في مصر، كما وضح لنا، لا تصلح على الإطلاق بوضعها الراهن لحكم البلاد أو للعمل إلى جانب الشعب، لكنني أرى أن نعطي الجميع فرصة ولا داعي لهذا الإجراء العنيف، فربما أودى بنا هذا إلى الديكتاتورية، والفرصة التي سنعطيها للأحزاب والهيئات هي أملنا الأخير فيها.

لنعط الأحزاب هذه الفرصة لتصلح من برامجها وتحدد أهدافها فإذا ما حددت تلك الأهداف والبرامج، وطهرت نفسها من عوامل الفساد والرجعية أصبح من السهل عليها – أي الأحزاب – أن تتعاون مع الثورة، وتمضي معها في طريق واحد.. فتتبلور كل الجهود داخل الثورة ويصبح تحقيق الديمقراطية السلمية أمراً هيناً في الشهور القادمة".

وختم جمال عبد الناصر كلمته في ذلك الاجتماع التاريخي بقوله:

– "إننا إذا أعطينا الأحزاب والهيئات فرصة لتطهير نفسها وتحديد برامجها وأهدافها بما يتفق والوضع الجديد بعد فاروق.. نكون قد أشركنا الشعب معنا في الحكم على صلاحية تلك الأحزاب والهيئات أو عدم صلاحيتها"!

وبعد أن أنتهي جمال من حديثه عن الديكتاتورية قال للأعضاء:

" أما إذا رأيتم الأخذ بذلك القرار فإني أدعو لكم بالتوفيق وأراني مضطراً إلى الانسحاب، وسأدعو لكم بالتوفيق، وسأكون طوع أمركم في الجيش أو خارج الجيش، وفي هذه الحالة أرجو أن تعتبروني مستقيلاً من الهيئة!".

وتوجه جمال على الفور إلى منزله بعد أن ترك لنا استقالته!

نجيب يوافق على حل الأحزاب..!

ذلك كان موقف جمال عبد الناصر بعد أن قرر أعضاء الهيئة التأسيسية حل الأحزاب والهيئات كلها ومنع كل السياسيين القدامى من مزاولة أي نشاط سياسي.. وكان اللواء نجيب يرى نفس الرأي.. أي حل الأحزاب والهيئات.

كان جمال هو الوحيد الذي عارض وأصر على موقفه، وأمام هذا رأينا أن نعيد النظر في الموضوع من جديد، فكلنا كنا نؤمن بأن جمال لا يتكلم إلا إذا كان حديثه قائماً على أسس واقعية.

إنه دائماً ينظر إلى بعيد، إنه دائماً ذلك المناضل الناضج الذي يعي موقفه ويعرف أين يضع قدميه.. وهو طوال أعوام نضالنا كان ينادي دواماً بأن نلتصق بالشعب ولا ننعزل عنه.. وهو كان دواماً يرى إشراك الشعب في كل صغيرة وكبيرة لأن المسألة مسألته وليست مسألة أحد غير الشعب.

ديناموالثورة!

لقد عرفنا جمال منذ عام ١٩٤٣ عندما تسلم جمال قيادة التنظيم.. عرفنا فيه "الدينامو" الذي يحرك الجهاز كله، ومن أجل هذا انتخبناه ثلاث مرات رئيساً للهيئة التأسيسية، مرتين قبل الثورة ومرة بعدها! ثم تنازل من تلقاء نفسه عن الرئاسة لنجيب.. وأصر على ذلك التنازل حتى اضطررنا إلى الموافقة!

وقد ظللنا نفكر في كلمات جمال التي قالها لنا وهو يعترض على القرار المذكور ويصر على اعتراضه إلى حد تقديم استقالته!

فكرنا في كل كلمة قالها وحللناها.. وكنا نعرف أن جمال يؤمن إيماناً عميقاً بالتنظيم..

كان يقول دائماً بأنه لا يمكن أن يتم أي عمل بدون خطة.. ويعد للخطة آلاف الاعتبارات..

كان كما قلت هو "الدينامو" الذي يحرك الجهاز كله.. وفي كل عمل قمنا به قبل الثورة أو بعدها كان نضج تفكيره هو الذي يحسم الموقف.. ومن أجل هذا كله آمنا به كصاحب عقلية متطورة منظمة مؤمنة.. وتلك هي العقلية التي يتحتم أن يتصف بها كل قائد..

وأمام هذا كله، رفضنا استقالة جمال فلا يعقل أن يدور جهاز – أي جهاز – بدون الشيء الذي يحركه! وجمال هو الذي كان يحرك جهاز الثورة!

ورأينا أنه لابد من أن نعيد النظر في القرار..

وفتحنا باب المناقشة.. مرة ثانية في الموضوع.. وفي النهاية رأينا أن نعطي الأحزاب فرصة لتطهير نفسها وتحديد برامجها وأهدافها بما يتفق والوضع الجديد.. بما يتفق ومصالح هذا الشعب. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى ففي إعطاء هذه الفرصة للأحزاب والهيئات إشراك للشعب معنا في الحكم عليها.. وسوف يعرف إن كانت ستعمل – بعد أعطائها تلك الفرصة – على تحقيق مصالحه وأهدافه أم أنها لا تزال كما هي تستهدف مصالح قادتها وأقطابها!

صممنا على إجراء الانتخابات:

وصدر القرار فعلاً بهذا.. وتحدد – في القرار – موعد أقصاه شهر فبراير عام ١٩٥٣ أي ستة شهور لإجراء الانتخابات، بعد أن تنتهي الأحزاب من تطهير نفسها، ومن تحديد أهداف جديدة وبرامج جديدة تتفق والوضع الجديد.. وتتمشى مع التطور الذي لابد منه للشعب.

وكان علي ماهر في ذلك الوقت لا يزال في الحكم، فأصدر بيانه المشهور الذي هاجم فيه الأحزاب كلها.. لكنه أغفل ذكر الموعد الذي حددته القيادة لإجراء الانتخابات!!

وكنا قد أبلغناه بذلك القرار الذي يتضمن إعطاء فرصة للأحزاب لتهيئة نفسها للانتخابات.. بالتطهير وتحديد برامج وأهداف جديدة!

وبعد أن صدر بيان علي ماهر بساعتين، وقد فوجئنا بإغفاله ذكر موعد الانتخابات، أصدرنا بياناً آخر أكدنا فيه تمسكنا بإجراء الانتخابات في فبراير سنة ١٩٥٣..

فماذا حدث..؟

لماذا لم تتم الانتخابات، ولماذا لم يتقدم الساسة والزعماء إلى الطريق ويمضوا مع الثورة حتى النهاية..؟

لماذا لم يقرروا مد أيديهم للشعب في كفاحه الطويل المرير؟!

لماذا لم يكونوا ديمقراطيين فيؤمنوا بأهداف الثورة؟.. وكان الهدف الأكبر للثورة في ذلك الحين، أو بعبارة أخرى كان الأساس الذي أردنا أن نقيم عليه بناء الثورة الكبير هو قانون تحديد الملكية.. أي ضرب رأس الخيانة والظلم والفساد السياسي في البلاد.. الإقطاع.

ديكتاتورية وديمقراطية!!

فهل كان قانون الإصلاح الزراعي وهو قانون أخذت به أحدث الدول في التقدم والتطور.. أقول هل كان ذلك القانون هو الذي كشف عن حقيقة الأحزاب والهيئات المصرية.. ونوايا قادتها وأقطابها؟!

أو ما هو الشيء الذي كشف عن نواياهم تجاه الثورة – أي الشعب – فمنع تنفيذ قرار الهيئة التأسيسية الذي حددنا فيه موعد الانتخابات خلال ستة شهور؟!

إنها كانت مرحلة خطيرة حقاً في كفاحنا.. إن رئيس الوزراء نفسه الذي يحكم في ذلك الوقت كان يعارض ذلك القانون.. كما عارضه كل الباشاوات.. فهل أخطأنا نحن وأصاب الباشاوات؟!

هل كنا ضد الديمقراطية حين أصررنا على ضرب الإقطاع والبطش به؟!

هل كان موقفاً ديكتاتورياً منا حين أردنا منع شخص واحد من أن يملك الأرض ومن عليها من بشر وحيوان وجماد؟!

إن كلمات جمال عبد الناصر لا تزال ترن في أذني، عندما قال:

– "سوف تستغل الرجعية موقفنا العنيف هذا من الأحزاب والهيئات لتشوه ثورتنا.. فتصمها بالديكتاتورية".

أوصياء العرش والإقطاعيون

حددنا – إذن – موعد الانتخابات كما قلت – أمس – وأعطينا للأحزاب فرصة لتراجع نفسها، وتقرر هل هي تؤيد أحداث يوليو مثل الشعب، أم هي قد روعت بما حدث في ذلك الشهر الخالد.

أعني أننا أردنا أن نكشف الطريق أمام الثورة..

فقد كان حتما علينا أن نعرف الأعداء الذين سيتربصون بالثورة وهي ماضية في طريقها، فإذا ما عرفناهم أصبح الطريق أمام الثورة أكثر أمناً ونوراً، فلا يطعن الشعبَ في ظهره وهو ماض في زحفه نحو المستقبل..

وصدر القرار من الهيئة التأسيسية كما قلت وحددنا فيه شهر فبراير عام ١٩٥٣ لإجراء الانتخابات وكان أمام الأحزاب التي ستخوض معركة الانتخابات أن توضح نواياها تجاه أهداف الشعب بعد أن طرد فاروق.. فتطهر نفسها وتبعد عن صفوفها كل فرد فيها مهما كانت صفته في الحزب.. وخاصة الأفراد الذين ارتبطت مصالحهم بمصالح العرش الذي طرد صاحبه..

وبعد أن تكون تلك الأحزاب قد غيرت من برامجها وأهدافها أيضاً، فلا يعقل أن تبقى البرامج والأهداف التي حددتها الأحزاب لنفسها أيام فاروق..

والزمن قد تغير.. وكل شيء كان لابدَّ أن يتغير وإلا فلا كانت الثورة ولا كان الكفاح في سبيل قيامها!

وكان على ماهر رئيس الوزراء، نفس السياسي المصري الذي فرضته الثورة على فاروق قبل إخراجه من أرض الثورة..

وأذاع على ماهر بياناً – كما قلت – هاجم فيه الأحزاب، وأغفل في البيان الإشارة إلى قرار الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار، والذي حددت فيه القيادة الانتخابات، واضطررنا بعد صدور بيان على ماهر إلى إصدار بيان في الحال أكدنا فيه إصرارنا على تحديد شهر فبراير المذكور لإجراء الانتخابات.

لقد كان الوضع غريباً جداً، فالوزارة التي تولت الحكم بعد ٢٣ يوليو كانت في واد والثورة في واد آخر..

كنا نريد ثورة، والوزارة لا تكاد تشعر بما يجري وسيجري تحت سماء مصر من أحداث..

وربما كان يظن أفراد تلك الوزارة أننا فرضناهم على الملك لكي يحكموا ويوجهوا الشعب ويصنعوا مستقبله بلا ثورة!

مفاجآت لحكومة على ماهر:

ولم تؤمن تلك الوزارة بأنه لابد أن يحدث تغيير في الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي..

وربما فوجئت تلك الوزارة باتجاه الثورة إلى ضرب الإقطاع بعد أن خلعت الملك عن عرشه..

وأكاد أعتقد أن الوزارة المذكورة فوجئت بالثورة نفسها فقد كان على ماهر يظن في اللحظات الأولى للثورة أن المسألة لا تخرج عن أن الجيش له طلبات، ويريد أن تنفذ، ثم بعد ذلك يبقى كل شيء كما هو!

لكنه فوجئ بعد يومين من قيام الثورة برجال القيادة يكلفونه بحمل الإنذار إلى الملك بمغادرة البلاد، وكان على ماهر قد اطمأن على بقاء النظام، بعد أن حمل طلبات الجيش إلى الملك، وموافقة الملك على تلك الطلبات..

وبعد ذلك توالت المفاجآت أمام حكومة على ماهر..

وعرف أن القيادة تريد إنهاء مسألة الإقطاع في الحال كوسيلة لتحطيم القيد الذي رسفت فيه أغلبية الشعب – الفلاحون – طوال مئات السنين.. فلم يكن لتلك الملايين إرادة على الإطلاق ولا حقوق على الحاكم.. بل الإرادة كانت إرادة الإقطاعيين والحقوق كلها لهم..

وكانت تلك هي فلسفة الثورة المصرية..

الفلسفة التي تحددت في منشورات الضباط الأحرار منذ بدئوا نضالهم التاريخي المرير في سبيل الشعب..

وقد تضمنت تلك الفلسفة أيضاً القضاء على سيطرة رأس المال..

حالتان كانتا لابد أن تزولا لتحقيق أهداف الشعب.. لكن الوزارة – كما قلت – كانت في واد والثورة في واد آخر..

وأعود إلى الانتخابات التي كانت قد تحدد موعدها..

فعلى أي أساس كانت ستجرى تلك الانتخابات؟!

طلبنا – كما قلت – من الأحزاب أن تحدد موقفها من الثورة.. أي من أهداف الشعب.. كشرط أساسي للتعاون بين الثورة وبينها.. لأنه كان لا يعقل أبداً أن تجرى الانتخابات بعد طرد فاروق والباشاوات وأذنابهم والارستقراطيون هم الذين يسيطرون على كل الدوائر الانتخابية.

إن الإقطاع هو الذي سيكسب المعركة، كما كان يكسبها دائماً في كل الانتخابات التي جرت في هذه البلاد.

فالإقطاعي يملك القرى والأرض بمن فيها ومن عليها من بشر.. ومصير الناخب أي الفلاح كان في قبضة ذلك الإقطاعي. والإقطاعي في يده أن يجيعه ويشرده مع أبنائه.. فكيف السبيل إلى تحرير الفلاح من هذا القيد حتى يمكنه أن يختار الذي يمثله في برلمان بلاده؟

إن السبيل كان واضح المعالم ولا يحتاج إلى سؤال..

لترفع الثورة القيد الذي يرسف فيه الناخب، وبعد ذلك ستكون للناخب الإرادة وتكون له الحرية في اختيار ممثليه في البرلمان.. لتبطش الثورة بعدو هذه الملايين المستعبدة.. والعدو هم هؤلاء الأفراد القلائل الذين يملكون الأرض ومن عليها ويتحكمون في حياة ومصائر أغلبية الشعب.. الفلاحين..

لقد تقرر هذا فعلاً كإجراء حتمي لتتخذه الثورة لتمهد للديمقراطية الصحيحة التي ما قامت إلا من أجل تحقيقها للشعب.

جمال يجتمع بسراج الدين:

كانت نوايانا واضحة.. أردنا ديمقراطية صحيحة تمكن الشعب من فرض إرادته وحكم نفسه بنفسه وأراد جمال أن يشرك كل الهيئات والأحزاب في تحقيق أهداف الثورة وفي صنع مستقبل الشعب..

ودفعه إيمانه بهذا الرأي إلى مقابلة فؤاد سراج الدين.. قطب الوفد الكبير ومحرك سياسته وصاحب الكلمة الأولى في اتجاهات الحزب المذكور..

وفي منزل اليوزباشي عيسى سراج الدين قريب قطب الوفد وصهر رشاد مهنا تمت المقابلة!

وكان مع جمال في ذلك الاجتماع عبد الحكيم وصلاح وبغدادي وكان مع فؤاد سراج الدين إبراهيم طلعت وأحمد أبو الفتح..

وتكلم جمال عن حزب الأغلبية، وعن إيمانه بأنه من الممكن جداً للحزب الكبير أن يصلح من الأوضاع السائدة فيه وفي قيادته، ويغير من أهدافه وبرامجه بما يتفق والوضع السياسي الجديد بعد فاروق..

ومضى جمال يقول لسراج الدين وزميليه أن حزب الوفد لو فعل هذا لأصبح من السهل أن يسير دفة الأمور، فالثورة لا تريد ديكتاتورية..

واشترط لكي يتم التعاون بين الثورة وحزب الوفد شرطاً واحداً وهو أن يصدر الحزب بيانا يعلن فيه على الملأ موافقته على قانون تحديد الملكية، لأن الديمقراطية كما يفهمها هو، بل كما يفهمها كل الديمقراطيين في جميع أنحاء العالم ليست برلماناً فقط.. بل هي تحرير الفرد من كل القيود.. هي تحرير عبيد الأرض حتى يمكن أن يعبروا عن إرادتهم وبالتالي يمكنهم اختيار ممثليهم في البرلمان بلا ضغط من أصحاب الأرض الإقطاعيين!

واستمرت المناقشة أربع ساعات.. جمال ورفاقه يتحدثون عن حقوق الشعب والأسلوب العملي لإعطائه تلك الحقوق.. لكن فؤاد سراج الدين رفض الموافقة على تحديد الملكية.. وقال أنه لا يمانع في رفع الضريبة على الأرض أما تحديد الملكية فلا.. ولا!

ورد عليه جمال بأن رفع الضريبة ربما ضاعف من إيرادات خزينة الدولة، ولكنه لا يحقق الهدف السياسي الذي تؤمن به الثورة.. أي تحطيم قيود عبيد الأرض ليختاروا ممثليهم الحقيقيين في البرلمان بلا قهر أو إرهاب. وهذا هو أساس الديمقراطية الحقة..

ثم انتهى الاجتماع عندما قال فؤاد سراج الدين أنه سيعرض الأمر على حزب الوفد في الإسكندرية، وبعد ذلك سيصدر بيانا في أقرب وقت..

وخرج جمال والزملاء لننتظر جميعاً بيان الوفد..

وقد سافر فؤاد سراج الدين إلى الإسكندرية فعلاً، وعقد الوفد اجتماعه وناقش موضوع تحديد الملكية.. أي زوال الإقطاع.. ثم رفض الحزب الموافقة على هذا الإجراء الثوري..!

لم يصدر الحزب البيان كما وعد سراج الدين.. فماذا كانوا يتوقعون؟! وماذا كانوا ينتظرون من القيادة؟!

هل كانوا يؤمنون بأن المسألة لن تخرج من أيديهم، وأنهم هم الذين سيحكمون البلاد رغم كل شيء.. وبلا ثورة؟!

إن المسألة لم تكن ثورة في اعتقادهم.. ظنوها انقلاباً كما كانوا يشيعون.. والانقلاب لا يحتم تغيير الوضع السياسي أو الاجتماعي.. ولا يحتم إعطاء الشعب حقه الكامل في التعبير عن إرادته وحكم نفسه بنفسه..

وهنا فقط آمن جمال عبد الناصر بأنه لا أمل له على الإطلاق في تعاون هؤلاء الساسة والأقطاب مع الثورة..

هنا فقط اقتنع جمال واقتنعنا نحن جميعاً بأن الشعب في واد والأحزاب والهيئات كلها في واد آخر.

وأين الثورة؟

ورئيس الوزراء – كما قلت – قد عارض في تحديد الملكية مثلما عارض حزب الوفد، وقال لنا أن الضريبة التصاعدية تكفي.. أي أن الانتخابات ستجرى وسيكسبها نفس الأشخاص الذين مثلوا الفلاح رغم أنفه في البرلمان.. وفي هذه الحالة كان الإقطاعيون ودعاة سيطرة رأس المال سيحكمون البلاد من جديد ويتحكمون في مصير الشعب عن طريق ذلك البرلمان!!

فأين إذن تكون الثورة لو كان قد حدث هذا؟

بل أين هي الديمقراطية لو كنا تخلينا عن مبادئنا وأهدافنا؟

أي لم تحدد الملكية وجرت الانتخابات في فبراير.. والأحزاب يسيطر عليها الإقطاعيون والارستقراطيون أعداء الشعب!!

إن الأحزاب لم تستجب لنداء الثورة.. وبقى نفس الأقطاب وتجار السياسية والوطنية وجلاد الديمقراطية يقودونها، ويتحفزون لمعركة فبراير الانتخابية ليوقفوا زحف الثورة بعد فوزهم، كما كان الأمر يجري في الماضي!

رشاد مهنا مع الإقطاع:

لم يكن رئيس الوزراء هو الذي عارض في تحطيم الإقطاع وحده.. بل أن عضوين في مجلس الوصاية عارضا قانون الإصلاح الزراعي وبشدة.. فأي موقف أعجب من هذا؟!

وكيف كنا نستطيع تحقيق الديمقراطية الصحيحة وأهداف الشعب لو انسقنا مع التيار، وتركنا كل شيء كما هو بلا تغيير؟!

إن رشاد مهنا وبهي الدين بركات عارضا القانون، وهما الوصيان على العرش اللذان وضعتهما الثورة في هذين المكانين..

وكما قلت كان تحطيم الإقطاع هو الأساس الذي حددناه للتعاون بين الثورة والأحزاب والهيئات!

وهكذا اختلفنا.. وكان خلافاً جوهرياً خطيراً.. فنحن نريد ثورة.. وهم يريدون حكماً!

قلنا للحكومة..

وقد دارت مناقشة تاريخية حول هذا الخلاف الخطير في جلسة دار مجلس الوزراء وحضر هذه الجلسة جمال عبد الناصر وجمال سالم وصلاح سالم كممثلين للقيادة.. كما حضر الجلسة رشاد مهنا وبهي الدين بركات وعلى ماهر وعبد الجليل العمري..

فانظروا إذن إلى الموقف وكيف كان عجيباً ومثيراً..

إن رجال الثورة لم يتراجعوا.. وقالوا لرجال الحكومة وللوصيين على العرش أنه لابد من إنهاء مسألة الإقطاع.. والمسألة ليست اقتصادية فقط، بل هي في صميم السياسية!

فالشعب الذي فرض إرادته على فاروق وأرغمه على التنازل عن عرشه لم تفعل قواته المسلحة ذلك لأن الملك كان فاسداً فقط.. بل أنه كان عقبة في طريق

الديمقراطية الصحيحة، ويجب أن تزال كل العقبات أمام الثورة لتحقيق هذه الديمقراطية، وبقاء الإقطاع، ونزول الإقطاعيين إلى معركة الانتخابات في فبراير ١٩٥٣ سوف لا يحقق هذه الديمقراطية، وسيظل الوضع كما كان أيام فاروق: برلمانات يتثاءب أعضاؤها في مقاعدهم، ولا يستيقظون إلا ليقولوا نعم.. موافقون!!

والثورة تريد برلماناً يمثل أعضاؤه طبقات الشعب على اختلافها تمثيلاً حقيقياً لا قهر فيه ولا إرغام!

واستمرت المناقشات بين رجال الثورة ورجال الحكومة أياماً عديدة..

الأحزاب ترفض نداء الثورة..

وشعرنا في تلك الأيام أن الإقطاعيين بدئوا يتكتلون مع الحكومة وأوصياء العرش، ليسدوا الطريق أمام الثورة.. ولم تتحرك الأحزاب ولم يفق رجالها من الغيبوبة التي ظلوا فيها منذ ربع قرن مضى على البلاد، والملايين من أبنائها يتطلعون إلى العدالة والحرية والحق والعدل والعلم فلم تمكنهم تلك الأحزاب التي لا تمثل إلا أصحابها من تحقيق واحد من هذه الأهداف..

وإني أذكر تلك المناقشة التي دارت في البرلمان أيام حكومة الوفد.. حين وقف الدكتور طه حسين وطلب اعتمادات مالية لوزارة المعارف، حتى تتمكن الوزارة من إنشاء مدارس جديدة لأبناء البلاد.. ويومها وقف البدراوي وصرخ في برلمان الأمة قائلاً: طيب علموا الشعب، وبكره تشوفوا حيجرالكم أيه منه!!

ذلك كان موقفهم من الشعب على الدوام..

فهل كانت الثورة تستهدف الديكتاتورية حين أبعدت تلك العصابات من ميدان السياسة ليتعلم الشعب وليتحرر وليصنع مستقبله وليقرر مصيره بنفسه؟!

ما أروعها من ديكتاتورية، لو كانت كذلك.. لو كانت تستهدف أن يسكت البدراوي إلى الأبد، فلا يتكلم باسم الشعب.. وإذا كانت تستهدف أن يجلس في البرلمان مواطن من صميم الشعب ليتكلم باسم الملايين لا باسم فرد أو أسرة..

تلك هي ديكتاتوريتنا وتلك هي ديمقراطيتهم..

ديكتاتوريتنا التي فرضت على العرش أن يسقط، كما أراد الشعب.. ديكتاتوريتنا التي حتمت أن يتحرر ملايين الفلاحين من السخرة.. من طغيان مالك

الأرض، ليبدءوا مرحلة جديدة في تاريخ تطورهم، وليختاروا بلا ضغط من البدراوي أو سراج الدين أو أمير مخمور ممثليهم في البرلمان!!

إنها ديكتاتورية الشعب كما أعلنها جمال عبد الناصر منذ شهور على الملأ.. وهي الديمقراطية الحقيقية، لا ديمقراطية العائلات والأمراء والمخمورين!!

ومن أجل هذا.. من أجل فرض إرادة الشعب على الحاكم في البرلمان كما أرادت الثورة، لم تحدد الأحزاب موقفها، لم تغير من برامجها وأهدافها.. لم تقبل الوضع الجديد.. لم توافق على أن تكون في مصر ثورة..

ولم يخرج من قيادتها الإقطاعيون والارستقراطيون والسماسرة.. بل بقوا ليخوضوا معركة فبراير كأن شيئاً لم يحدث بعد فاروق!!

محمد نجيب والثورة

إشاعات

سُئلت من كثير من المواطنين المصريين لماذا لا تتكلم عن محمد نجيب بصراحة، وتروي لنا قصته كلها مع الثورة؟!

والواقع أن كل أصحاب الخطابات التي وصلتني حول هذا الموضوع كانوا على حق.. فليس من المنطق قطعاً أن أتحدث عن موقف مجلس قيادة الثورة من ساسة الماضي وأحزاب الماضي ثم أغفل قصة نجيب معنا..

ومضيت مع خواطري.. ثم وجدتني في حيرة..

كيف أبدأ القصة؟!

ثم هل هذا وقت الكلام في موضوع انتهينا منه؟!

وعدت أتطلع إلى الخطابات المتناثرة على مكتبي.. إن أصحابها ينتظرون الآن ما سوف أقوله لهم عن اللواء نجيب، ولابد أنهم وكل الشعب يريد أن يعرف القصة.. وهذا ما زاد من حيرتي!

لقد سكتنا على الدوام – نحن رجال الثورة – حيال ما يقال عنا، وموقفنا من اللواء نجيب، وفسر المغرضون هذا السكوت بما يتفق ومصالحهم وأشاعوا أن اللواء نجيب اختلف معنا، أو اختلفنا نحن معه لأنه ديمقراطي ويعشق الدستور والحريات والشعب.. أما نحن فلا.. نحن نخالفه فيما ذهب إليه، ونحن وقفنا في طريقه الذي كان سيقود الشعب فيه إلى الحرية والديمقراطية والدستور!

وطارت الإشاعات والأقاويل هنا وهناك وكل إشاعة كانت تؤكد ديمقراطية نجيب وديكتاتورية مجلس قيادة الثورة وأعضاء المجلس المذكور يلوذون بالصمت ويتركون الأقوال تترى والإشاعات تطير إلى حيث تشاء ولم يحاول مجلس الثورة إذاعة القصة كلها.. ليعرف الشعب الحقيقة الصارخة..!

كنا وحدنا الذين نعرف الحقيقة، أما الشعب فكان لا يعرف سوى الإشاعات!

فهل نقول الحقيقة وأمرنا لله؟!

ومرة ثانية – أو ثالثة لا أدري – عدت إلى كومة الخطابات أنقل بصري بين سطور بعضها.. إن أصحاب الخطابات يريدون الحقيقة.. يريدون أن يعرفوا.. هل نجيب اختلف معنا لأنه ديمقراطي ويريد الدستور أم لسبب آخر؟!

إن المسألة لم تعد تحتمل السكوت.. فهي مسألة الشعب وليست مسألة شخصية..

ونجيب إن كان على صواب – فالشعب سوف يعرف الحقيقة اليوم أو في الغد، وإن كان قد أخطأ فالشعب سيعرف أيضاً كيف أخطأ سواء قلنا له نحن الحقيقة أو قالها التاريخ فيما بعد.

وبين الرسائل التي أمامي واحدة يصرخ صاحبها، وتكاد صرخاته تقفز من بين سطور الرسالة.. إنه يقول لي:

"قل لنا الحقيقة كلها، فمن حقي ومن حق كل مواطن أن يعرفها.. لماذا قلتم لنا أن محمد نجيب هو قائد الثورة، ولماذا حملتموه على أكتافكم إلى الوجه البحري ثم إلى الوجه القبلي، ثم قدمتموه إلى الدنيا كلها شرقها وغربها على أنه قائدكم.. وبعد ذلك تبين أنه كان يتآمر على هذه البلاد، ثم لا يلقي جزءاه.. نريد أن نعرف الحقيقة!!؟"

وقد مرت عليّ لحظات بعد أن قرأت تلك الرسالة، وكانت لحظات مليئة بالحيرة والتأمل، ثم قررت أن أروي قصة محمد نجيب كلها.. قررت أن أرويها لكي تسدل الستار نهائياً على هذا الموضوع.. ثم نستريح ونريح!

وأمسكت بالقلم وتوكلت على الله..

من أين أبدأ؟!

هل أبدأ قصة اللواء نجيب بتاريخ أزمة ٢٦ فبراير ١٩٥٤ التي قبل فيها مجلس الثورة استقالة نجيب ثم لم يلبث أن أعاده؟!

أم أبدأ بيوم ٢٥ مارس وقراراته المشهورة؟!

إن عشرات من المواقف تتبلور أمامي الآن.. وكل موقف منها يصلح ليكون بداية لقصة رهيبة.. لأضخم قصة في تاريخ هذه الثورة!

هناك مثلاً موقف ٢٧ مارس ١٩٥٤.. وكنا يومها قد ذهبنا إلى مطار الماظة لنودع صاحب الجلالة الملك سعود، وكان الوقت في الصباح الباكر، وعرجنا على

ميس ضباط الطيران لتناول طعام الإفطار على مائدتهم، وما كدنا نمسك بأقداح الشاي حتى اقتحم "الميس" خمسة من ضباط الطيران على وجوههم الحنق الشديد، وكانوا يلهثون وهم يقولون لنا:

- "تعالوا.. الحقوا نجيب!!"

وبداية أخرى لقصة نجيب.. يوم أن عثرنا على تقرير في قصر عابدين بين أوراق حافظ عفيفي، والتقرير مرفوع إلى السدة العلية الكريمة قبل الثورة بيومين اثنين فقط.. فمن الذي أرسله إلى القصر.. إلى السدة العلية الكريمة؟!

إنه بطل هذه القصة.. اللواء نجيب!

إن خيوط القصة تتجمع الآن كلها في يدي.. ها هو الخيط الأول..

ها هو جمال عبد الناصر يذكر لنا اسم نجيب لأول مرة قبل قيام الثورة، ولم يكن نجيب وحده الذي رشحه جمال ليوضع على رأس الثورة، بل كان هناك شخصان آخران رشحا لهذه المهمة مع نجيب، لماذا وقع الاختيار على نجيب؟!

الأيام الأولى

إنني أرى الآن أمامي وجه نجيب وهو جالس معنا في الأيام الأولى للثـورة.. إنه كان وجهاً طيباً يفيض بالإخلاص الشديد للثورة!

كانت تصرفات نجيب تبدو لنا رائعة للغاية في الأيام الأولى، عندما كنا نعمـل جميعاً في مبنى القيادة بكوبري القبة، ننام هناك ونأكل ونشرب هناك أيضاً.

كان نجيب يتوجه إلينا بالحديث بمناسبة وبغير مناسبة قائلاً:

– "أنا أشعر بالخجل من نفسي، لأني أراكم تنسون أنفسكم تماماً، وأنا لم أفعـل شيئاً، لكنكم تنسبون إليّ كل شيء، وكل شيء قد تم بمجهودكم أنتم..".

وكانت تلك الكلمات التي سمعناها من اللواء نجيب بمناسبة وبغير مناسبة كافية لكي تبعث فينا الثقة المطلقة به، مما دفعني إلى أن أخرج إلـى النـاس ذات مـرة وأخطب فيهم متحدثاً عن نجيب وزعامة نجيب!

بل أن عبد اللطيف بغدادي تأثر ذات مرة إلى الحد الذي قال فيه لنا:

– "إنني أحب هذا الرجل كأبي تماماً، وأخشى أن يكون حبي له أكثر.."

فماذا حدث بعد كل هذا.. وبعد أن وقف عبد الحكيم عامر في قريته "اسـطال" يبايع نجيب أمام أهله، وبخطاب حماسي رائع كان عبد الحكيم عامر خلاله متـأثرا إلى حد أنه تشنج!

لقد كنا جميعاً نشعر بالحب لذلك الرجل، لأنه كان في الأيام الأولى لا يتـرك مناسبة دون أن يبدي فيها خجله منا، ويعبر فيها عن دهشته لأننا ننـسى أنفـسنا، وننسب كل شيء له، وهو الذي لم يفعل شيء!

إن قصة اللواء نجيب مليئة بالأحداث والغرائب..

إنها أعجب قصة في تاريخ مصر الحديث، إنهـا الأسـطورة الكبـرى التـي ظهرت على ضفاف النيل فجأة ثم تلاشت أيضا فجأة كضباب الضحى..

إنها قصة الصراع الهائل الخالد بين من يؤمنون بحرية الشعوب ويعملون لتحقيقها وبين الذين لا يؤمنون إلا بأنفسهم حتى إذا كانت وسيلة ذلك هي تضليل الجماهير!

إنها قصة الثورة المصرية وكيف تمت وكيف قرر قادتها المضي بها حتى نهاية الشوط رغم كل العقبات..

وهي أيضاً قصة الذين كانوا يرهبون كلمة "ثورة" ويحاولون وقفها بأكذوبة الدستور والانتخابات والأحزاب..

وهي نفسها قصة الصراع الخالد المجيد بين جيل ثائر يريد أن يبني مصر فتصبح دولة عظمى.. وجيل عفن مهزوم عاش في كنف الخنوع وأصبح لا يعنيه أن يتطور الشعب أو يتحرر أو تنشق الأرض فتبتلع أفراده جميعاً.

إنها قصة القيادة المؤمنة الباسلة التي تقدمت الصفوف بلا وجل، وخاضت أعنف المعارك، وصمدت ثم اثبت أن الشعب سينتصر على الدوام..!

هي باختصار قصة الثورة الديمقراطية..

وسوف يقرأ الشعب القصة كاملة، فأنا أعدها منذ اليوم..

أعدها من أجل الحائرين الذين رأونا نحمل نجيب على أكتافنا إلى قبلي ثم إلى بحري. ورأونا ونحن ننكر أنفسنا ونذكره، ورأونا ونحن نصنع منه زعيماً، وهو يحفر للثورة قبراً..!

نجيب يدخل من أبواب التاريخ

كيف دخل اللواء نجيب من أبواب التاريخ؟!

من فتح تلك الأبواب أمامه وقال له تفضل.. أنت زعيم؟!

وعلى أي أساس قامت زعامته وقيادته لثورة شعب؟!

لقد هتف الشعب والجيش له من الأعماق، وتردد اسمه على أفواه الناس في مصر وفي كل شبر من العالم لأنه القائد الذي انتصر وحرر بلاده..

لقد كان نجيب رمزاً لبطولة أسطورية بهرت العالم كله..

وفي كل بيت في مصر علقت صورته، صورة البطل الذي ظهر فجأة في أرض النيل، ليحرر العبيد، ليطعم الجياع ويبرئ المرضى وينشر العلم والعدل والحق والمساواة..

الجميع قالوا له أنت زعيم، أنت بطل، أنت منقذ الشعب.. أنت محرر الوادي..

لم يختلف أحد من أفراد الجيش أو الشعب على زعامة نجيب وبطولة نجيب وقيادة نجيب، وكان عليه أن يتقدم الصفوف ليحقق آمال البلاد في قائد ثورتها..

لم يكن ينقصه شيء أو يعطله شيء.. فكل مقومات الزعامة والبطولة والمجد والولاء قد وضعت تحت أقدامه، فماذا حدث؟! لماذا لم يتقدم في الطريق إلى النهاية.. وماذا كان يعطله؟!

لقد أخلينا أمامه الطريق تماماً، ووضعناه على رءوسنا، ثم أنكرنا أن هناك أبطالاً غيره.. كان مجرد الإشارة إلى بطل آخر غير نجيب جريمة في رأينا..

كنا نؤمن بأن الذي حدث في مصر يوم ٢٣ يوليو يجب أن ينسب إلى رجل واحد، رجل يصبح زعيماً يقود الشعب في الطريق الطويل الوعر حتى النصر..

كنا نؤمن بأن كل الذي صنعناه طوال أعوام نضالنا قبل ٢٣ يوليو هو من أجل هذا الشعب.. من أجل ثورته على أعدائه، وكل ثورة يجب أن يقودها زعيم.

ونجيب أصبح الزعيم.. ثم ماذا حدث؟

لماذا انهارت زعامته.. لماذا اختفت الأسطورة سريعاً كضباب الضحى؟

هل لأن مجلس الثورة يريد الديكتاتورية ونجيب يريد الديمقراطية؟.. ومن أجل هذا عزلناه وأبعدناه من الطريق..؟

إنني هنا أنشر الحقائق كلها، ليعرف العالم كله شرقه وغربه حكاية اللواء نجيب.. وليعرف الشعب هنا في مصر من كان يريد الديمقراطية ومن هو الديكتاتور.. وليعرف الشعب من هم الثوار، ومن هم الحكام..

وقبل أن ابدأ القصة أود أن أسجل هنا خاطراً مر بذهني وأنا أمسك بالقلم لأبدأ القصة.. تخيلت جمال وعبد الحكيم وصلاح وبغدادي وجميع الرفاق في تنظيم الضباط الأحرار وقد بطش بهم نجيب في أزمة مارس الماضي، وأصبح هو الحاكم على البلاد..

فماذا كان سيحدث في مصر، بعد البطش بالذين صنعوا نجيب؟

هل كان نجيب سيطلق الحريات والعدالة والحق.. وباختصار هل كان سيجئ للشعب بالديمقراطية.. وعلى يد من؟

هذا هو السؤال..

على يد من كان نجيب سيحقق أهداف الثورة المصرية؟

على يديه وحده.. أم كان سيكمل اتصالاته في مارس المشهور ويجئ بإبراهيم عبد الهادي وبالهضيبي وبالنحاس وبسراج الدين وبكل أقطاب الرجعية المصرية ليحكموا البلاد من جديد..؟

على أي حال، الله وحده الذي كان يعلم ماذا كان سيصنع نجيب بالبلاد بعد أن يبطش بنا..

والذي كان معروفا أنه كان ينوي تكوين مجلس لرئيس الجمهورية يضم الإخوان والسعديين والوفد والأحرار الدستوريين، ويلغي مجلس الثورة.

الثورة والدستور

الأحزاب وخط الثورة

قلت أن الأحزاب لم تفهم معنى الإنذار الذي وجهناه إليها بضرورة تطهير نفسها، وكان مفروضاً أن تسرع تلك الأحزاب فتغير من برامجها، ومن أشخاص قادتها ومن معتقدات أفرادها - إذا استطاعت - لكن تبين بالرغم من حسن نوايا الثورة أن هؤلاء الناس ليسوا سوى تجار سياسة، وأن الشيء الذي يعنيهم سواء أكانت في مصر ثورة أم أسرة مالكة هو أن يحكموا البلاد.

والواقع أن موقف الثورة من الأحزاب كان خاطئاً من البداية.. فهي - أي الثورة - كان حتماً عليها، أن تقضي على كل التركة التي خلفها لنا العهد الماضي، والأحزاب بشكلها الموجود كانت شيئاً مخالفاً لمفهوم الثورة.. وما حدث في البلاد من مآسي ومن ظلم وغدر واستبداد منذ وجدت فيها تلك الأحزاب لا تقع مسئوليته على النظام الذي كان قائماً، بقدر ما تقع هذه المسئولية على النظام الذي كان قائماً، بقدر ما تقع هذه المسئولية على القيادات السياسية التي تولت زمام الأمور بالتتابع في كنف دستور إقطاعي ملكي يحفظ لهذه القيادات السياسية حقها في البقاء والحكم والاستبداد بالشعب.

أقول أنه كان مفروضاً بعد أن مدت الثورة يدها البيضاء إلى القيادات السياسية الموجودة في البلاد، أن تفهم تلك القيادات أن ما حدث في مصر ليس انقلاباً سوف يزول بين وقت وآخر، بل الذي حدث هو تطور اجتماعي محتوم يفرض على كل القيادات السياسية إذا كانت حقاً - ديمقراطية - أن تؤمن به وتعمل على تحقيقه ببرامج مدروسة تتفق مع الاتجاه الذي سار فيه التطور الاجتماعي المذكور، بل كان مفروضاً أن تنظر في بعض القيادات السياسية فتضع برامج تهدف إلى القفز بركب التطور في البلاد إلى أبعد مدى، لا إلى تعطيله ووقفه كما أرادت بعض تلك القيادات.

ويبدو أن رفض الأحزاب الوقوف إلى جانب التطور الاجتماعي كان من صالح البلاد.. فلو كانوا قد فعلوا لظهر بعد توليهم الحكم مدى إيمانهم ذلك بالثورة المصرية واتجاهها الإنساني نحو التحرر والعدالة.

فكل القيادات السياسية التي مارست الحكم والسياسة في مصر طوال ربع القرن الأخير كان كل أفرادها من طبقة معينة لا تتفق مصالحها على الإطلاق مع مصالح طبقات الشعب الكادحة والمتوسطة التي استمدت الثورة أهدافها الحقيقية من مصالحها.

وبالرغم من تراجع الأحزاب عن خط الثورة المصرية، وبالرغم من رفض قيادات تلك الأحزاب التطهير المطلوب الذي يحتمه معنى الثورة، فإننا ظللنا نؤمن بإمكان التعاون مع الجميع في نطاق الوضع الثوري الذي وجد بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فأردنا أن تكون في البلاد أحزاب، وأن تجري انتخابات، وأعددنا قانون الأحزاب فعلاً، وكان الهدف الأساسي لذلك القانون هو أن تسجل الأحزاب الجديدة برامجها الجديدة بشرط استبعاد الأشخاص الذين ثبت أنهم أفسدوا في الحياة السياسية، وهم أكثر من أن نحصيهم هنا..

النحاس وسليمان حافظ:

وبدأ الوفد يناور ويحاور، ثم وقع حادث صلاح الدين وسليمان حافظ وهو حادث مشهور ولم تكن لنا فيه يد على الإطلاق..

فقد ذهب محمد صلاح الدين، وزير خارجية الوفد لمقابلة وزير الداخلية في ذلك الوقت، وذلك ليسجل حزب الوفد الجديد هيئته التأسيسية.. وفي مكتب سليمان حافظ جلس صلاح الدين يتحدث مع الوزير.. وفجأة قال سليمان حافظ لصلاح الدين:

– "مصطفي النحاس ده عبارة عن دمل ولازم يتفقع".

وطلب سليمان حافظ أن لا يشترك النحاس بصفة فعلية في إدارة حزب الوفد الجديد..

وهرول صلاح الدين إلى سراج الدين وأبلغه الحكاية، وذهب سراج الدين إلى النحاس وروى له ما قاله سليمان حافظ، ثم بدأت المعركة بين الوفد وسليمان حافظ.

وكما قلت لم يكن للثورة دخل في الموضوع، لكن الحملة التي شنها الوفد على سليمان حافظ امتدت إلى الثورة نفسها.. فكتب أحمد أبو الفتح سلسلة مقالات تحت عنوان "إلى أين..." واظهر فيها بطولة خارقة، فبدأ يتكلم عن الثورة بأسلوب

عجيب، واعتبرها انقلاباً من انقلابات الأقليات السياسية، وكان ذلك خطأ كبيراً وقع فيه الكثيرون من رجال السياسة والقلم في البلاد.

وأذكر أنني كنت في ذلك الوقت مسئولاً عن الرقابة على الصحف وسمعت زملائي في مجلس الثورة يتساءلون:

- "هل من المصلحة أن يقال مثل هذا الكلام؟.. أننا لم نقم بما قمنا به لمصلحة حزب معين، بل لمصلحة الشعب كله، فمالنا نحن وسليمان حافظ واحمد أبو الفتح وباقي الناس الذين ليس لهم وضع في الثورة، والذين أن جد الجد وأحسوا برقابهم تتأرجح فوق أجسادهم - كما حدث لنا ليلة ٢٣ يوليو - لفزعوا وولوا الإدبار".

تجاهل الوضع الثوري..

وسمعت كلاماً كثيراً من الزملاء الثوار، وبعضهم قال إن هذا الكلام فيه تضليل للشعب، لأن أحمد أبو الفتح أعتبر أننا حكاماً وتجاهل الوضع الثوري.

وقلت يومها لزملائي: دعوه يكتب كيف يشاء.. ودعوه يفرغ كل ما في رأسه من كلام ولنر صدى كلامه عند الرأي العام..

وفعلا لم يكن لتلك المقالات صدى معين لأنها كانت تأخذ نفس الشكل القديم لمقالات الصحف المصرية التي تسيطر عليها الأحزاب.. مدح في هذا وقدح في ذاك ولا شيء غير ذلك.. لا موضوع ولا رأى ولا توجيه ثوري، أو على الأقل يستهدف الصالح العام، لا مصالح حزب الوفد فقط..

كانت مقالات "إلى أين..." كلها مدحاً في مصطفي النحاس، كأن مصطفي النحاس هو القضية، وليس الشعب..

وكان الناس لا يزالون يذكرون موقف النحاس أثناء توليه الحكم آخر مرة، من القصر... وكيف تحالف حزبه معه إلى أبعد مدى، وتنازل عن شكله الشعبي من أجل أن يبقى في الحكم.. لهذا كان مدح النحاس لأخر حليف سياسي لفاروق والإقطاع شيئاً غير مستساغ بالمرة في وقت رأي الناس فيه صاحب العرش يطرد من البلاد.

واحد وعشرون زعيماً

وانتهت زوبعة "إلى أين..." وبدأت إخطارات الأحزاب الجديدة تترى ــ وخيل إلينا أن مصر سوف تشهد عهداً غريباً يتصارع فيه ألف حزب سياسي من أجل كراسي الحكم...

وأحصينا الرقم الأخير فوجدنا أن هناك واحداً وعشرين زعيماً في مصر، تقدم كل واحد منهم بإخطار عن حزب جديد، وبينهم زعماء لم يسمع بهم أحد... وكأن الأرض قد انشقت عنهم في غفلة من الشعب.

مبادئ من كل لون، وبرامج غير مفهومة وكثير جداً منها متشابهة بل تكاد تكون نسخة طبق الأصل من بعضها.

وجلسنا نفكر، هل هذا هو ما تريده الثورة المصرية..؟ وهل هؤلاء الزعماء الواحد والعشرون هم الذين سيسيرون بالثورة المصرية إلى نهايتها؟

ومن هم؟!

ما هو ماضيهم؟!

ما هو كفاحهم؟!

رحلة ملكية لرشاد مهنا:

ولم نكن ندري ماذا يدور في رأس رشاد مهنا بالتحديد، ورأيناه يدلي بأحاديث صحفية وينظم حملة دعاية عجيبة حول شخصه فيذهب إلى مسجد السيدة ليصلي الفجر "حاضراً" ومعه مصورو الصحف الذين لم يصلوا الفجر "حاضراً" مرة واحدة من قبل!

ولم نبال بهذه التصرفات الغريبة، فقد كنا نتوقع أن يذهب كرسي "العرش" بلب رشاد مهنا إلى حد ما.. لكن فوجئنا ذات يوم برشاد وهو يأمر إدارة قصر عابدين بإعداد العدة لقيامه برحلة إلى واحة سيوه، وكانت الأوامر التي أصدرها رشاد تطابق تماماً الأوامر الملكية التي كانت تصدر في مثل هذه الأحوال.. سيارات من جميع الماركات والأشكال وحاشية وخدم ومصاريف.. وعندما بلغنا النبأ نظرنا إلى بعضنا وقلنا:

- "الله.. أيه الحكاية؟!"

كنا نعرف أن رشاد مهنا لا يؤمن بمعنى الثورة ولا يفهمها، لكننا لم نكن نتوقع أبداً أن يعين رشاد مهنا نفسه ملكاً هكذا ببساطة.. وكأن طرد فاروق كان حبرا على ورق..

ويبدو أن سراي عابدين ومناظرها والأبهة الشائعة في حجراتها وكل مكان فيها و "الجو" الملكي الذي يطبع ذلك القصر بوضوح، كل هذا قد ذهب بلب رشاد مهنا فطار عقله ونسى أنه ليس من أسرة محمد علي.

ويبدو أيضاً أن سراي عابدين كانت شؤماً على كل من حكم البلاد.. واذكر أن جمال عبد الناصر في ابريل عام ١٩٥٤ كان يجلس في مكتب اللواء نجيب بعابدين، وقال جمال للواء نجيب:

- "أنا حاسس إن القصر ده شؤم على كل من يجلس فيه، فأيه رأيك.. نقعد لك في مكتب تاني في مكان آخر، ونخلي القصر ده متحف؟"

ورد اللواء نجيب على جمال قائلاً بالنص:

- "يا سيدي.. ما شؤم إلا الشؤم".

وسكت جمال.

أنا أملك وأحكم:

وأعود إلى الموضوع.. إلى "الهيصة" فأقول إن الأمور تطورت بسرعة بعد حكاية رحلة رشاد الملكية إلى سيوه ففي ذات يوم استدعى رشاد مهنا اللواء نجيب إلى مكتبه في عابدين، وفي حضور سليمان حافظ أخذ رشاد مهنا يعنفه، وكان رشاد وهو يفعل هذا يضرب المكتب بقبضة يده ويقول لنجيب:

- "أنا لا أسمح بهذا، ولا أرضى بذاك". ثم صرخ قائلاً وبصوت عال جداً:

- "أنا مش زي فاروق.. أنا هنا أملك وأحكم"!

وكانت مفاجأة أخرى لنا.. فنحن نعمل ليلاً ونهاراً من أجل إعداد خطوات الثورة المصرية، ورشاد في قصر عابدين يصرخ ويريد أن يملك ويحكم..

ولم يقف طموح رشاد مهنا عند حد، وبدأ يصطدم بنا..

حدث أن الملك المخلوع كان قد اغتصب كالعادة سيارات تابعة للجيش، وبعد الثورة طلبت إدارة الجيش من سراي عابدين إعادة تلك السيارات إلى وحداتها وفوجئنا بأن "مولانا" رشاد مهنا يرفض إعادة تلك السيارات.. وكان هذا الموقف كفيلا بأن يقنعنا تماماً بأن الثورة في خطر وأن البلاد توشك أن ترى ملكاً جديداً من أسرة أخرى غير أسرة محمد علي..

يد الثورة تنقذ الموقف:

وأمام هذا كله عقدت الهيئة التأسيسية للضباط الأحرار اجتماعاً سريعاً، أصدرت فيه قراراً بإقالة رشاد مهنا من منصبه كوصي للعرش والاكتفاء بالأمير السابق محمد عبد المنعم في مقعد الوصاية إلى أن يبت في مسألة العرش، وكنا قد أجلنا هذه العملية إلى أن تأتي الفرصة المناسبة.

وخرج رشاد من قصر عابدين إلى بيته وذهب إليه جمال عبد الناصر وعرض عليه في كرم شديد أن يختار لنفسه أي منصب في السلك الدبلوماسي.. لكن رشاد رفض.. كان يريد أن يظل ملكاً على البلاد.

وبدأ رشاد ينشط مستغلاً كرم الثورة وعطفها عليه.. فبدأ يتصل بالأحزاب وبالإخوان بصفة خاصة، وكان الوفد يأمل في ذلك الوقت في العودة بشكله القديم، ورأى الوفد في خروج رشاد مهنا فرصة ذهبية..

وظنوا – جميعا – أن وراء رشاد مهنا تكتلات داخل صفوف القوات المسلحة، لهذا كبر الأمل في صدورهم واعتقدوا – جميعاً – أن رشاد هو منقذهم من الثورة..

تكتل الإقطاع مع رشاد مهنا:

وحدث ما كان لابد أن يحدث.. ففي كل بلاد الدنيا عندما تقوم ثورة يتكتل أعداؤها الذين تهدد الثورة مصالحهم في جبهة واحدة ليقاوموها.. وقد حدث فعلاً أن لاحظنا بوادر هذا التكتل.. الأحزاب والإقطاع ورشاد – جميعاً – بدءوا يتحفزون للقضاء على الثورة.. وتتابعت الأحداث ورأينا أن حسن نية الثورة قد يقضي عليها، كما رأينا أن عطفنا واستعدادنا للتعاون مع الجميع وإيماننا بكل مصري مخلص يريد أن يعمل في نطاق الثورة مهما كان لونه ومعتقداته كل هذا قد يطيح.. لا بالثورة، فثورات الشعوب لا يمكن القضاء عليها.. بل قد يطيح بكل ما صنعناه نحن من أحداث تاريخية كان حتماً على الثورة أن تجتازها لتبدأ في صنع مستقبل الشعب.

أحسسنا أن تكتل تجار السياسة مع رشاد مهنا مع الإخوان مع الإقطاع قد يعطل من سير الثورة، وهذا ما لم نكن على استعداد للتهاون فيه.. في مثل هذه

الحالات يبدو الأمر مضحكاً إذا لم نضرب بيد الثورة الحديدية لا البيضاء المسالمة العطوفة التي مددناها للجميع.

وجاء يناير عام ١٩٥٣، وكان قد مضى على الثورة ستة شهور، فوجدنا أنفسنا أمام جبهات تتآمر علينا في الخفاء وتظهر لنا الود في العلن.. وجدنا أنفسنا أمام أحزاب تريد طعننا من الخلف، وأفراد ينشطون في الظلام لحساب الإقطاع، ورشاد والرجعية المصرية المتحجرة.. وكنا في واد وجميع الأحزاب والهيئات في واد آخر.. كنا نريد ثورة ونحمل رقابنا على أكفنا من أجل هذه الثورة المصرية التي بدأت زحفها منذ يوليو.. وهم ماذا كانوا يريدون؟!

من يحتاج إلى العدل؟

هل كانوا يريدون الحرية؟!

هل كانوا يريدون العدالة.. في الريف والحضر؟!

أم تراهم كانوا يريدون الحق والعدل والسلام؟!

وأين كانوا إذن قبل أن نصنع ما صنعنا؟!

ومن هم.. هذا هو السؤال..

إن الحق والعدل والسلام آمال تملأ صدور الكادحين والعاملين وتدفعهم الحاجة إليها دفعاً إلى العمل على تحقيقها.. أما أن يطالب أقطاعي بالحرية وبالحق والعدل والسلام.. فهذا أمر يبدو مضحكا.. بل ويدعو إلى السخط الشديد..

فهو ليس في حاجة إلى عدل ولا إلى حق ولا إلى سلام.. هو يحتكر كل هذه الحقوق ويسلبها من البشر.. إذن فالذين تكتلوا ضد الثورة مع رشاد مهنا لم يكن هدفهم عودة الحياة الديمقراطية المزعومة ولا عودة الحق والعدل والسلام.. فتلك أشياء لم يكن لها وجود قبل الثورة للشعب جميعا – ويجب على الثورة سحقهم بلا رحمة.. بل وسحق الذين يقفون إلى جوارهم في انتظار الجريمة.. ولكن الجريمة لم تقع.. فقد امتدت يد الثورة الحديدية وقبرت الجريمة في مهدها فانتهى الأمر بمحاكمة رشاد مهنا، وإلغاء الأحزاب.. وتحديد فترة انتقال تبدأ من يناير ١٩٥٣ وتنتهي في يناير ١٩٥٦.

أسقطنا الدستور الإقطاعي

ضربت الثورة – كما قلت – بقبضتها الحديدية فألغت الأحزاب وحددت فترة انتقال، وذلك عندما أطل عليها خطر التكتل الذي تم بين رشاد مهنا، والإقطاع، والإخوان والأحزاب.. وكان حتماً على الثورة أن تضرب هؤلاء الأعداء منذ اللحظة الأولى التي خرج فيها كبيرهم – فاروق – من البلاد.. فالقيادات السياسية التي كانت في مصر قبل يوليو لم تكن تريد – ثورة – كما ذكرت، بل كان هدفها دواماً هو الحكم والسيطرة على الشعب، لصالح القصر والنظام الذي كان قائماً. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى – فالثورة – أي ثورة – لا يعقل أبداً أن يتولى توجيهها نحو أهدافها العديدة جماعة من السياسيين لم يشتركوا – على الإطلاق – في قيامها أو في التمهيد لها.. بل على العكس، كانت الثورة المصرية التي تهدف إلى تحرير الشعب من القوات المحتلة والنظام الملكي، وتصنيع المجتمع الإقطاعي المهلهل، لا تجد في واحد من رجال الأحزاب عوناً لها قبل أن تقوم، فكيف يمكن لهذه الثورة أن تجد العون في هؤلاء السياسيين بعد أن قامت فعلاً وبعد أن بدأت تزحف على أعداء الشعب؟

هل كانت الثورة الأمريكية أو الروسية أو الصينية تنجح لو أن رجالها لجأوا إلى السياسيين القدامى وعهدوا إليهم بتوجيه الثورة، وما هو دور الذين صنعوا الثورة نفسها؟! يترهبنون ويطلقون لحاهم، أو ماذا يصنعون؟

كنا – إذن – على حق عندما ضربنا بيد الثورة الحديدية وقبرنا الجريمة في مهدها، قبل أن تتم على أيدي رجال الأحزاب، ورشاد مهنا وباشاوات البلاد.. ومشعوذيها!

إن إلغاء الأحزاب المصرية بعد يوليو عام ١٩٥٢ كان عملاً ثورياً ينبع من أصول الثورة المصرية.. ومن اتجاهها الإنساني الشعبي.

فلم يحدث في تاريخ الثورات أن قام جماعة من الناس بثورة على الطغيان والاستبداد والاستعمار والإقطاع، ثم تركوا – الثورة – وهي لم تزل وليدة لم تقف بعد على قدميها للرجعيين والإقطاعيين والمشعوذين ليحفروا لها قبراً.. هذا هو

الوضع الجديد بالتحديد بالنسبة لثورتنا عندما قررت إلغاء الأحزاب، وتحديد فترة انتقال وإسقاط الدستور..

نحن نحمي الدستور:

لقد قلنا بعد طردنا زعيم العصابات السياسية في مصر الملك السابق فاروق أننا نحمي الدستور.. وكنا فعلا نعني ما نقول، لكن الأحزاب المصرية وليدة النظام الملكي الإقطاعي ترجمت هذا الشعار بما يتفق ومصالحها، فطالبت بالحكم وبإجراء انتخابات.. أي بدفن الثورة المصرية في أعماق الأرض، ليبقوا هم سادة للعباد والشعب حيث هو في الحضيض يمرض ويجوع ويموت.. هذا شيء لا يعنيهم، فسراج الدين وغيره من قادة "الشعب" في عهد فاروق يريد أن يحكم ويحكم ويحكم، أما العدالة والحرية والنور فهو وغيره من القادة الكبار ليسوا في حاجة إلى شيء منها، فالعدالة والحرية والنور أشياء موجودة في حياته هو.. في قصره وفي مكتبه وحيث يكون، إنه يملك كل شيء وليس في حاجة إلى شيء.. فقط هو يريد أن يحكم العباد، فإذا لم يستطع فالأمر إذن ديكتاتورية وفاشية وحكومة ضباط وعساكر.. وكان علينا ونحن نعد خططنا للزحف الأبيض على أعداء الشعب، أن نتردد ألف مرة قبل أن نضرب بيد الثورة الحديدية، فكما قلت من قبل كنا لا نريد أن نخوض معارك دموية، ما دامت الثورة تستطيع استرداد الأرض من الإقطاعي بالحسنى، حتى إذا لم يخضع لمشيئة الثورة، كنا في حل من استعمال القوة، ذلك كان قانون الثورة.. وكل ثورة، سواء أكانت في مصر أم في آخر الدنيا..

وأعود إلى الدستور.. كنا نعني كما قلت أن الثورة تحمي الدستور، والدستور الذي وضع للبلاد في ابريل عام ١٩٢٣ يتكون من ١٧٠ مادة وتنص المادة الأولى منه على أن "مصر دولة مستقلة ذات سيادة، وهي حرة مستقلة وملكها لا يتجزأ ولا ينزل عن شيء منه، وحكومتها ملكية وراثية وشكلها نيابي".

ذلك هو نص المادة الأولى من ذلك الدستور، وكما قلت كانت الثورة تحسن الظن بجميع المواطنين، وتريد أن يتعاون معها كل الناس، وعندما مدت الثورة يدها للأحزاب ثم طالبت تلك الأحزاب بأن تثور أيضاً مثلما ثار تنظيم الضباط الأحرار تبين للثورة خطؤها، وكادت جريمة القضاء على الثورة تقع فعلا.. لولا أن ضربت – كما قلت – بيدها الحديدية، فلم تتم الجريمة.. وانتهى الأمر بحل الأحزاب ومحاكمة رشاد مهنا.. وكذلك بإسقاط الدستور.

كنا نريد أن نتعاون إذن مع الجميع في نطاق الوضع الموجود، ثم بعد ذلك يشترك معنا الجميع في إعداد خطوات الثورة، بنفس حماسنا، وبنفس فهمنا للثورات.. وبنفس رغبتنا في تحرير هذا الشعب من كل قيوده.. وعندما تراجع رجال الأحزاب ورفضوا أن يثوروا مثلنا، رأينا أن نعيد النظر في خططنا.. رأينا أن نعتمد على أنفسنا، وعرفنا في الحال أن الثورة لا يمكن على الإطلاق أن تنجح بغير رجالها، هم وحدهم الذين يمكنهم حمايتها والذود عنها وقطع الطريق على المتآمرين والمتربصين وأعداء التطور.. لا ثورة بلا ثوار.. كان ذلك هو شعارنا بعد أن اكتشفنا مدى الخطأ الذي وقعنا فيه، عندما مددنا أيدينا للجميع وطالبنا الجميع بأن يثوروا، فأرادوا أن يحكموا.

ثم رأينا أن الدستور الذي يأخذ علينا أعداء الثورة إسقاطه.. يحمي النظام الملكي كما ذكرت، ويحمي مالك الأرض وسيد العباد.. وتناقشنا فترة ليست قصيرة، حول تعديل المواد التي تتعارض مع خطوات الثورة الأولى.. القضاء على تاج محمد علي، وعلى تيجان بشوات مصر في الريف.

اللواء نجيب يعارض:

لكن بعد أن درسنا المسألة برمتها وجدنا – وقد قررنا العمل بمفردنا كثوار لا كحكام – أن بقاء دستور ١٩٢٣ ليس في مضمون الثورة على الإطلاق.. فهي ثورة اجتماعية قبل كل شيء.. ثورة تستهدف تغيير الوضع الاقتصادي وهذا أمر يتنافى مع الدستور، وكذلك طرد الملك وإسقاط النظام القائم أمر لا يجيزه الدستور أيضاً، فكيف إذن نبقى عليه؟ ومواده الباقية تحمي الأحزاب ورجالها، الذين هم أعداء للثورة، والذين بدءوا يتآمرون عليها!!

وكان لابد للثورة المصرية بعد يوليو أن تسقط الدستور ثم بعد ذلك تضع الثورة دستوراً ينبع من حاجات الشعب لا من مصالح الحكام أو الطبقات المسيطرة على الاقتصاد وكل شيء.. فقد كان من أسس ثورتنا القضاء على سيطرة رأس المال وعلى جهاز الحكم، وأعلن عن هذا المبدأ في منشورات الضباط الأحرار قبل الثورة بزمن طويل، ثم أعلنه مرة ثانية الرئيس جمال عبد الناصر ضمن مبادئ الثورة الستة.. فكيف كان إذن يمكننا الإبقاء على الدستور وكثير جداً من مواده يتعارض مع أهداف الثورة المصرية النابعة من مصالح الطبقات الكادحة والعاملة والمتوسطة؟!

وقد كان اللواء نجيب يعارض في إسقاط الدستور مثل باقي الأحزاب والهيئات التي كانت تريد الحكم ولا تريد أبداً أية ثورة، ثم ما لبث نجيب أن وافق على رأينا.. تماماً مثلما حدث عندما قررنا إلغاء النظام الملكي، فقد عارض اللواء نجيب في هذا أيضاً ثم ما لبث أن عدل عن رأيه، وأذكر أنني ذهبت إليه يومها في منزله.. ثم خرجت وعقدت مؤتمراً صحفياً في خيمة الحرس أمام المنزل وأذعت من هناك البيان.

تلك كانت قصة إسقاط الدستور.. ففي مصر ثورة ولها أهداف اقتصادية واجتماعية وسياسية يقف الدستور كجدار عال أمامها.. وهنا – أيضاً – تمتد يد الثورة لتهدم الجدار.. ولتعد دستوراً ينبع من فلسفتها.. دستوراً يحمي الشعب في عصر ما بعد الثورة، ويحفظ للشعب كل كسب حصل عليه من أعدائه.. وقد كان دستور ١٩٢٣ يحمي مكاسب أعداء الشعب فقط!

مقاييس الثورة

مقاييس اليوم ومقاييس الأمس

أعتقد أن المصلحة العامة، تقضي بوضع النقط على الحروف، ليدرك الذين تلتبس عليهم بعض المسائل، وتختلط عليهم بعض الأمور، إن المقاييس التي اعتادها الناس في العهود الماضية، لم تعد تصلح لهذا العهد، ولم تعد متفقة مع السرعة التي دارت بها عجلة الزمان.

إن مصر اليوم، ومنذ أكثر من أربع سنوات تعيش في ثورة، والثورة التي انبثقت من أعماق الشعب المصري وعبرت عن إرادته، لم تكن ثورة على جانب من الفساد دون آخر، ولم تكن ثورة على فرد دون سواه، وإنما هي ثورة شاملة كل عنصر من عناصر الفساد أيا كان وأينما كان.

وقد اضطلع بقيادة هذه الثورة لفيف من أبناء مصر عاشوا سنوات عديدة قبل الثورة وبعدها مجتمعين تحت راية المبادئ السامية التي أعلنوا عنها منذ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ومازالوا يلتفون حولها، ويضعونها موضع التنفيذ في عزم وتصميم وإيمان، وقد تبينت متانة الرابطة التي جمعت بين هؤلاء الثوار حينما دقت الساعة وحانت اللحظة الحاسمة التي تعرضوا فيها للمحنة الفاصلة بين النجاح والفشل، أو بعبارة أخرى بين انتصار المبادئ وأعواد المشانق، فكانت وقفتهم المجيدة صفا واحدا، وكتلة متراصة هي حجر الزاوية فيما حققوا لبلادهم من عزة ومجد.

لقد اجتمعوا إذن على مبادئ لا علاقة لها بالأشخاص، ولا صلة لها بالرابطة التي كانت تجمع الأحزاب المنحلة البائدة، رابطة الغنائم والأسلاب.

ومثل هذه الرابطة، رابطة المبادئ المجردة من المطامع والأسلاب، لا يسهل ولا يمكن أن تنفصم وليس من الميسور ولا من الممكن أن تتقطع أواصر العلائق الشخصية التي تقوم على هذه الرابطة النبيلة مهما يحدث من خلاف أو تعارض بين وجهات النظر، وذلك لأن مراد الخلاف لا يتعلق بنزاع على مغنم، أو تهافت على منصب.

قد يحدث، بل لابد أن يحدث بين أفراد أية جماعة من الناس، تباين في زوايا النظر إلى مسألة معينة أو أكثر، ولكن هذا التباين بين أفراد وحدت بينهم المبادئ

السامية لا يمكن أن يفض ما بينهم من رباط مقدس، فهذا الرباط هو الجوهر النقي الطاهر الذي لا تنفصم عروته، وأما الخلاف، وتباين وجهات النظر فهو عرض لا يمكن أن ينال من روعة الجوهر.

على ضوء هذا التحليل الواقعي الواضح، يجب أن يطبق الناس مقاييس جديدة في الحكم على تطور الحوادث في عهد الثورة، وقد انتهى الزمن الذي كانت فيه الاعتبارات الشخصية، والمنافسات الحزبية هي المقياس أو المفتاح الذي يفسر مظاهر الوحدة والخلاف بين المسئولين عن مصائر البلاد.

إن كل فرد في هذا العهد الثائر لا يشغل نفسه ولا يشغل الرأي العام بالمكان الذي يحتله، والمغنم الذي يكسبه والصف الذي يوضع فيه، وإنما يقف وقفة الجندي الذي يؤدي واجبه أياً كان مكانه بين الجنود العاملين.

وهذا مقياس آخر لم يكن له وجود فيما مضى من عهود الحكم، ولكنه أحد المقاييس التي لا يصلح سواها للحكم على الأشياء والأحداث في هذه الأيام.

ف: 562 ت:5/3/2009